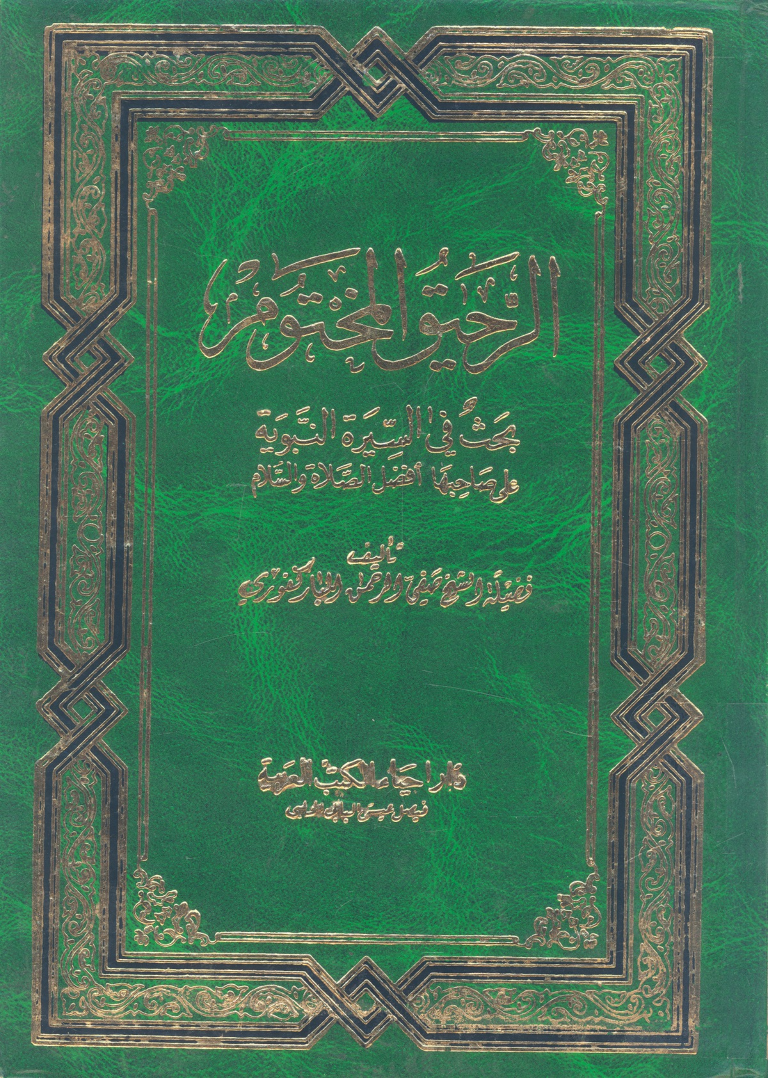

الرحيق المختوم
بحث في السيرة النبوية
على صاحبها أفضل الصلاة والسلام
تأليف
فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري
دار إحياء الكتب العربية
فيصل عيسى البابي الحلبي

الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

تأليف

فضيلة الشيخ

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية - الهند

طبعة مصححة ومنقحة

البحث الفائز بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية

التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي

الطبعة الثانية
١٤١١هـ - ١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

SAFIURRAHMAN - AL - MUBARAK PURI

ALJAMEATUSSALAFIA, REWRI TALAB,

VARANASI, (U.P.)

(INDIA.)

الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

كلمة

معالي الشيخ محمد علي الحركان

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الحمد لله رب العالمين ، خالق السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين ، بشّر وأنذر ووعد وأوعد أنقذ الله به البشر من الضلالة ، وهدى الناس إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ، وبعـد :

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم الشفاعة والدرجة الرفيعة ، وهدى المسلمين إلى محبته ، وجعل اتباعه من محبته تعالى فقال تعالى: « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » فكان هذا من الأسباب التى صيرت القلوب تهفو إلى محبته صلى الله عليه وسلم ، وتتلمس الأسباب التى توثق الصلة فيما بينها وبينه صلى الله عليه وسلم ، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه ، ونشر سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم ، وسيرته صلى الله عليه وسلم هى أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمـة ، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم رضى الله عنها « كان خلقه القرآن » والقرآن كتاب الله وكلماته التامة ، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعا .

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التى انبثق عنها المؤتمر الإسلامى الأول للسيرة النبويـة الشريفة الذى عقـد بباكستان سنة ١٣٩٦هـ ، حيث أعلنت الرابطة فى هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودى توزع على أحسن خمسة بحوث فى السيرة النبوية بالشروط الآتية :

(١) أن يكون البحث متكاملا مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها .

(٢) أن يكون جيدا ولم يسبق نشره من قبل .

(٣) أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التى اعتمد عليها فى كتابة البحث .

(٤) أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت .

(٥) أن يكتب البحث بخط واضح ، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة .

(٦) تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى .

(٧) يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الثانى ١٣٩٦هـ ، وينتهى موعد القبول بغرة محرم ١٣٩٧هـ .

(٨) تسلم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة فى ظرف مختوم وتضع الأمانة عليه رقما تسلسليا خاصا .

(٩) تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء فى هذا الشأن .

فكان هذا الإعلان حافزا لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله صلى الله عليه وسلم ، واستعدت رابطة العالم الإسلامى لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى .

وبدأ الإخوان الكرام فى إرسال بحوثهم بهذه اللغات ،وقد بلغ عددها واحدا وسبعين ومائة بحث منها :

٨٤ بحثا باللغة العربية . ٦٤ بحثا باللغة الأردية . ٢١ بحثا باللغة الإنجليزية وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية ، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية .

وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة ، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتى :

(١) الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفى الرحمن المباركفورى من الجامعة السلفية بالهند ، ومقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودى .

(٢) الفائز بالجائزة الثانية الدكتور مجيد على خان من الجامعة المحلية الإسلامية نيودلهى الهند ، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودى .

(٣) الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودى.

(٤) الفائز بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود محمد منصور ليمود من جمهورية مصر العربية ، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودى .

(٥) الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية ، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودى .

وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين فى المؤتمر الإسلامى الآسيوى الأول الذى عقـــد فى كراتشى فى شهر شعبان سنة ١٣٩٨هـ . كما أعلن عن ذلك فى جميع الصحف .

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلا كبيرا تحت إشراف صاحب السمو الملكى الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيـــز وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة نيابة عن صاحب السمو الملكى الأمير فواز بـــن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة حيث تفضل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـ . وفى هذا الحفـــل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث الفائزة ونشرها بعدة لغات ،وتنفيذا لذلك هاهى ذى تضع بين يدى القارئ الكريم باكورة طبعات تلك البحوث،وهو بحث الشيخ صفى الرحمن المباركفورى ، من الجامعـــة السلفية بالهند لأنه الفائـــز بالجائزة الأولى،وستوالى طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعا أعمالنا خالصة لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الأمين العـــام

لرابطة العـــالم الإسلامى

محمد بن على الحركان

حياتي كما عرفتها

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد ، فتكملة للشروط التي اشترطتها رابطة العالم الإسلامي على الباحثين حول موضوع السيرة النبوية أقدم عن حياتي ما عرفته أو ما مارسته طيلة السنين .

سياقة النسب :

صفي الرحمن بن عبد الله بن محمد أكبر بن محمد علي بن عبد المؤمن بـــن فقير الله المباركفوري الأعظمي .

الأســـرة :

تعرف أسرتنا بالأسرة الأنصارية ، وشعب الأنصار من أكبر شعوب المسلمين في الهند ، يوجد في جميع أرجائها ، ويزعم عامة من ينتمي إلى هذا الشعب أنه من ولد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه مضيف الرسول صلى الله عليه وسلم .

والحقيقة أن هذا الشعب ينقسم إلى قسمين : منهم من هو من ولد هذا الصحابي الجليل ، وقد حفظ بعضهم نسبه ، وهم قلة قليلة جداً . وقسم ليسوا من ولد هذا الصحابي الجليل قطعاً ، وإنما هم من أبناء سكان البلاد القدامى ، أسلم أكثرهم خلال فترات الفتوحات الإسلامية ، وعرفوا بالأنصار إما تشبيها لهم بأنصار المدينة ؛ أو لأنهم أسلموا على أيـــدي بعض الأنصار ، فنسبتهم إليهم نسبة ولاء الإسلام لا نسبة النسب ، ولا أدري عن أسرتي من أي القسمين هي . . .

الميـــلاد :

ولدت في ٦ يونيو سنة ١٩٤٣م – على ما هـــو مكتوب في شهاداتي – في قرية من ضواحي مباركفور ، وهي معروفة الآن بقرية حسين آبـــاد ، تقع فـــي مقاطعة أعظم كده من إيالة اتربرديش . .

التعليم والدراسة :

تعلمت في صباى شيئا من القرآن الكريم على جدى وعمومتى ، ثم التحقت بمدرسة دار التعليم فى مباركفور سنة ١٩٤٨م ، وقضيت هناك ست سنوات دراسية أتممت فيها دراسة السنوات الابتدائية ، وتعلمت بعض الكتب الفارسية . ثم انتقلت إلى مدرسة إحياء العلوم بمباركفور في شهر يونيو من سنة ١٩٥٤م ، وأخذت أتعلم اللغة العربية وقواعدها من النحو والصرف ، وبعض الفنون الأخرى ، وبعد سنتين التحقت بمدرسة أخرى تعد من أهم كليات الشريعة فى هذه المنطقة ، وهى مدرسة « فيض عام » ببلدة مئو ، على بعد خمس وثلاثين كيلو مترا من بـــلدة مباركفور ، التحقت بها فى شهر مايو سنة ١٩٥٦م ، وبقيت هناك خمس سنوات أتعلم اللغة العربية وقواعدها ، والعلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه وأصولها وغير ذلك ، حتى تخرجت منها فى شهر يناير سنة ١٩٦١م،ونلت شهادة التخرج وهى تعادل شهادة الفضيلة فى الشريعة والعلوم ، وتشتمل على إجـــازة التدريس والإفتـــاء .

ومن حسن حظى أنى نجحت فى جميع الاختبارات بتقدير ممتاز فى الكلية بأسرها ، أو فى زملائى على الأقل .

وفى نفس الوقت كنت أستعد للمساهمة فى اختبارات تعقدها لجنة حكومية تحت إشراف حكومة اتربرديش (الهنـــد) وهى معروفة بـ « هيئة الاختبارات العربية والفارسية فى الله آباد » فساهمت فى اختبار « مولوى » فى فبراير سنة ١٩٥٩م وفى اختبار « عالم » فى فبراير سنة ١٩٦٠م،ونجحت فى الاختبارين بتقدير جيد جدا وليس من دأب الهيئة النص على من هو ممتاز حتى يعرف ذلك ونلت الشهادتين من قبل الهيئة .

وبعد فترة طويلة ساهمت فى اختبار آخر — من تلك الاختبارات التى تعقدها الهيئة — فى العام الحالى، نظرا إلى الظروف والأحوال التى تحيط المشتغلين بالتدريس فساهمت فى اختبار « الفضيلة فى الأدب العربى » فى فبراير من هـــذا العام — سنة ١٩٧٦م — ونجحت بحمد الله بتقدير جيد جدا .

في ميدان العلم والحياة :.

وبعد التخرج من كلية فيض عام اشتغلت بالتدريس والخطابة ، وإلقاء المحاضرات بين المسلمين ، في مقاطعة الله آباد ونغبور ، وبعد سنتين دعاني في شهر مارس سنة ١٩٦٣م أمين مدرسة « فيض عام » إلى التدريس فيها ، ولم أقض هناك إلا عامين حتى ألجأتني الظروف إلى الانفصال عنها ، وبعد عام واحد قضيته — حسب التعاقد — في التدريس بجامعة « الرشاد » في أعظم كده دعيت إلى مدرسة دار الحديث ببلدة مئو في فبراير سنة ١٩٦٦م ، فبقيت ثلاث سنوات أدرس فيها ، وأدير شئونها الدراسية والداخلية نيابة عن رئيس المدرسين ، ثم استقلت منها ابتعادا عن خلافات حدثت بين أعضاء مجلسها التنفيذي كادت تؤدي إلى تعطيل الدراسة .

وخلال هذه الأعوام الثلاثة لقيت بعد حرب ٥ حزيران ١٩٦٧م بطلين جليلين من أبطال الإسلام ، كان صدراهما يغليان بنزعات الجهاد ضد الاضطهادات التي تتوالى على المسلمين ، وضد القوات والشعوب التي تدبر مكائد ومؤامرات يعاني مرارتها المسلمون ، وكان هذا الجهاد على جميع المستويات ، وفي كل الميادين الفكرية والثقافية والحربية وغيرها ، فانضممت إلى هذين البطلين حتى صرت ثالث الأثافي .

وما زلنا نفكر في هذه النواحي صباح مساء ، حتى قمنا بدعوة الشباب المسلمين إلى الاستعداد للجهاد ضد إسرائيل أولا ، وضد جميع أعداء الإسلام والسلامة والإنسانية ثانيا ، وصارت الاستمارات تتوالى علينا من الشباب يسجلون فيها عزمهم على التضحية بأنفسهم وإهراق آخر قطرة من دمائهم في هذا السبيل فشكلنا منهم ألفي شاب — بعد الانتخاب — للتدريب العسكري ، وفي هذه الأيام انعقد مؤتمر فلسطين في نيودلهي في أغسطس سنة ١٩٦٧م ، وحضرنا فيه كمندوبين ، ثم رجعنا إلى أعمالنا .

ودبرت المكائد والمؤامرات خلفنا من الداخل والخارج ، حتى تبدلت الأحوال وتغيرت الظروف ، ورأينا من الحزم أن نترك عملنا على ما هو عليه ، ونبدأ سيرنا من طريق آخر ، ولم نلبث أن قدر الله بيننا — نحن الثلاثة — تباعد البلدان وتفارق

الخلان وبعد استقالتي من مدرسة دار الحديث ببلدة مئو لم تمض أيام حتى دعيت إلى كلية فيض العلوم ببلدة سيونى — فى ولاية « مدهيابرديش » على بعد سبعمائة كيلو مترا أو أكثر من بلدة مئو.

نزلت ببلدة سيونى فى يناير سنة ١٩٦٩م ، أدرس فى « فيض العلوم » وأدير جميع شئونها الداخلية والخارجية نيابة عن الأمين العام وأشرف على المدرسين ، وأخطب فى جامع سيونى ، وأقوم بجولات فى أطرافها وضواحيها لإلقاء المحاضرات بين المسلمين ودعوتهم إلى الإسلام من جديد ، وهناك لقيت كبار الشخصيات الإسلامية وفطاحل العلماء القائمين بالدعوة إلى الإسلام فى أرجاء الهند واستفدت بتوجيهاتهم الرشيدة ، وتجاربهم المفيدة .

وشكلنا هناك لجانا تشرف على أحوال المسلمين وشئونهم ، وتأخذ بأيديهم إلى سبيل الرقى والتقدم . وكان لها الأثر البالغ — بحمد الله — فى جميع نواحى الحياة الدينية والفكرية والثقافية والتجارية ، وكانت لها يد بيضاء فى توحيد كلمة المسلمين ، وإنقاذهم من شر البدع والخرافات ، وحضهم على التقيد بالدين .

قضيت هناك أربعة أعوام دراسية ، ولما رجعت إلى وطنى فى أواخر سنة ١٩٧٢م ألح على أعضاء مدرسة دار التعليم بمباركفور للتدريس بها ، وإدارة شئونها التعليمية ، وألجأونى إلى ذلك ، فقمت بمسئولياتى الجديدة نحو هذه المدرسة التى هى أول معهد علمى بالنسبة إلى ، وحين أتممت سنتين دراسيتين فيها طلب أمين عام الجامعة السلفية ببنارس من أمين مدرسة دار التعليم أن يتفضل عليه بنقلى إلى الجامعة السلفية ، فقبل هذا الطلب نظرا لصالح الجامعة ، ولما بينهما من العلاقات والروابط المتنوعة ، وانتقلت إلى الجامعة السلفية فى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٤م ، ولا أزال أقوم فيها بما على من مسئوليات .

المؤلفات :

ولم أهمل فى هذه المدة الطويلة بعد التخرج ناحية الكتابة والتأليف ، فلم أزل أكتب شيئا فشيئا حسب ما تيسر لى من الأوقات ، حتى صنفت أو ترجمت ثمانية

كتب ورسائل ، وكتبت عدة مقالات نشرت فى المجلات والصحائف .

والكتب والرسائل الثمانية هى :

(١) شرح أزهار العرب (بالعربية) سنة ١٩٦٢م . وأزهـــار العرب مجموعة متوسطة من روائع الأشعار ، جمعها محمد بن يوسف السورتى (لم يطبع).

(٢) ترجمة رسالة المصابيح فى مسألة التراويح للسيوطى (بالأردية) سنة ١٩٦٣م (مطبوعة).

(٣) ترجمة الكلم الطيب لابن تيمية (بالأردية) سنة ١٩٦٦م (غير مطبوع).

(٤) ترجمة الأربعين النووية مع الشرح والتوضيح (بالأردية) سنة ١٩٦٩م .

(٥) البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم فى كتب اليهود والنصارى (بالأردية) سنة ١٩٧٠م . (غير مطبوع)

(٦) تذكرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهـــاب التميمى النجـــدى ترجمة لرسالة الشيخ أحمد بن حجر قاضى المحكمة الشرعية بقطر ، زدت عليه تاريخ آل سعود كاملا (بالأردية) سنة ١٩٧٢م . (مطبوع)

(٧) تعليق متوسط على بلوغ المرام لابن حجر العسقلانى (بالعربية) سنة ١٩٧٤ م غير مطبوع .

(٨) القاديانية وبطل الإسلام الشيخ ثناء الله الأمرتسرى (بالأرديـــة) سنة ١٩٧٦م . والآن نحن بصدد ترجمته إلى العربية . (تحت الطبع)

وهذا البحث الذى أقدمه إلى رابطة العالم الإسلامى هو تاسع تسعة من الكتب والرسائل التى قمت بتأليفها . والله الموفق ، وأزمة الأمور كلها بيده . ربنا تقبله منا بقبول حسن وأنبته نباتا حسنا .

صفى الرحمن المباركفورى

كلمة المؤلف

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وفجر لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفجيرا .

وبعد ، فإن من دواعى الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامى أعلنت عقب مؤتمر السيرة النبوية الذى انعقد فى باكستان فى شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦ ﻫ بإقامة مسابقة على مستوى العالم الإسلامى،للبحث حول موضوع السيرة النبوية — على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام — تنشيطا للكاتبين،وتنسيقا لجهودهم الفكرية ، وإنى أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفه البيان . فإن السيرة النبوية والأسوة المحمدية على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام — إذا لاحظناها بعين الدقة والاعتبار — هى المنبع الوحيد الذى تتفجر منه ينابيع حياة العالم الإسلامى وسعادة المجتمع البشرى .

وإن من سعادتى وحسن حظى أنى أساهم فى تلك المسابقة المباركة ، ولكن أين أنا حتى ألقى ضوءا على حياة سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم . وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره ، حتى لا يتهالك فى دياجير الظلمات ، بل يحيا وهو من أمته ، ويموت وهو من أمته ، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته .

وكلمة بسيطة أرى أن أقدمها عن منهجى فى مقالتى هذه : إنى قبل أن آخذ فى كتابة المقالة رأيت أن أضعها فى حجم متوسط متجنبا التطويل الممل والإيجاز

المخل ، ولكنى كثيرا ما رأيت فى المصادر اختلافا كبيرا فى ترتيب الوقائع ،أو فى تفصيل جزئياتها ، وفى مثل هذه المواقع قمت بالتحقيق البالغ ، وأدرت النظر فى جميع جوانب البحث . ثم أثبت فى صلب المقالة ما ترجح لدى بعد التحقيق . ولكن احترزت عن إيراد الدلائل والبراهين ؛ لأن ذلك يفضى إلى طول غير مطلوب . نعم ! ربمـا أشرت إلى الدلائل حين خفت الاستغراب ممن يقرأ المقالة ، أو حين رأيت عامة الكاتبين ذهبوا إلى خلاف الصحيح .

اللهم قدر لى الخير فى الدنيا والآخرة ، إنك أنت الغفور الودود ذو العرش المجيـد .

صفى الرحمن المباركفورى

الجامعة السلفية

بنارس الهند

الجمعة المباركة ٢٤ / ٧ / ١٣٩٦هـ

٢٣ / ٧ / ١٩٧٦م

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية — على صاحبها الصلاة والسلام — عبارة فى الحقيقة عن الرسالة التى حملها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المجتمع البشرى ، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله . وإذن فلا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتمامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها. ونظرا إلى ذلك نقدم فصلا عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام ، وعن الظروف التى بعث فيها محمد صلى الله عليه وسلم .

موقع العرب :

العرب لغة : الصحارى والقفار ، والأرض المجدبة التى لا ماء فيها ولا نبات . وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب . كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض ، واتخذوها موطنا لهم .

وجزيرة العرب يحدها غربا البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وشرقا الخليج العربى وجزء كبير من بلاد العراق الجنوبية ، وجنوبا بحر العرب الذى هو امتداد لبحر الهند ، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف فى بعض هذه الحدود ، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع.

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعى والجغرافى ؛ فأما باعتبار وضعها الداخلى فهى محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب ، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصنا منيعا لا يسمح للأجانب أن يحتلوها ويبسطوا عليها سيطرتهم ونفوذهم . ولذلك نرى سكان الجزيرة أحرارا فى جميع الشئون منذ أقدم العصور ، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتهما لولا هذا السد المنيع .

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة فى العالم القديم . وتلتقى بها برا وبحرا . فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول فى قارة أفريقية ، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا ، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم والشرق

الأوسط والأدنى ، وتفضى إلى الهند والصين ، وكذلك تلتقى كل قارة بالجزيرة بحرا ، وترسى سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأسا .

ولأجل هذا الوضع الجغرافى كان شمال الجزيـــرة وجنوبها مهبطا للأمم ومركزا لتبادل التجارة ، والثقافة ، والديانة ، والفنون .

أقوام العرب :

وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التى ينحدرون منها :

(١) العرب البائدة : وهم العـــرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها .

(٢) العرب العاربة : وهم العرب المنحـــدرة من صلب يعرب بن يشجب بـــن قحطان ، وتسمى بالعرب القحطانية .

(٣) العرب المستعربة : وهى العرب المنحدرة من صلب إسماعيل ، وتسمى بالعرب العدنانيـــة .

أما العرب العاربة — وهى شعب قحطان — فمهدها بلاد اليمن ، وقد تشعبت قبائلها وبطونها فاشتهرت منها قبيلتان :

(أ) حمير ، وأشهر بطونها زيد الجمهور ، وقضاعة ، والسكاسك .

(ب) كهلان ، وأشهر بطونها همدان ، وأنمار ، وطئ ، ومذحج ، وكندة ، ولخم ، وجذام ، والأزد ، والأوس ، والخـــزرج ، وأولاد جفنـــة ملوك الشام .

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن ، وانتشرت فى أنحاء الجزيرة ، وكانت هجرة معظمهم قبيل سيل العرم حين فشلت تجارتهم لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية ، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام .

ولا غرو فقد كانت منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان ، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان .

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام :

(١) الأزد : وكانت هجرتهم على رأى سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقباء . فساروا يتنقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الرواد ، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال . وهاك تفصيل الأماكن التى سكنوا فيها بعد الرحلة نهائيا :

عطف ثعلبة بن عمرو من الأزد نحو الحجاز ، فأقام بين الثعلبية وذى قار ، ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة ، فأقام بها واستوطنها . ومن أبناء ثعلبة هذا : الأوس والخزرج ، ابنا جارثة بن ثعلبة .

وانتقل منهم حارثة بن عمرو — وهو خزاعة — وبنوه فى ربوع الحجاز ، حتى نزلوا بمر الظهران ، ثم افتتحوا الحرم فقطنوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة .

ونزل عمران بن عمرو فى عمان ، واستوطنها هو وبنوه ، وهم أزد عمان ، وأقامت قبائل نصر بن الأزد بتهامة ، وهم أزد شنوءة .

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه ، وهو أبو الملوك الغساسنة. نسبة إلى ماء فى الحجاز يعرف بغسان كانوا قد نزلوا بها أولا قبل تنقلهم إلى الشام .

(٢) لخم وجذام — وكان فى اللخميين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

(٣) بنوطئ — ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجا وسلمى ، وأقاموا هناك ، حتى عرف الجبلان بجبلى طئ .

(٤) كندة — نزلوا بالبحرين ، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بحضرموت ، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين ، ثم نزلوا نجد ، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها سرعان ما فنيت وذهبت آثارها .

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف فى نسبتها إليه — وهى قضاعة — هجرت

اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق [1]

وأما العرب المستعربة فأصل جدهم الأعلى — وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام — من بلاد العراق ، من بلدة يقال لها « أر » على الشاطئ الغربى من نهر الفرات ، بالقرب من الكوفة ، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة إبراهيم عليه السلام ، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية فى تلك البلاد [2]

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حران ، ومنها إلى فلسطين ، فاتخذها قاعدة لدعوته ، وكانت له جولات فى أرجاء هذه البلاد وغيرها [3] وقدم مرة إلى مصر ، وقد حاول فرعون مصر كيدا وسوءاً بزوجته سارة ولكن الله ردّ كيده فى نحره ، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله ، حتى أخدمها ابنته [4] هاجر ، اعترافا بفضلها ، وزوجتها سارة إبراهيم [5] .

ورجع إبراهيم إلى فلسطين ، ورزقه الله من هاجر إسماعيل ، وغارت سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفى هاجر مع ولدها الصغير — إسماعيل — فقدم بهما إلى الحجاز ، وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم الذى لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ورجع إلى فلسطين ، ولم تمض أيام حتى نفد الزاد والماء ، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله ، فصارت قوتا لهما

---

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١١-١٣ وقلب جزيرة العرب ص ٢٣١ إلى ٢٣٥ — واختلفت المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً فى تعيين زمن هذه الهجرات وأسبابها ، وبعد إدارة النظر من جميع الجوانب أثبتنا ما ترجح عندنا فى هذا الباب من حيث الدليل .

(٢) تفهيم القرآن للسيد أبى الأعلى المودودى ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(٣) نفس المصدر ١ / ١٠٨ .

(٤) المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة ، ولكن حقق الكاتب الكبير العلامة القاضى محمد سليمان المنصورفورى أنها كانت حرة ، وكانت ابنة فرعون . انظر رحمة للعالمين ٢ / ٣٦-٣٧

(٥) نفس المصدر ٢ / ٣٤ وانظر فى تفصيل القصة : صحيح البخارى ١ / ٤٧٤ .

وبلاغا إلى حين . والقصة معروفة بطولها [١] .

وجاءت قبيلة يمانية — وهى جرهم الثانية — فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال إنهم كانوا قبل ذلك فى الأودية التى بأطراف مكة . وقد صرحت رواية البخارى أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل ، وقبل أن يشب ، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادى قبل ذلك [٢] .

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته ، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات ، إلا أن المصادر التاريخية الموثوقة حفظت أربعة منها .

فقد ذكر الله تعالى فى القرآن أنه أرى إبراهيم فى المنام أنه يذبح إسماعيل ، فقام بامتثال هذا الأمر « فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا أبراهيم . قد صدقت الرؤيا ، إنا نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » [٣] .

وقد ذكر فى سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة ، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحق ، لأن البشارة بإسحق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها .

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة — على الأقل — قبل أن يشب إسماعيل ، أما الرحلات الثلاث الأخر فقد رواها البخارى بطولها عن ابن عباس مرفوعا [٤] وملخصها أن إسماعيل لما شب وتعلم العربية من جرهم ، وأنفسهم وأعجبهم زوجوه امرأة منهم ، وماتت أمه ، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا التزوج ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالها ، فشكت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه ، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه ، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى ، وهى ابنة مضاض بن عمرو ، كبير جرهم وسيدهم [٥] .

---

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ١ / ٤٧٤ — ٤٧٥ .

(٢) نفس المصدر ١ / ١ / ٤٧٥ .

(٣) الآيات ١٠٣ — ١٠٧ من سورة الصافات .

(٤) ج ١ / ٤٧٥ — ٤٧٦ ...

(٥) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ .

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا التزوج الثانى فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالها فأثنت على الله ، فأوصى إلى إسماعيل أن يثبت عتبة بابه .

وجاء مرة ثالثة فلقى إسماعيل وهو يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن ، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده ، والولد البار الصالح الرشيد عن أبيه وفى هذه المرة بنيا الكعبة ، ورفعا قواعدها ، وأذن إبراهيم فى الناس بالحج كما أمره الله .

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضاض اثنى عشر ولدا ذكرا [١] وهم : نابت أو بنالوط ، قيدار ، وأدبائيل ، ومبشام ، ومشماع ، ودوما ، وميشا ، وحدد ، ويتما ، ويطور ، ونفيس ، وقيدمان ، وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة ، سكنت كلها فى مكة مدة ، وكانت جل معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل فى أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها . ثم أدرجت أحوالهم فى غياهب الزمان ، إلا أولاد نابت وقيدار .

وقد ازدهرت حضارة الأنباط ـــ أبناء نابت ـــ فى شمال الحجاز ، وكونوا حكومة قوية دان لها من بأطرافها ، واتخذوا البطراء عاصمة لهم ، ولم يكن يستطيع مناوأتهم أحد حتى جاء الرومان فقضوا عليهم ، وقد رجح السيد سليمان الندوى بعد البحث الأنيق والتحقيق الدقيق أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان ، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل ، وبقاياهم فى تلك الديار [٢] .

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها . وعدنان هو الجد الحادى

---

(١) نفس المصدر .

(٢) انظر تاريخ أرض القرآن ٢ / ٧٨ إلى ٨٦ .

والعشرون في سلسلة النسب النبوى ، وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول : كذب النسابون ، فلا يتجاوزه [1] . وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان ، مضعفين للحديث المشار إليه ، وقالوا إن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أبا بالتحقيق الدقيق [2] .

وقد تفرقت بطون معد من ولده نزار – قيل لم يكن لمعد ولد غيره – فكان لنزار أربعة أولاد ، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة : إياد وأنمار وربيعة ومضر ، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما ، فكان من ربيعة : أسد بن ربيعة ، وعنزة ، وعبد القيس ، وابنا وائل – بكر ، وتغلب – وحنيفة وغيرها .

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين : قيس عيلان بن مضر ، وبطون إلياس بن مضر . فمن قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو غطفان . ومن غطفان : عبس وذبيان ، وأشجع وغنى بن أعصر .

ومن إلياس بن مضر : تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمة وبطون كنانة بن خزيمة ، ومن كنانة قريش ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى ، من أشهرها : جمح وسهم وعدى ، ومخزوم وتيم ، وزهرة ، وبطون قصى بن كلاب ، وهى عبد الدار بن قصى ، وأسد بن عبد العزى بن قصى ، وعبد مناف بن قصى .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، والمطلب ، وهاشم وبيت هاشم هو الذى اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن

---

(١) انظر الطبرى ٢ / ١٩١ – ١٩٤ والأعلام ٥ / ٦ .
(٢) رحمة للعالمين ٢ / ٧ ، ٨ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧

هاشم صلى الله عليه وسلم [1] .

قال صلى الله عليه وسلم : إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم [2] .

وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله خلق الخلق فجعلنى من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل ، فجعلنى من خير القبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا) [3].

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا فى أنحاء شتى من بلاد العرب متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب .

فهاجرت عبد القيس ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها .

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن على بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر ، قصبة اليمامة . وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق فالأبلة فهيت .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، ومنها بطون كانت تساكن بكرا . وسكنت بنو تميم ببادية البصرة .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٤ ، ١٥

(٢) رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع ، باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم ٢ / ٢٤٥ والترمذى ٢ / ٢٠١ .

(٣) رواه الترمذى ، باب ما جاء فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم ٢ / ٢٠١ .

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة،من وادى القـــرى إلى خيبر إلى شرقى المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهى إلى الحرة .

وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن في شرقى مكة بنواحي أوطاس ، وهى على الجادة بين مكة والبصرة .

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربى الكوفـــة ، بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طئ وبينهم وبين الكوفة خمس ليال .

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران .

وبقى بتهامة بطون كنانة ، وأقـــام بمكة وضواحيها بطون قريش ، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصى بن كلاب ، فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم [1] .



(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٥-١٦ .

الحكم والإمارة في العرب

حينما أردنا أن نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام رأينا أن نضع صورة مصغرة من تاريخ الحكومة والإمارة والملل والأديان في العرب ، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام .

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين : قسم منهم ملوك متوجون ، لكنهم كانوا في الحقيقة غير مستقلين ، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر لهم ما للملوك من الحكم والامتياز ، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال . وربما كانت لبعضهم تبعية الملك متوج ، والملوك المتوجون هم ملوك اليمن ، وملوك آل غسان ، وملوك الحيرة ، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان .

الملك باليمن :

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات « أور » بخمس وعشرين قرنا قبل الميلاد . ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرنا قبل الميلاد .

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي :

(١) القرون التي خلت قبل سنة ٦٥٠ ق.م، وكان ملوكهم يلقبون في هذا الزمن بـ « مكرب سبأ » وكانت عاصمتهم بلدة « صرواح » التي توجد أنقاضها على مسافة يوم إلى الجانب الغربي من بلدة « مأرب » وتعرف باسم « خريبة » وفي زمنهم بدأ بناء السد الذي عرف بسد مأرب ، والذي له شأن كبير في تاريخ اليمن، ويقال إن سبأ بلغوا من بسط سلطتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات في داخل العرب وخارجها .

(٢) منذ سنة ٦٥٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م ، وفي هذا الزمن تركوا لقب « مكرب » وعرفوا بملوك سبأ ، واتخذوا « مأرب » عاصمة لهم بدل « صرواح » وتوجد أنقاضها على بعد ستين ميلا من صنعاء إلى جانبها الشرقي .

(٣) منذ سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٣٠٠ م ، وفى هذا العهد غلبت قبيلة حمير على مملكة سبأ ، واتخذت بلدة « ريدان » عاصمة لها بدل « مأرب » . ثم سميت بلدة « ريدان » باسم ظفار ، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من « يريم » وفى هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط ، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير لبسط سيطرة الأنباط فى شمال الحجاز أولا ، ثم لغلبة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمالى الحجاز ثانيا ، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثا . وهذه العناصر هى التى سببت فى تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة .

(٤) منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام فى اليمن . وفى هذا العهد توالت عليهم الاضطرابات والحوادث ، وتتابعت الانقلابات ، والحروب الأهلية التى جعلتهم عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم . ففى هذا العهد دخل الرومان فى عدن وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠م مستغلين التنافس بين قبيلتى همدان وحمير ، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨م . ثم نالت اليمن استقلالها ، ولكن بدأت تقع الثلمات فى سد مأرب ، حتى وقع السيل العظيم الذى ذكره القرآن بسيل العرم فى سنة ٤٥٠م أو ٤٥١م . وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب .

وفى سنة ٥٢٣ م قاد ذو نواس اليهودى حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران ، وحاول صرفهم عن المسيحية قسرا . ولما أبوا خد لهم الأخدود وألقاهم فى النيران ، وهذا الذى أشار إليه القرآن فى سورة البروج بقوله: « قتل أصحاب الأخدود » الآيات ، وكان من جراء ذلك نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة اباطرة الرومان على بلاد العرب ، فقد حرضوا الأحباش ، وهيأوا لهم الأسطول البحرى ، فنزل سبعون ألف جندى من الحبشة ، واحتلوا اليمن مرة ثانية ، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م ، وظل أرياط حاكما من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة — أحد قواد جيشه — وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة ، وأبرهة

هذا هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة ، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل .

وبعد وقعة الفيل استنجد اليمانيون بالفرس ، وقامـــوا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد ، ونالوا الاستقلال فى سنة ٥٧٥م بقيادة معد يكرب بن سيف ذى يزن الحميرى ، واتخذوه ملكا لهم ، وكان معد يكرب أبقى معه جمعا مـــن الحبشة يخدمونه ويمشون فى ركابه ، فاغتالوه ذات يوم ، وبموته انقطع الملك عن بيت ذى يزن ، وولى كسرى عاملا فارسيا على صنعاء ، وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذى اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨م . وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن (١) .

الملك بالحيرة :

كانت الفرس تحكم على العـــراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ – ٥٢٩ق.م) ولم يكن أحد يناوئهم ، حتى قام الإسكندر المقدونى سنة ٣٢٦ ق.م فهزم ملكهم دارا الأول ، وكسر شوكتهم ، حتى تجزأت بلادهم وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف ، واستمروا يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠م . وفى عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون ، واحتلوا جزءا من ريف العراق ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحموهم حتى سكنوا جزءا من الجزيرة الفراتية.

وعادت القوة مرة ثانيـــة إلى الفرس فى عهـــد أردشير – مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦م – فإنه جمع شمل الفرس، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه ، وكان هذا سببا فى رحيل قضاعة إلى الشام ، ودان له أهل الحيرة والأنبار .

وفى عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وكأن أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك : تفهيم القرآن ٤ / ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨، وتاريخ أرض القرآن ج١ / من ص ١٣٣ إلى نهاية الكتاب ، وفى تعيين السنين اختلاف كبير بين المصادر التاريخية ، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل « إن هذا إلا أساطير الأولين » .

العرب مباشرة ، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه ، إلا أن يملك عليهم رجلا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم ، وليكون عرب العراق أمام عرب الشـــام الذين اصطنعهم ملوك الرومان ، وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس ؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية ، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨م .

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة عمرو بن عدى بن لفر اللخمى ، أول ملوك اللخميين – فى عهد كسرى سابور بن أردشير – ثم لم تزل الملوك من اللخميين تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز ، وفى عهده ظهر مزدك ، وقام بالدعوة إلى الإباحية ، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته ، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة – وهو المنذر بن ماء السماء – يدعوه إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به ، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ، فعزله قباذ ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكى .

وخلف قباذ كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب جدا ، فقتل المزدك وكثيرا ممن دان بمذهبه ، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الحارث بن عمرو لكنه أفلت إلى دار كلب ، فلم يزل فيهم حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء فى عقبه حتى كان النعمان بن المنذر وهو الذى غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى ، وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه ، فخرج النعمان حتى نزل سرا على هانئ بن مسعود سيد آل شيبان ، فأودعه أهله وماله ، ثم توجه إلى كسرى ، فحبسه كسرى حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائى ، وأمره أن يرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنـــده ، فأبى ذلك هانئ حمية ، وآذن الملك بالحـــرب ، ولم تلبث أن جاءت مرازبة كسرى وكتائبه فى موكب إياس ، وكانت بين الفريقين موقعة هائلة عند ذى قار ، انتصر فيها بنو شيبان ، وانهزمت الفرس هزيمة منكرة . وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ، وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله

عليه وسلم بقليل، فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكما فارسيا ، وفى سنة ٦٣٢م عـاد الملك إلى آل لخم ، فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور ، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين (١) .

الملك بالشام :

فى العهـد الذى ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها ، وكانوا من بنى سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة ، فاصطنعهم الرومان؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث ، وليكونوا عدة ضد الفرس،وولوا منهم ملكا ، ثم تعاقب الملك فيهم سنين ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة ، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثانى الميلادى إلى نهايته تقريبا ، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان ، الذين غلبوا الضجاعمة على ما بيدهم وانتصروا عليهم ، فولتهم الروم ملوكا على عرب الشام ، وكانت قاعدتهم دومة الجندل ، ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالا لملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ ، وانقاد للإسلام آخـر ملوكهم جبلة بن الأيهم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٢) .

الإمارة بالحجاز :

ولى إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته (٣) . وتوفى وله ١٣٧ سنة (٤) . ثم ولى اثنان من أبنائه نابت ثم قيدار ، ويقال العكس ، ثم ولى أمر مكة بعدهما جدهما مضاض بن عمرو الجرهمى، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهم ، وظلت فى أيديهم ، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم لما لأبيهم من بناء

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٢) نفس المصدر ١ / ٣٤ ، وأرض القرآن ٢ / ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢

(٣) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ — ٢٣٧ .

(٤) سفر التكوين ٢٥ : ١٧

البيت ، ولم يكن لهم من الحكم شئ [1] .

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلا لا يذكر ، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر ، وأخذ نجم عدنان السياسى يتألق فى أفق سماء مكة منذ ذلك العصر ، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب فى ذات عرق ، فإن قائد العرب فى الموقعة لم يكن جرهميا [2] .

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ق.م) وذهب برمياه النبى بمعد إلى الشام ، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمة ، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزارا [3] .

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك ، وضاقت أحوالهم ، فظلموا الوافدين إليها ، واستحلوا مال الكعبة [4] الأمر الذى كان يغيظ العدنانيين، ويثير حفيظتهم ، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران ، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك ، فقامت بمعونة من بطون عدنان — وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة — بمحاربة جرهم ، حتى أجلتهم عن مكة ، واستولت على حكمها ، فى أواسط القرن الثانى للميلاد .

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم ، ودرسوا موضعها ، ودفنوا فيها عدة أشياء ، قال ابن إسحق : فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى [5] بغزالى الكعبة [6] ، وبحجر الركن الأسود فدفنهما فى بئر زمزم ، وانطلق هو

---

(١) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ — ٢٣٧ ، وابن هشام ١ / ١١١ — ١١٣ ، وذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام .

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ (٣) رحمة للعالمين ٢ / ٤٨

(٤) قلب جزيرة العرب ص ٢٣١

(٥) هذا غير مضاض الجرهمى الأكبر الذى مضى ذكره فى قصة إسماعيل عليه السلام .

(٦) قال المسعودى : وكانت الفرس تهدى إلى الكعبة أموالا فى صدر الزمان وجواهر ، وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفا وذهبا كثيرا فقذفه (عمرو) فى بئر زمزم أ هـ انظر مروج الذهب ١ / ٢٠٥

ومن معه من جرهم إلى اليمن ، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا ، وفي ذلك قال عمرو :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سـامر
بلى نحـن كنا أهلها فأبـادنـا صروف الليالي والجدود العواثر [1]

ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرنا قبل الميـلاد ، فتكون إقامة جرهم في مكة واحدا وعشرين قرنا تقريبا ، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرنا. واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر ، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال :

الأولى : الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة ، والإجازة بهم يوم النفر من منى ، وكان يلي ذلك بنو الغوث بن مرة من بطون إلياس بن مضر ، وكانوا يسمون صوفة ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمى رجل من صوفة ، ثم إذا فرغ الناس من الرمي ، وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانبي العقبة ، فلم يجز أحد حتى يمروا ، ثم يخلون سبيل الناس ، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد ابن زيد مناة من تميم ، .

الثانية : الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى ، وكان ذلك في بني عدوان.

الثالثة : إنساء الأشهر الحرم. وكان ذلك إلى بني تميم بن عدى من بني كنانة [2].

واستمرت ولاية خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة [3] . وفي وقت حكمهم انتشر العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقى بأطـراف مكة بطون من قريش وهم حلول وحرم ، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة ، وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شئ حتى جاء قصي بن كلاب [4] .

ويذكر من أمر قصي أن أباه مات وهو في حضن أمه ، ونكحت أمه رجلا من بني عذرة — وهو ربيعة بن حرام — فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام ، فلما

---

(١) ابن هشام ١ / ١١٤ — ١١٥
(٢) ابن هشام ١ / ٤٤ — ١١٩ — ١٢٠ — ١٢٢
(٣) ياقوت مادة « مكة »
(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٣٥ ، وابن هشام ١ / ١١٧

شب قصى رجع إلى مكة ، وكان واليها إذ ذاك حليل بن حبشة من خزاعة ، فخطب قصى إلى حليل ابنته حبى ، فرغب فيه حليل وزوجه إياها [1] فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش أدت أخيرا إلى تغلب قصى على أمر مكة والبيت .

وهناك ثلاث روايات فى بيان سبب هذه الحرب .

الأولى : أن قصيا لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، وأن قريشا رءوس آل إسماعيل وصريحهم ، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة فى إخراج خزاعة وبنى بكر عن مكة فأجابوه [2] .

الثانية : أن حليلا – فيما تزعم خزاعة – أوصى قصيا بالقيام على الكعبة وبأمر مكة [3] .

الثالثة : أن حليلا أعطى ابنته حبى ولاية البيت ، واتخذ أبا غبشان الخزاعى وكيلا لها ، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حبى ، فلما مات حليل اشترى قصى ولاية البيت من أبى غبشان بزق من الخمر ، ولم ترض خزاعة بهذا البيع ، وحاولوا منع قصى عن البيت ، فجمع قصى رجالا من قريش وبنى كنانة لإخراج خزاعة من مكة ، فأجابوه [4] .

وأيا ما كان ، فلما مات حليل وفعلت صوفة ماكانت تفعل أتاهم قصى بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة فقال : نحن أولى بهذا منكم ، فقاتلوه فغلبهم قصى على ماكان بأيديهم ، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصى ، فباداهم قصى ، وأجمع لحربهم ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، صار جمع من الفريقين فريسة له ، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يعمر بن عوف أحد بنى بكر ، فقضى بأن قصيا أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة ، وكل دم أصابه قصى منهم

---

(١) ابن هشام ٢ / ١١٧ – ١١٨
(٢) نفس المصدر ١ / ١١٧ – ١١٨
(٣) نفس المصدر ١ / ١١٨
(٤) رحمة للعالمين ٢ / ٥٥

موضوع بشدخه تحت قدميه ، وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه الدية ، وأن يخلى بين قصي وبين الكعبة — فسمى يعمر يومئذ الشداخ — [1] وكان استيلاء قصي على مكة والبيت في أواسط القـــرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م [2] وبذلك صارت لقصي ، ثم لقريش السيادة التامة ، والأمر النافذ في مكة ، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة .

ومما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وقطعها رباعا بين قومه ، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها ، وأقـــر النسأة وآل صفوان ، وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب لأنه كان يراه دينا في نفسه لاينبغي تغييره [3] .

ومن مآثر قصي أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة ، وجعل بابها إلى المسجد ، وكانت مجمع قريش ، وفيها تفصل مهام أمورها ، ولهذه الدار فضل على قريش لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى [4] .

وكان لقصي من مظاهر الرياسة والتشريف :

(١) رياسة دار الندوة ، ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ، ويزوجون فيها بناتهم .

(٢) اللواء ، فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيده .

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة ، لايفتح بابها إلا هو ، وهو الذي يلي أمر خدمتها وسدانتها .

(٤) سقاية الحاج ، وهي أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضا من الماء ، يحلونها بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة [5] .

---

(١) ابن هشام ١ / ١٢٣ — ١٢٤
(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٢
(٣) ابن هشام ١ / ١٢٤ — ١٢٥
(٤) ابن هشام ١ / ١٢٥ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٣٦ ، وأخبار الكرام ص ١٥٢ .
(٥) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٣٦

(٥) رفادة الحاج ، وهى طعام كان يصنع للحاج على طريقة الضيافة ، وكان قصى فرض على قريش خرجا تخرجه فى الموسم من أموالها إلى قصى ، فيضع به طعاما للحاج ، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد[1] .

وكان كل ذلك لقصى ، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد فى حياته ، وكان عبد الدار بكره . فقال له قصى : لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك ، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فأعطاه دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكان قصى لايخالف ولا يرد عليه شئ صنعه ، وكان أمره فى حياته وبعد موته كالدين المتبع ، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم ،ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بنى عمهم عبد الدار فى هذه المناصب ، وافترقت قريش فرقتين ،وكاد يكون بينهم قتال ،إلا أنهم تداعوا إلى الصلح ، واقتسموا هذه المناصب ، فصارت السقاية والرفادة إلى بنى عبد مناف ، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بنى عبد الدار ، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف ، فكان هو الذى يلى السقاية والرفادة طول حياته ، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف ، وولى بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعده أبناؤه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس بن عبد المطلب [2] .

وكانت لقريش مناصب سوى ذلك وزعوها فيما بينهم ، وكونوا بها دويلة — بل بتعبير أصـــح : شبه دويلة ديمقراطية . وكانت لها من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه فى عصرنا هـــذا دوائر البرلمـــان ومجالسها ، وهاك لوحة من تلك المناصب :

(١) الإيسار ، أى تولية قداح الأصنام للاستقسام ، كان ذلك فى بنى جمح .

---

(١) ابن هشام ١ / ١٣٠

(٢) ابن هشام ١ / ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩

(٢) تحجير الأموال ، أي نظم القربات والنذور التي تهدى إلى الأصنام ، وكذلك فصل الخصومات والمرافعات . كان ذلك في بني سهم .

(٣) الشورى ، كانت في بني أسد .

(٤) الإشناق ، أي نظم الديات والغرامات ، كان ذلك في بني تيم .

(٥) العقاب ، أي حمل اللواء القومي ، كان ذلك في بني أمية .

(٦) القبة ، أي نظم المعسكر ، وكذلك قيادة الخيل ، كانت في بني مخزوم

(٧) السفارة ، كانت في بني عدي [1] .

الحكم في سائر العرب :

قد سبق لنا أن ذكرنا هجرات القبائل القحطانية والعدنانية ، وأن البلاد العربية اقتسمت فيما بينها ، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعا لملك العرب بالحيرة ، وما كان منها في بادية الشام كانت تبعا للغساسنة ، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية . وأما ما كان منها في البوادي في داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة .

وفي الحقيقة كان لهذه القبائل رؤساء تسودهم القبيلة ، وكانت القبيلة حكومة مصغرة أساس كيانها السياسي الوحدة العصبية ، والمنافع المتبادلة في حماية الأرض ودفع العدوان عنها .

وكانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ، فكانت القبيلة تبعا لرأي سيدها في السلم والحرب ، لا تتأخر عنه بحال ، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لدكتاتور قوي ، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب ، إلا أن المنافسة في السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس من بذل الندى وإكرام الضيف والكرم والحلم ، وإظهار الشجاعة

(١) تاريخ أرض القرآن ٢ / ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦

والدفاع عن الغير حتى يكسبوا المحامد فيأعين الناس ، ولا سيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة فى ذلك الزمان ، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين .

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة ، فكانوا يأخـــذون من الغنيمة المرباع والصفى والنشيطة والفضول ، يقول الشاعر :

لك المربـــاع فينـــا والصفايـــا وحكمك والنشيطة والفضولُ

والمرباع : ربع الغنيمة ، والصفى : ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيطة : ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة ، كالبعير والفرس ونحوهما .

الحـــالة السياسية :

قد ذكرنا حكام العرب ، والآن آن لنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية ؛ فالأقطار الثلاثة التى كانت مجاورة للأجانب كانت حالتهـــا السياسية فى تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه . فقد كان الناس بين سادة وعبيد ، أو حكام ومحكومين ، فالسادة — ولاسيما الأجانب — لهم كل الغنم ، والعبيد عليهم كل الغرم ، وبعبارة أوضح أن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات ، فتستخدمها فى ملذاتها وشهواتها ، ورغائبها ، وجورها ، وعدوانها . أما الناس فهم فى عمايتهم يتخبطون ، والظلم ينحط عليهم من كل جانب وما فى استطاعتهم التذمر والشكوى ، بل هم يسامون الخسف ، والجور ، والعذاب ألوانا ساكتين ، فقد كان الحكـــم استبداديا ، والحقوق ضائعة مهدورة ، والقبائل المجـــاورة لهذه الأقطار مذبذبون تتقاذفهم الأهواء والأغراض ، مرة يدخلون فى أهل العراق ، ومرة يدخلون فى أهل الشام . وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال ، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم :

وما أنا إلا من غزية إن غـــوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم ، أو مرجع يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه وقت الشدائد .

وأما حكومة الحجاز فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام ، ويرونها قادة وسدنة المركز الدينى ، وكانت تلك الحكومة فى الحقيقة خليطاً من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية ، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية ، وحكمت فى الحرم وما والاه بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت ، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم ، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه دوائر البرلمان ـ كما أسلفنا ـ ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضح يوم غزو الأحباش .



ديانات العرب

كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل — عليه السلام — حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم — عليه السلام — فكانت تعبد الله وتوحده وتدين بدينه ، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظا مما ذكروا به ، إلا أنهم بقى فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم ، حتى جاء عمرو بن لحى رئيس خزاعة ، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين ، فأحبه الناس ، ودانوا له ظنا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء ، ثم إنه سافر إلى الشام ، فرآهم يعبدون الأوثان ، فاستحسن ذلك وظنه حقا ، لأن الشام محل الرسل والكتب ، فقدم معه بهبل وجعله فى جوف الكعبة ، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله ، فأجابوه . ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة ، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم [1] .

ومن أقدم أصنامهم مناة ، كانت بالمشلل [2] على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد ، ثم اتخذوا اللات فى الطائف ، ثم اتخذوا العزى بوادى نخلة ، هذه الثلاث أكبر أوثانهم ، ثم كثر الشرك ، وكثرت الأوثان فى كل بقعة من الحجاز ، ويذكر أن عمرو بن لحى كان له رئى من الجن فأخبره بأن أصنام قوم نوح — ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا — مدفونة بجدة فأتاها فاستثارها ، ثم أوردها إلى تهامة ، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل ، فذهبت بها إلى أوطانها ، حتى صار لكل قبيلة ثم فى كل بيت صنم . وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام ، ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنما ، فجعل يطعنها حتى تساقطت ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت [3] .

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم .

---

(١) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٢

(٢) صحيح البخارى ١ / ٢٢٢.

(٣) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤

وكانت لهم تقاليد ومراسم فى عبادة الأصنام ، ابتدع أكثرها عمرو بن لحى وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحى بدعة حسنة ، وليس بتغيير لدين إبراهيم فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم :

(١) كانوا يعكفون عليها ويلتجئون إليها . . ويهتفون بها ، ويستغيثونها فى الشدائد ، ويدعونها لحاجاتهم ، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق لهم ما يريدون .

(٢) وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها ، ويتذللون عندها ، ويسجدون لها .

(٣) وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين ، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسمائها .

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى فى قوله « وما ذبح على النصب » (٥ : ٣) وفى قوله « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » (٦ : ١٢١) .

(٤) وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يخصون للأصنام شيئا من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم ، وكذلك كانوا يخصون لها نصيبا من حرثهم وأنعامهم . ومن الطرائف أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءا لله أيضا .وكانت عندهم أسباب كثيرا ما كانوا ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال . قال تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون » (٦ : ١٣٦) .

(٥) وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام النذر فى الحرث والأنعام ، قال تعالى: « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه » (٦ : ١٣٨)

(٦) وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى . قال ابن إسحق : البحيرة بنت السائبة، هى الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر سيبت ،

فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ، ثم خلى سبيلها مع أمها ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، كما فعل بأمها . فهى البحيرة بنت السائبة . والوصيلة : الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت ، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شئ فيشترك فى أكله ذكورهم وإناثهم . والحامى : الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره، فلم يركب ، ولم يجز وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها ،لا ينتفع منه بغير ذلك ، وفى ذلك أنزل الله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ، ولا وصيلة ، ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لايعقلون » (٥ : ١٠٣) وأنزل: « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء » (٦ : ١٣٩) وقيل فى تفسير هذه الأنعام غير ذلك [1] .

وقد صرح سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم [2] وفى الصحيح مرفوعا : أن عمرو بن لحى أول من سيب السوائب [3]

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه ، وتشفع لديه كما فى القرآن : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٣٩ : ٣) « ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١٠ : ١٨) .

وكانت العرب تستقسم بالأزلام ، والزلم : القدح الذى لا ريش عليه ، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع : نوع فيه « نعم » و« لا » كانوا يستقسمون بها فيما يريدون

---

(١) ابن هشام ١ / ٨٩ ، ٩٠
(٢) صحيح البخارى ١ / ٤٩٩
(٣) نفس المصدر

من العمل من نحو السفر والنكاح وأمثالهما . فإن خرج « نعم » عملوا به وإن خرج « لا » أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى ، ونوع فيه المياه والدية ، ونوع فيه « منكم » أو « من غيركم » أو « ملصق » فكانوا إذا شكوا فى نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وبمائة جزور ، فأعطوها صاحب القداح . فإن خرج «منكم » كان منهم وسيطا ، وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفا ، وإن خرج عليه « ملصق » كان على منزلته فيهم ، لا نسب ولا حلف [1] .

ويقرب من هذا الميسر والقداح ، وهو ضرب من ضروب القمار ، وكانوا يقتسمون به لحم الجزور التى يذبحونها بحسب القداح .

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين ، والكاهن : هو من يتعاطى الإخبار عن الكوائن فى المستقبل ، ويدعى معرفة الأسرار ، ومن الكهنة من يزعم أن له تابعا من الجن يلقى عليه الأخبار ، ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه ، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله ، وهذا القسم يسمى عرافا ، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما . والمنجم : من ينظر فى النجوم أى الكواكب ، ويحسب سيرها ومواقيتها ، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التى تقع فى المستقبل[2] والتصديق بأخبار المنجمين هو فى الحقيقة إيمان بالنجوم ، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء ، فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا [3] .

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهى التشاؤم بالشئ ، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه ، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا ، وعدوه حسنا ، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا ، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان فى طريقهم .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٥٦ ، وابن هشام ١ / ١٥٢ ، ١٥٣
(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢ / ٢ ، ٣
(٣) أنظر صحيح مسلم مع شرحه للنووى ، باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء ، من كتاب الإيمان ١ / ٥٩

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب ، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء ، والاعتقاد بالعدوى والهامة ، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره ، وتصير روحه هامة أى بومة تطير فى الفلوات وتقول : صدى صدى أو اسقونى اسقونى ، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح[1]

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم ولم يتركوه كله ، مثل تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف بعرفة ، والمزدلفة وإهداء البدن ، نعم ابتدعوا فى ذلك بدعا .

منها أن قريشا كانوا يقولون : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم ، وولاة البيت وقاطنو مكة ، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا — وكانوا يسمون أنفسهم الحمس — فلا ينبغى لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل ، فكانوا لا يقفون بعرفة ، ولا يفيضون منها ، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل: « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » (٣ : ١٩٩)[2]

ومنها أنهم قالوا : لاينبغى للحمس أن يقطوا الأقط ولا يسلئوا السمن ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتا من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما داموا حرما[3] .

ومنها أنهم قالوا : لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عمارا[4] .

ومنها أنهم أمروا أهل الحل أن لايطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس فإن لم يجدوا شيئا فكان الرجال يطوفون عراة ، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعا مفرجا ثم تطوف فيه وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

(١) أنظر صحيح البخارى ٢ / ٨٥١ ، ٨٥٧ مع حواشيه للشيخ أحمد على السهارنفورى
(٢) ابن هشام ١ / ١٩٩ ، صحيح البخارى ١ / ٢٢٦
(٣) نفس المصدر الأول ١ / ٢٠٢
(٤) ابن هشام ١ / ٢٠٢

وأنزل الله في ذلك: « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» (٧ : ٣١) فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف ولا ينتفع بها هؤلاء ولا أحد غيره [١]

ومنها أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقبا يدخلون ويخرجون منه وكانوا يحسبون ذلك الجفاء برا وقد منعه القرآن (٢ : ١٨٩)

كانت هذه الديانة — ديانة الشرك وعبادة الأوثان ، والاعتقاد بالوهميات والخرافيات — ديانة معظم العرب ، وقد وجدت اليهودية ، والمسيحية ، والمجوسية والصابئية سبيلا للدخول في ربوع العرب.

ولليهود دوران — على الأقل — مثلوهما في جزيرة العرب :

الأول : هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والأشورية في فلسطين ، فقد نشأ عن الضغط على اليهود ، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق .م وسبي أكثرهم إلى بابل أن قسما منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز ، وتوطن في ربوعها الشمالية [٢] .

الدور الثاني: يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة بتطس الروماني سنة ٧٠ م فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود،وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز ، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء ، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع ، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين ، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام،والتي حدثت في صدره . وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي:خيبر والنضير والمصطلق وقريظة وقينقاع ، وذكر السمهودي في وفاء الوفا (ص ١١٦) أن عدد القبائل اليهودية يزيد على عشرين [٣] .

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ وصحيح البخاري، ١ / ٢٢٦
(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٥١
(٣) نفس المصدر

ودخلت اليهودية فى اليمن من قبل تبان أسعد بن أبى كراب ، فإنه ذهب مقاتلا إلى يثرب واعتنق هناك اليهودية وجاء بحبرين من بنى قريظة إلى اليمن ، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها ، ولما ولى اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم على المسيحيين من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية ، فلما أبو خدّ لهم الأخدود وأحرقهم بالنار ، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار ، ويقال إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألف إلى أربعين ألف ، وقع ذلك فى أكتوبر سنة ٥٢٣ م [1] وقد أورد القرآن جزءا من هذه القصة فى سورة البروج .

أما الديانة النصرانية فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة والرومان ، وكان أول احتلال الحبشة لليمن سنة ٣٤٠ م واستمر إلى سنة ٣٧٨ م [2] وفى ذلك الزمان دخل التبشير المسيحى فى ربوع اليمن ، وبالقرب من هذا الزمان دخل رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات — وكان يسمى فيميون — إلى نجران ، ودعاهم إلى الدين المسيحي ، ورأى أهل نجران من أمارات صدقه وصدق دينه مالبوا لأجله المسيحية واعتنقوها [3] .

ولما احتلت الأحباش اليمن كرد فعل لما أتاه ذو نواس وتمكن أبرهة من حكومتها أخذ ينشر الديانة المسيحية بأوفر نشاط ، وأوسع نطاق ، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كنيسة باليمن كانت تسمى الكعبة اليمانية ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ويهدم بيت الله الذى بمكة ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطئ وغيرهما لمجاورة الرومان ، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة .

---

(١) تفهيم القرآن ٦ / ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وابن هشام ١ / ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) تفهيم القرآن ٦ / ٢٩٧ .

(٣) انظر فى ذلك مفصلا ابن هشام ١ / ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

أما المجوسية فكان معظمها فى العرب الذين كانوا بجوار الفرس ، فكانت فى عراق العرب وفى البحرين — الأحساء — وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربى ، ودان لها رجال من اليمن فى زمن الاحتلال الفارسى .

أما الصابئية فقد دلت الحفريات والتنقيبات فى بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين ، وقد دان بها كثير من أهل الشام ، وأهل اليمن فى غابر الزمان ، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية تضعضع بنيان الصابئية وخمد نشاطها ، ولكن لم يزل فى الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس أو مجاورين لهم فى عراق العرب وعلى شواطئ الخليج العربى (1) .

الحالة الدينية :-

كانت هذه الديانات هى ديانات العرب حين جاء الإسلام ، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار ، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهى شريعة إبراهيم ، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق . فكثرت معاصيهم ، ونشأ فيهم على توالى الزمان ماينشأ فى الوثنيين من عادات وتقاليد تجرى مجرى الخرافات الدينية ، وأثرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرا بالغا جدا .

أما اليهودية فقد انقلبت رياء وتحكما وصار رؤساؤها أربابا من دون الله، يتحكمون فى الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه ، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة ، وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التى حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها .

وأما النصرانية فقلبعادت وثنية عسرة الفهم ، وأوجدت خلطا عجيبا بين الله والإنسان ، ولم يكن لها فى نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقى ، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التى ألفوها ، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها .

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين فقد تشابهت قلوبهم ، وتواردت عقائدهم ، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم .

---

(1) تاريخ أرض القرآن ٢ / ١٩٣ إلى ٢٠٨

صور من المجتمع العربى الجاهلى

بعـــد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها بقى لنا أن نتكلم حول الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، والخلقية ، وفيما يلى بيانها بإيجاز :

الحالة الاجتماعية :

كانت فى العرب أوساط متنوعة تختلف أحوال بعضها عن بعض ، فكانت علاقة الرجل مع أهله فى الأشراف على درجة كبيرة من الرقى والتقدم ، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر ، وكانت محترمة مصونة تسل دونها السيوف ، وتراق الدماء ، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له فى نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى أكثر أوقاته إلا المرأة ، وربما كانت المـــرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام ، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال ، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة، وصاحب الكلمة فيها ، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الـزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم .

بينما كانت هذه حال الاشراف ، كان هناك فى الأوساط الأخرى أنواع مـــن الاختلاط بين الرجل والمرأة ، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة . روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فكان منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هـــذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر : يجتمع الرهط دون العشرة . فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت، ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم

وقد ولدت ، وهو ابنك يا فلان ، فتسمى من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها . ونكاح رابع : يجتمع الناسْ الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات ، تكن علما لمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت فوضعت حملها جمعــوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطه ودعى ابنه ، لايمتنع من ذلك ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم (١)

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف ، وأسنة الرماح ، فكان المتغلب فى حروب القبائل يسبى نساء المقهور فيستحلها ، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم .

وكان من المعروف فى أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهى إليه ، وكانوا يجمعون بين الأختين ، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أوماتوا عنها (سورة النساء ٢٢ ، ٢٣) وكان الطلاق بيد الرجال لا إلى حد معين (٢) .

وكانت فاحشة الزنا سائدة فى جميع الأوساط ، لا نستطيع أن نخص منها وسطا دون وسط أو صنفا دون صنف ، إلا أفرادا من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقــوع فى هذه الرذيلة ، وكانت الحرائر أحسن حالا من الإماء والطامة الكبرى هى الإماء ، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار فى الانتساب إلى هذه الفاحشة ، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قام رجل فقال : يا رسول الله إن فلانا ابنى ، عاهرت بأمه ، فى الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لادعوة فى الإسلام . ذهب أمر الجاهلية . الولد للفراش وللعاهر الحجر» ، وقصة اختصام سعد بن أبى وقاص وعبد بن زمعة فى ابن أمة زمعة — وهو عبد الرحمن بن زمعة — معروفة (٣) .

---

(١) أبو داود ، كتاب النكاح ، باب وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية .

(٢) نفس المصدر باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث . وهذا الذى ذكره المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى «الطلاق مرتان» .

(٣) أبو داود باب الولد للفراش .

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى ، فمنهم من يقول :

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق ، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق (القرآن ٦ : ١٥١ ، ١٦ : ٥٨ ، ٥٩ - ١٧ : ٣١ - ٨١ : ٨) ولكن لايمكننا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة ، فقد كانوا أشد الناس احتياجا إلى البنين ليتقوا بهم العدو .

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية ، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ويموتون لها . وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية ، وكان أساس النظام الاجتماعى هو العصبية الجنسية والرحم ، وكانوا يسيرون على المثل السائر « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » على المعنى الحقيقى من غير التعديل الذى جاء به الإسلام من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه ، إلا أن التنافس فى الشرف والسؤدد كثيرا ما كان يفضى إلى الحروب بين القبائل التى كان يجمعها أب واحد ، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج ، وعبس وذبيان، وبكر وتغلب وغيرها .

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماما . وكانت قواهم متفانية فى الحروب ، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها . وفى بعض الحالات كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضى إلى اجتماع القبائل المتغايرة ، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونا لهم على حياتهم وحصول معايشهم .

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت فى الحضيض من الضعف ، والعماية فالجهل ضارب أطنابه ، والخرافات لها جولة وصولة . والناس يعيشون كالأنعام ، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانا ، والعلاقة بين الأمة داهية مبتوتة ، وما كان من الحكومات فجل همتها امتلاء الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها .

الحالة الاقتصادية :

أما الحالة الاقتصادية ، فتبعت الحالة الاجتماعية ، ويتضح ذلك إذا نظرنا فى طرق معايش العرب . فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة ، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذلك مفقودا فى جزيرة العرب إلا فى الأشهر الحرم ، وهذه هى الشهور التى كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذى المجاز ومجنة وغيرها .

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها ، ومعظم الصناعات التى كانت توجد فى العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت فى أهل اليمن والحيرة ، ومشارف الشام ، نعم كانت فى داخل الجزيرة الزراعة ، والحرث ، واقتناء الأنعام ،وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب ، وكان الفقر والجوع والعرى عاما فى المجتمع .

الأخلاق :

لا ننكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم ويأباها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ويفضى به إلى الدهشة والعجب ، فمن تلك الأخلاق :

(١) الكرم ، وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون بـــه ، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومثن على غيره ، كان الرجل يأتيه الضيف فى شدة البرد والجوع ، وليس عنده من المال إلا ناقته التى هى حياته وحياة أسرته ، فتأخذه هزة الكرم ، فيقوم إليها ، ويذبحها لضيفه ، ومن آثـــار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة ، يكفون بذلك سفك الدماء ، وضياع الإنسان ، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات .

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمور ، لا لأنها مفخرة فى ذاتها ، بل لأنها سبيل من سبل الكرم ، ومما يسهل السرف على النفس ، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنب بالكرم ، وخمره ببنت الكرم ، وإذا نظرت إلى

دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك بابا من أبواب المديح والفخر ، يقول عنترة بن شداد العبسى فى معلقته :

ولقد شربت من المدامة بعد ما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة	قرنت بأزهر بالشمال مفدم
فإذا شربت فإننى مستهلك	مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شمائلى وتكرمى

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر ، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم ، لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه ، أو ماكان يفضل عن سهام الرابحين ، ولذلك ترى القرآن لاينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول «وإثمهما أكبر من نفعهما » (٢ : ٢١٩)

(٢) ومن تلك الأخلاق الوفاء بالعهد ، فقد كان العهد عندهم دينا يتمسكون به ، ويستهينون فى سبيله قتل أولادهم ، وتخريب ديارهم ، وتكفى فى معرفة ذلك قصة هانئ بن مسعود الشيبانى ، والسموأل بن عاديا ، وحاجب بن زرارة التميمى .

(٣) ومنها عزة النفس وإباءة عن قبول الخسف والضيم ، وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة ، وسرعة الانفعال ، فكانوا لايسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان ، وأثاروا الحروب العوان ، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم فى هذا السبيل .

(٤) ومنها المضى فى العزائم ، فإذا عزموا على شئ يرون فيه المجد ، والافتخار لايصرفهم عنه صارف ، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم فى سبيله .

(٥) ومنها الحلم ، والأناة ، والتؤدة ، كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود ، لفرط شجاعتهم ، وسرعة إقدامهم على القتال .

(٦) ومنها السذاجة البدوية ، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ، ومكائدها ، وكان من نتائجه الصدق والأمانة والنفور عن الخداع والغدر .

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة — مع ماكان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافى بالنسبة إلى العالم —كانت سببا فى اختيارهم لحمل عبء الرسالة العامة ، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشرى ؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضى إلى الشر ، ويجلب الحوادث المؤلمة إلا أنها كانت فى نفسها أخلاقا ثمينة ، تدر المنافع العامة للمجتمع البشرى بعد شئ من الإصلاح ، وهذا الذى فعله الإسلام .

ولعل أغلى ما عندهم من هــذه الأخلاق وأعظمها نفعا بعد الوفاء بالعهد هو عزة النفس والمضى فى العزائم ، إذ لايمكن قمع الشر والفساد ، وإقامة نظام العدل والخير إلا بهذه القوة القاهرة وبهذا العزم الصميم .

ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التى ذكرناها وليس قصدنا استقصاءها .



نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأسرته

نسب النبي صلى الله عليه وسلم :

لنسب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجزاء: جزء اتفق على صحته أهل السير والأنساب وهو إلى عدنان ، وجزء اختلفوا فيه ما بين متوقف فيه وقائل به ، وهو ما فوق عدنان إلى إبراهيم عليه السلام ، وجزء لا نشك أن فيه أمورا غير صحيحة ، وهو ما فوق إبراهيم إلى آدم عليهما السلام ، وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذا .وهاك تفصيل تلك الأجزاء الثلاثة :

الجزء الأول : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب – واسمه شيبة – بن هاشم – واسمه عمرو – بن عبد مناف – واسمه المغيرة – بن قصي – واسمه زيد – بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر – وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة – بن مالك بن النضر – واسمه قيس – بن كنانة بن خزيمة بن مدركة – واسمه عامر – بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (١) .

الجزء الثاني : ما فوق عدنان ، وعدنان هو ابن أد بن هميسع بن سلامان ابن عوص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف ابن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخى بن عيض بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربى بن يحزن بن يلحن بن أرعوى بن عيض بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمى بن مزى بن عوضة ابن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام (٢) .

الجزء الثالث : ما فوق إبراهيم عليـــه السلام ، وهو ابن تارح – واسمه

---

(١) ابن هشام ١ / ١ ، ٢ . تلقيح فهوم أهل الأثر ٥ ، ٦ ، رحمة العالمين ٢ / ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٥٢

(٢) قد جمع العلامة محمد سليمان المنصورفورى هذا الجزء من النسب برواية الكلبى ، وابن سعد بعد تحقيق دقيق . انظر رحمة العالمين ٢ / ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ وفيه اختلاف كبير بين المصادر التاريخية .

آزر — بن ناحوربن ساروع — أوساروغ — بن راعو بن فالخ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشد بن سام بن نوح — عليه السلام — بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ — يقال هو إدريس عليه السلام — ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوشة بن شيث ابن آدم عليهما السلام (١) .

الأسرة النبوية :

تعرف أسرته صلى الله عليه وسلم بالأسرة الهاشمية — نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف — وإذن فلنذكر شيئا من أحوال هاشم ومن بعده .

(١) هاشم — وقد أسلفنا أن هاشما هو الذى تولى السقاية والرفادة من بنى عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما ، وهاشم كان موسراً ذا شرف كبيرٍ ، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة ، وكان اسمه عمرو فما سمى هاشما إلا لهشمه الخبز ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجرا ، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار ، وأقام عندها ، ثم خرج إلى الشام — وهى عند أهلها قد حملت بعبد المطلب — فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين ، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧ م ، وسمته شيبة لشيبة كانت فى رأسه (٢) وجعلت تربيه فى بيت أبيها فى يثرب ، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة وكان لهاشم أربعة بنين وهم : أسد وأبو صيفى ، ونضلة وعبد المطلب . وخمس بنات وهى : الشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وجنة (٣) .

---

(١) ابن هشام ١ / ٢ ، ٣ ، ٤ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦ ، خلاصة السير للطبرى ص ٦ ، ورحمة للعالمين ٢ / ١٨ واختلفت هذه المصادر فى تلفظ بعض هذه الأسماء وكذا سقط من بعض المصادر بعض الأسماء .

(٢) ابن هشام ١ / ١٣٧ ، رحمة العالمين ١ / ٢٦ ، ٢ / ٢٤ (٣) ابن هشام ١ / ١٠٧

(٢) عبد المطلب – قد علمنا ممّا سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف (وكان شريفا مطاعا ذا فضل فى قومه ، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما صار شيبة – عبد المطلب – وصيفا أو فوق ذلك سمع به المطلب . فرحل فى طلبه ، فلما رآه فاضت عيناه ، وضمه ، وأردفه على راحلته فامتنع حتى تأذن له أمه ، فسألها المطلب أن ترسله معه ، فامتنعت فقال :

إنما يمضى إلى ملك أبيه ، وإلى حرم الله ، فأذنت له ، فقدم به مكة مردفه على بعيره ، فقال الناس: هذا عبد المطلب ، فقال ويحكم إنما هو ابن أخى هاشم .. فأقام عنده حتى ترعرع ، ثم إن المطلب هلك بردمان من أرض اليمن ، فولى بعده عبد المطلب ، فأقام لقومه ماكان آباؤه يقيمون لقومهم ، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم [١] .

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح عبد المطلب فغصبه إياها ، فسأل رجالا من قريش النصرة على عمه ، فقالوا لا ندخل بينك وبين عمك . فكتب إلى أخواله من بنى النجار أبياتا يستنجدهم ، وسار خاله أبو سعد بن عدى فى ثمانين راكبا ، حتى نزل بالأبطح من مكة ، فتلقاه عبد المطلب ، فقال : المنزل ، يا خال! فقال : لا والله حتى ألقى نوفلا ، ثم أقبل فوقف على نوفل ، وهو جالس فى الحجر مع مشايخ قريش ، فسل أبو سعد سيفه وقال : ورب البيت لئن لم ترد على ابن أختى أركاحه لأمكنن منك هذا السيف ، فقال : رددتها عليه ، فأشهد عليه مشايخ قريش ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثا ، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة . فلما جرى ذلك حالف نوفل بنى عبد شمس بن عبد مناف على بنى هاشم . ولما رأت خزاعة نصر بنى النجار لعبد المطلب قالوا : نحن ولدناه كما ولدتموه ، فنحن أحق بنصره – وذلك أن أم عبد مناف منهم – فدخلوا دار الندوة وحالفوا بنى هاشم على بنى عبد شمس ونوفل ، وهذا الحلف الذى صار سببا لفتح مكة كما سيأتى [٢]

(١) ابن هشام ١ / ١٣٧ ، ١٣٨
(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى ص ٤١ ، ٤٢

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان : [1]
حفر بئر زمزم . ووقعة الفيل .

وخلاصة الأول أنه أمر فى المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام يحفر فوجد فيه الأشياء التى دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء ، أى السيوف والدروع والغزالين من الذهب ، فضرب الأسياف بابا للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين ، وأقام سقاية زمزم للحجاج .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب ، وقالوا له : أشركنا قال ما أنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به ، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بنى سعد ، ولم يرجعوا حتى أراهم الله فى الطريق ما دلهم على تخصيص عبد المطلب بزمزم ، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء ، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة [1] .

وخلاصة الثانى أن أبرهة الصباح الحبشى ، النائب العام عن النجاشى على اليمن ، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ، وسمع بذلك رجل من بنى كنانة ، فدخلها ليلا فلطخ قبلتها بالعذرة . ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه ، وسار بجيش عرمرم — عدده ستون ألف جندى — إلى الكعبة ليهدمها ، واختار لنفسه فيلا من أكبر الفيلة ، وكان فى الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلا ، وواصل سيره حتى بلغ المغمس ، وهناك عبأ جيشه ، وهيأ فيله ، وتهيأ لدخول مكة . فلما كان فى وادى محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل ، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة ، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول ، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك ، فبينا هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه أمثال الحمص ، لا تصيب منهم أحدا إلا صار تتقطع أعضاؤه ،

---

(١) ابن هشام ١ / ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧

وهلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض فتساقطوا بكل طريق ، وهلكوا على كل منهل ، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله ، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك .

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا فى الشعاب وتحرزوا فى رءوس الجبال خوفا على أنفسهم من معرة الجيش ، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين [1] .

وكانت هذه الوقعة فى شهر المحرم قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسين يوما أو بخمس وخمسين يوما — عند الأكثر — وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١ م ، وكانت تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، لأنا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله تسلطوا على هذه القبلة ، وأهلها مسلمون كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ ق.م ، والرومان سنة ٧٠م ، ولكن الكعبة لم يسيطر عليها النصارى — وهم المسلمون إذ ذاك — مع أن أهلها كانوا مشركين .

وقد وقعت هذه الوقعة فى الظروف التى يبلغ نبأها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك . فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان ، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد ، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم ، ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الوقعة ، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر . فهذه الوقعة لفتت أنظار العالم ودلته على شرف بيت الله ، وأنه هو الذى اصطفاه الله للتقديس ، فإذن لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الوقعة ، وكان تفسيرا للحكمة الخفية التى كانت فى نصرة الله المشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب .

(١) ابن هشام ١ / ٤٣ إلى ٥٦ ، تفهيم القرآن ٦ / ٦ / ٤٦٢ إلى ٤٦٩

وكان لعبد المطلب عشرة بنين ، وهم : الحارث والزبير وأبوطالب وعبد الله ، وحمزة ، وأبولهب ، والغيداق ، والمقوم ، و صفار ، والعباس . وقيل : كانوا أحد عشر ، فزادوا ولدا اسمه قثم ، وقيل : كانوا ثلاثة عشر ، فزادوا عبد الكعبة وحجلا ، وقيل : إن عبد الكعبة هو المقوم ، وحجلا هو الغيداق ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم ، وأما البنات فست وهن : أم الحكيم — وهى البيضاء — وبرة وعاتكة وصفية وأروى وأميمة (١) .

(٣) عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أمه فاطمة بنت عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة ، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب ، وأعفهم وأحبهم إليه ، وهو الذبيح ، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة ، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه ، فكتب أسماءهم فى القداح ، وأعطاها قيم هبل ، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب ، وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه ، فمنعته قريش ولاسيما أخواله من بنى مخزوم وأخوه أبو طالب ، فقال عبد المطلب : فكيف أصنع بنذرى فأشاروا عليه أن يأتى عرافة فيستأمرها ، فأتاها ، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل حتى يرضى ربه ، فإن خرجت على الإبل نحرها ، فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشرا عشرا ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها ، فنحرت عنه ، ثم تركها عبد المطلب لا يرد عنها إنسانا ولا سبعا ، وكانت الدية فى قريش وفى العرب عشرا من الإبل ، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل ، وأقرها الإسلام ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا ابن الذبيحين » يعنى إسماعيل ، وأباه عبد الله (٢) .

---

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٨ ، ٩ ، رحمة للعالمين ٢ / ٥٦ ، ٦٦

(٢) ابن هشام ١ / ١٥١ إلى ١٥٥ ، رحمة للعالمين ٢ / ٨٩ ، ٩٠ مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله ص ١٢ ، ٢٢ ، ٢٣ .

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب ، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا ، وأبوها سيد بني زهرة نسبا وشرفا ، فبنى بها عبد الله في مكة ، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرا ، فمات بها ، وقيل : بل خرج تاجرا إلى الشام ، فأقبل في عير قريش ، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها ، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبه يقول أكثر المؤرخين ، وقيل : بل توفي بعد مولده بشهرين [1] . ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي ، قالت :

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم ... وجاور لحدا خارجا في الغماغم
دعتـــه المنايا دعوة فأجابهـــا ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريـــره ... تعـــاوره أصحابـــه في التزاحـــم
فإن تك غالتـــه المنايـــا وريبها ... فقد كان معطاء كثير التراحم [2]

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال ، وقطعة غنم ، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن ، وهي حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] .



(١) ابن هشام ١ / ١٥٦ ، ١٥٨ ؛ فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٤٥ ، رحمة العالمين ٢/ ٩١

(٢) طبقات ابن سعد ١ / ٦٢

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٢ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ صحيح مسلم ٢ / ٩٦

المولد :

ولد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بشعب بنى هاشم بمكة فى صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول ، لأول عام من حادثة الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ، ويوافق ذلك العشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصورفورى والمحقق الفلكى محمود باشا [١] .

وروى ابن سعد أن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : لما ولدته خرج من فرجى نور أضاءت له قصور الشام . وروى أحمد عن العرباض بن سارية ما يقارب ذلك [٢] .

وقد روى أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخمدت النار التى يعبدها المجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت ، روى ذلك البيهقى [٣] ولا يقره محمد الغزالى [٤] .

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشرا ودخل به الكعبة ، ودعا الله وشكر له ، واختار له اسم محمد ــ وهذا الاسم لم يكن معروفا فى العرب ــ وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون [٥] .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٢ ،رحمة للعالمين ١ / ٣٨ ، ٣٩ واختلافهم فى تعيين تاريخ أبريل فرع للاختلاف فى التقويمات الميلادية .

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ عبد الله النجدى ص ١٢ وابن سعد ١ / ٦٣

(٣) نفس المصدر الأول .

(٤) انظر فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٤٦

(٥) ابن هشام ١ / ١٥٩ ، ١٦٠ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ /٦٢ وقيل إنه ولد مختونا ، انظر تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤ وقال ابن القيم : ليس فيه حديث ثابت. انظر زاد المعاد ١ / ١٨

وأول من أرضعته من المراضع – بعد أمه صلى الله عليه وسلم – ثويبة مولاة أبى لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى [1] .

فى بنى سعد :

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعادا لهم عن أمراض الحواضر ؛ لتقوى أجسامهم ، وتشتد أعصابهم ، ويتقنوا اللسان العربى فى مهدهم ، فالتمس عبد المطلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرضعاء، واسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر – وهى حليمة بنت أبى ذؤيب – وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبى كبشة ، من نفس القبيلة .

وإخوته صلى الله عليه وسلم هناك من الرضاعة عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهى الشيماء – لقب غلب على اسمها –) وكانت تحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعا فى بنى سعد بن بكر ، فأرضعت أمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وهو عند أمه حليمة ، فكان حمزة رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهين ، من جهة ثويبة ، ومن جهة السعدية [2]

ورأت حليمة من بركته صلى الله عليه وسلم ما قضت منه العجب، ولنتركها تروى ذلك مفصلا :

قال ابن إسحق : كانت حليمة تحدث : أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء قالت: وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، قالت : فخرجت على أتان لى قمراء ، معنا

---

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص١٣

(٢) زاد المعاد ١ / ١٩

شارف لنا، والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا مايغذيه ، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه ، إذا قيل لهـا إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ! فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . قال : لاعليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قالت : فذهبت إليه ، فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره . قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلمّا وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وماكنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليمة ! لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : فقلت : والله إنى لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبت أنا أتانى ، وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شئ من حمرهم ، حتى إن صواحبي ليقلن لى : يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! أربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ! إنها لهى هى ، فيقلن : والله إن لها شأنا ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى

شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا ، قالت : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه ، وقلت لها : لوتركت إبني عندى حتى يغلظ ، فإنى أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا (١) .

وهكذا بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى سعد ، حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة (٢) من مولده وقع حادث شق صدره ، روى مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعنى ظئره — فقالوا : إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون (٣) .

إلى أمه الحنون :

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردته إلى أمه ، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين (٤) .

ورأت آمنة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره بيثرب ، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترا ومعها ولدها اليتيم — محمد صلى الله عليه وسلم — وخادمتها أم أيمن ، وقيمها عبد المطلب ، فمكثت شهرا ثم قفلت ، وبينما هى راجعة إذ يلاحقها المرض، ويلح عليها فى أوائل الطريق، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة (٥) .

---

(١) ابن هشام ١ / ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤

(٢) هذا ما ذهب إليه عامة أهل السير ، ويقتضى سياق رواية ابن إسحاق أنه وقع فى السنة الثالثة ، أنظر ابن هشام ١ / ١٦٤ ، ١٦٥

(٣) صحيح مسلم ، باب الإسراء ١ / ٩٢

(٤) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ ، ابن هشام ١ / ١٦٨

(٥) ابن هشام ١ / ١٦٨ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الخضرى ١ / ٦٣ ، فقه السيرة للغزالى ص٥٠

إلى جده العطوف :

وعاد به عبد المطلب إلى مكة ، وكانت مشاعر الحنو فى فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم الذى أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة ، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة ، بل يؤثره على أولاده ، قال ابن هشام : كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى هـــذا فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلس معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه ويصنع [1] .

ولثمانى سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمـــره صلى الله عليه وسلم توفى جده عبد المطلب بمكة ، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبى طالب شقيق أبيه [2] .

إلى عمه الشفيق :

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه ، وضمه إلى ولده ، وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير ، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ، ويبسط عليه حمايته ، ويصادق ويخاصم من أجله ، وستأتى نبذ من ذلك فى مواضعها .

يستسقى الغمام بوجهه :

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم فى قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب ! أقحط الوادى ، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ، كأنه شمس دجن ، تجلت عنه سحابة قتماء ، حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب ، فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ، وما فى

---

(١) ابن هشام ١ / ١٦٨

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧ ، ابن هشام ١ / ١٦٩

السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنـا ، وأغدق واغدودق، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى ، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١)

بحيرا الراهب :

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة سنة – قيل وشهرين وعشرة أيام (٢) – ارتحل به أبو طالب تاجرا إلى الشام ، حتى وصل إلى بصرى – وهى معدودة من الشام وقصبة لحوران ، وكانت فى ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان–وكان فى هذا البلد راهب عرف ببحيرا واسمه جرجيس فلما نزل الركب خرج إليهم ، وأكرمهم بالضيافة ، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ، فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال أبو طالب : وما علمك بذلك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخرّ ساجدا ، ولا تسجد إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة ، وإنا نجده فى كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يرده ، ولا يقدم به إلى الشام ، خوفا عليه من اليهود فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة (٣) .

حرب الفجار :

ولخمس عشرة من عمره صلى الله عليه وسلم كانت حـرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان . وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب

---

(١) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ عبد الله النجدى ص ١٥ ، ١٦

(٢) قاله ابن الجوزى فى تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٦ ، وابن هشام ١ / ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ووقع فى كتاب الترمذى وغيره أنه بعث معه بلالا (تحفة الأحوذى) وهو من الغلط الواضح ، فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجودا ، وإن كان موجودا فلم يكن مع عمه ولا مع أبى بكر . زاد المعاد ١ / ١٧

ابن أمية لمكانته فيهم سنا وشرفا ، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان فى وسط النهار كآن الظفر لكنانة على قيس . وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها ، وقد حضر هذه الحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ينبل على عمومته ، أى يجهز لهم النبل للرمى (١) .

حلف الفضول :

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول فى ذى القعدة فى شهر حرام ، تداعت إليه قبائل من قريش : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان التيمى لسنه وشرفه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وشهد هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت (٢) .

وهذا الحلف روحه تنافى الحمية الجاهلية التى كانت العصبية تثيرها ، ويقال فى سبب هذا الحلف إن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، واشتراها منه العاص ابن وائل السهمي ، وحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوما ، وجمحا وسهما وعديا فلم يكترثوا له ، فعلا جبل أبى قبيس ، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعا صوته ، فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك ؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم فى حلف الفضول فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدى بعد ما أبرموا الحلف (٣) .

---

(١) ابن هشام ١ / ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، قلب جزيرة العرب ص ٢٦٠ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٣

(٢) ابن هشام ١ / ١٣٣ ، ١٣٥ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٠ ، ٣١

(٣) نفس المصدر الأخير ص ٣٠ ، ٣١

حياة الكدح :

ولم يكن له صلى الله عليه وسلم عمل معين فى أول شبابه إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنما ، رعاها فى بنى سعد [١] ، وفى مكة لأهلها على قراريط[٢] وفى الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجرا إلى الشام فى مال خديجة رضى الله عنها ، قال ابن إسحق : كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم إياه بشئ تجعله لهم ، وكانت قريش قوما تجارا فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام [٣] .

زواجه خديجة :

ولما رجع إلى مكة ، ورأت خديجة فى مالها من الأمانة والبركة مالم ترقبل هذا ، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه صلى الله عليه وسلم من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين . وجدت ضالتها المنشودة — وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبى عليهم ذلك — فتحدثت بما فى نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية ، وهذه ذهبت إليه صلى الله عليه وسلم تفاتحه أن يتزوج خديجة ، فرضى بذلك ، وكلم أعمامه ، فذهبوا إلى عم خديجة ، وخطبوها إليه ، وعلى إثر ذلك تم الزواج ، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر ، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين ، وأصدقها عشرين بكرة . وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة ، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبا وثروة

---

(١) ابن هشام ١ / ١٦٦

(٢) فقه السيرة لمحمد الغزالى ص٥٢

(٣) ابن هشام ١ / ١٨٧ ، ١٨٨

وعقلا ، وهى أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت (١) .

وكل أولاده صلى الله عليه وسلم منها سوى إبراهيم ، ولدت له أولا القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب ورقية ، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله ، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر ، ومات بنوه كلهم فى صغره ، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن ، إلا أنهن أدركتهن الوفاة فى حياتــه صلى الله عليه وسلم سوى فاطمة رضى الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به (٢) .

بناء الكعبة وقضية التحكيم :

ولخمس وثلاثين سنة من مولده صلى الله عليه وسلم قامت قريش ببناء الكعبة وذلك لأن الكعبة كانت رضما فوق القامة ، ارتفاعها تسع أذرع من عهد إسماعيل ولم يكن لها سقف ، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذى كان فى جوفها ، وكانت مع ذلك قد تعرضت - باعتبارها أثرا قديما - للعوادى التى أدهت بنيانها ، وصدعت جدرانها ، وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم بخمس سنين جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصا على مكانتها ، واتفقوا على أن لايدخلوا فى بنائها إلا طيبا ، فلا يدخلوا فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ، وكانوا يهابون هدمها فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى ، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شئ ، ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم ، ثم أرادوا الأخذ فى البناء فجزأوا الكعبة وخصصوا لكل قبيلة جزءا منها . فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة وأخذوا يبنونها ، وتولى البناء بناء رومى اسمه باقوم ، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانــه واستمر النزاع أربع ليال أو خمسا

---

(١) ابن هشام ١ / ١٨٩ ، ١٩٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالى ص٥٩ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧

(٢) نفس المصدر الأول ١ / ١٩٠ ، ١٩١ ، والثانى ص ٦٠ ، وفتح البارى ٧ / ١٠٥ وبين المصادر اختلاف يسير أخذنا ما هو الراجح عندنا .

واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم ، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه ، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، رضيناه ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعا بأطراف الرداء ، وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده ، فوضعه فى مكانه ، وهذا حل حصيف رضى به القوم .

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوا من ستة أذرع وهى التى تسمى بالحجر والحطيم ، ورفعوا بابها من الأرض، لئلا يدخلها إلا من أرادوا ، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعا سقفوه على ستة أعمدة .

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبا يبلغ ارتفاعه ١٥ مترا وطول ضلعه الذى فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠ م ، والحجر موضوع على ارتفاع ٥٠ ر١م من أرضية المطاف . والضلع الذى فيه الباب والمقابل له ١٢م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها ٢٥ , ٠م ومتوسط عرضها ٣٠ ,٠م وتسمى بالشاذروان ، وهى من أصل البيت لكن قريشا تركتها (١) .

السيرة الإجمالية قبل النبوة :

إن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد جمع فى نشأته خير ما فى طبقات الناس من ميزات ، وكان طرازا رفيعا من الفكر الصائب ، والنظر السديد ، ونال حظا

(١) انظر فى تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ١٢ / ١٩٢ إلى ١٩٧ ، وفقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٦٢ ، ٦٣ ، وصحيح البخارى باب فضل مكة وبنيانها ١ / ٢١٥ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ٦٤ ، ٦٥

وافرا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف ، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمـــان الفكرة واستكناه الحق ، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات ، فعاف ما سواها من خرافة ، ونأى عنها ، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فما وجد حسنا شارك فيه ، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة فكان لايشرب الخمر ، ولا يأكل مما ذبح على النصب ، ولا يحضر للأوثان عيدا ولا احتفالا ، بل كان من أول نشأته نافرا من هذه المعبودات الباطلة ، حتى لم يكن شئ أبغض إليه منها ، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى [1] .

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا ، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليـــد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها ، روى ابن الأثير « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى الغنم بأعلى مكة : لوأبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ! فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا ، فقلت ما هذا فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبي فسألنى ، فأخبرته ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت بمكة فأصابنى مثل أول ليلة . . ثم ما هممت بسوء » [2] .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعباس ينقلان الحجارة فقال عباس للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء

---

(١) يدل عليه كلامه مع بحيرا . أنظر ابن هشام ١ / ١٢٨

(٢) اختلفوا فى صحة هذا الحديث فصححه الحاكم والذهبى وضعفه ابن كثير فى البداية والنهاية ٢ / ٢٨٧

ثم أفاق فقال : إزارى ، إزارى ، فشد عليه إزاره (١) وفى رواية فما رؤيت له عورة بعد ذلك (٢) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يمتاز فى قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة ، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقـا ، وأعزهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وألينهم عريكة ، وأعفهم نفسا ، وأكرمهم خيرا ، وأبرهم عملا ، وأوفاهم عهدا ، وآمنهم أمانة حتى سماه قومه « الأمين » لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية ، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها : يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق (٣) .



(١) صحيح البخارى باب بنيان الكعبة ١ / ٥٤٠

(٢) نفس المصدر مع شرح القسطلانى .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٣

في غار حراء :

ولما تقاربت سنه صلى الله عليه وسلم الأربعين ، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه ، حبب إليه الخلاء ، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكة — وهو غار لطيف طوله أربع أذرع ، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد — ومعه أهله قريبا منه ، فيقيم فيه شهر رمضان ، يطعم من جاءه من المساكين ، ويقضى وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة ، وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طـريق واضح ، ولا منهج محـدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليـه ويرضاه [1] .

وكان اختياره صلى الله عليه وسلم لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . ولابد لأى روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى . . . لابد لهذه الروح من خـلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحيـاة ، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحيـاة .

وهكذا دبر الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ . . . . دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات ، ينطلق في هذه العزلة شهرا من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون ، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله [2] .

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ٤٧ ، وابن هشام ١ / ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، في ظلال القرآن الجزء ٣٩ / ١٦٦

(٢) نفس المصدر الأخير ٢٩ / ١٦٦ ، ١٦٧

جبريل ينزل بالوحي :

ولما تكامل له أربعون سنة — وهي رأس الكمال ، وقيل : ولها تبعث الرسل — بدأت آثار النبوة تتلوح وتتلمع له من وراء آفاق الحياة ، وتلك الآثار هي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، حتى مضت على ذلك ستة أشهر — ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة — فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته صلى الله عليه وسلم بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض ، فأكرمه بالنبوة ، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن (1) .

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليـــلا ،ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م،وكان عمره صلى الله عليه وسلم إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية ، وستة أشهر ، و١٢ يوما ، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و٢٢ يوما (2) .

---

(١) قال ابن حجر : وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول ، بعد إكماله أربعين سنة ، وابتداء وحي اليقظة في رمضان (فتح الباري ١ / ٢٧)

(٢) اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة ، وإنزال الوحي ، فذهبت طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول ، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه رمضان ، وقيل هو شهر رجب (أنظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٧٥) ورجحنا الثاني— أي أنه شهر رمضان — لقوله تعالى : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن (٢ : ١٨٥) ولقوله تعالى : إنا أنزلناه في ليلة القدر (٩٧ : ١) ومعلوم أن ليلة القدر في رمضان ، وهي المرادة بقوله تعالى : إنا أنزلناه في ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين (٤٤ : ٣) ولأن جواره صلى الله عليه وسلم بحراء كان في رمضان ، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف .

ثم اختلف القائلون ببدء نزول الوحي في رمضان في تحديد ذلك اليوم ، فقيل: هو اليوم السابع ، وقيل السابع عشر ، وقيل الثامن عشر (أنظر مختصر سيرة الرسول المذكور ص ٧٥ ،ورحمة للعالمين ١ / ٤٩) وقد أصر الخضري في محاضراته على أنه اليوم السابع عشر (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١ / ٦٩)

وإنما رجحنا أنه اليوم الحادي والعشرون مع أنا لم نر من قال به لأن أهل السيرة =

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضى الله تعالى عنها تروى لنا قصة هذه الوقعة التي كانت شعلة من نور اللاهوت أخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ . قالت عائشة رضى الله عنها:

أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ــ وهو التعبد ــ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ : فقلت : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم) [1] فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة: ما لى وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة: كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة

= كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعث صلى الله عليه وسلم كان يوم الاثنين ، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم يوم الاثنين ، فقال: فيه ولدت وفيه أنزل على ، وفى لفظ : ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل على فيه (صحيح مسلم ١ / ٣٦٨ ، أحمد ٥ / ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، البيهقى ٤ / ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، الحاكم ٢ / ٢-٦) ويوم الاثنين فى رمضان من تلك السنة لايوافق إلا اليوم السابع ، والرابع عشر ، والحادى والعشرين ، والثامن والعشرين ، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا فى وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان وأنها تنتقل فيما بين هذه الليالى ، فإذا قارنا بين قوله تعالى : إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وبين رواية أبى قتادة أن مبعثه صلى الله عليه وسلم كان يوم الاثنين وبين حساب التقويم العلمى فى وقوع يوم الاثنين فى رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه صلى الله عليه وسلم كان فى اليوم الحادى والعشرين من رمضان ليلا .

(١) كان نزول الآيات إلى قوله تعالى : علم الإنسان ما لم يعلم .

ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة — وكان امرءا تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي — فقالت له خديجة : يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزله الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي [1]

وروى الطبري وابن هشام ما يفيد أنه خرج من غار حراء بعد ما فوجئ بالوحي ثم رجع وأتم جواره ، وبعد ذلك رجع إلى مكة ، ورواية الطبري تلقي ضوءا على سبب خروجه وهاك نصها :

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم بعد ذكر مجيء الوحي : ولم يكن من خلق الله أبغض علي من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت : إن الأبعد — يعني نفسه — شاعر أو مجنون إلا تحدث بها عني قريش أبدا ! لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها ، فلأستريحن ! قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد ! ! أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال : فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد ! أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلني ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي ، ولا أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مقامي ، ثم

---

(١) صحيح البخاري ١ / ٢ ، ٣ ، وقد أخرجه البخاري مع اختلاف يسير في اللفظ في كتابي التفسير وتعبير الرؤيا .

انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي[1] حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا إليها (ملتصقا بها مائلا إليها) فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى ، ثم حدثتها بالذى رأيت ، فقالت : أبشر يا ابن عم ، واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة [2] ، ثم قامت فانطلقت إلى ورقة وأخبرته . فقال : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة فقولى له : فليثبت ، فرجعت خديجة وأخبرته بقول ورقة ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف (إلى مكة) لقيه ورقة ، وقال بعد أن سمع منه خبره : والذى نفسى بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى [3] .

فترة الوحي :

أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أياما [4] وهذا الذى يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب. وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال ، وليس هذا موضع التفصيل فى رده .

وقد بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أيام الفترة كئيبا محزونا تعتريه الحيرة والدهشة ، فقد روى البخارى فى كتاب التعبير ما نصه :

وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنا عدا [5] منه مرارا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى

(١) نص الطبرى ٢ / ٢٠٧

(٢) نص ابن هشام ١ / ٢٣٧ — ٢٣٨

(٣) ملخص من ابن هشام ١ / ٢٣٨

(٤) فتح البارى ١ / ٢٧ و ١٢ / ٣٦٠

(٥) بالعين المهملة من العدو ، وهو الذهاب بسرعة ، وفى بعض النسخ « غدا » بالغين المعجمة.

نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك [1] .

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية :

قال ابن حجر: وكان ذلك (أى انقطاع الوحى أياما)، ليذهب ماكان صلى الله عليه وسلم وجده من الروع ، وليحصل له التشوف إلى العـــود [2] ، فلما تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف صلى الله عليه وسلم معرفة اليقين أنه أضحى نبيا لله الكبير المتعال، وأن ما جاءه سفير الوحى ينقل إليه خبر السماء وصار تشوفه وارتقابه لمجيء الوحى سببا فى ثباته واحتماله عندما يعود ، جـــاءه جبريل للمرة الثانية . روى البخارى عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحى ، (قال :) .

فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلى فقلت: زملونى زملونى ، فزملونى ، فأنزل الله تعالى : يأيها المدثر إلى قوله : فاهجر ، ثم حمى الوحى وتتابع [3] .

استطراد فى بيان أقسام الوحى :

قبل أن نأخذ فى تفصيل حياة الرسالة والنبوة ، نرى أن نتعرف أقسام الوحى الذى هو مصدر الرسالة ومدد الدعوة . قال ابن القيم – وهو يذكر مراتب الوحى :

إحداها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) صحيح البخارى كتاب التعبير باب أول مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة ٢ / ١٠٣٤

(٢) فتح البارى ١ / ٢٧

(٣) صحيح البخارى كتاب التفسير باب والرجز فاهجر ٢ / ٧٣٣

الثانية : ماكان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تمـوت نفس حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته .

الثالثة : أنه صلى الله عليـه وسلم كان يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول له ، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا .

الرابعة : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جـاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة : أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه الله إليه ، وهو فوق السماوات ليلة المعـراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن . وثبوتها لنبينا صلى الله عليه وسلم هو فى حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهى تكليم الله له كفاحا من غير حجاب ، وهى مسألة خلاف بين السلف والخلف . انتهى مع تلخيص يسير فى بيان المرتبة الأولى والثامنة (١) والحق ان هذه الاخيرة ليست ثابتة .

---

(١) أنظر زاد المعاد ١ / ١٨

أمر القيام بالدعوة إلى الله ، ومواده‍ــا

تلقى النبي صلى الله عليه وسلم أوامر عديدة فى قوله تعالى « يأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر ، وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » أوامر بسيطة ساذجة فى الظاهر ، بعيدة المدى والغاية ، قوية الأثر والفعل فى الحقيقة ونفس الأمر .

١ — فغاية القيام بالإنذار أن لايترك أحدا ممن يخالف مرضاة الله فى عالم الوجود إلا وينذره بعواقبه الوخيمة حتى تقع رجفة وزلزال فى قلبه وروعه .

٢ — وغاية تكبير الرب أن لا يترك لأحـــد كبرياء فى الأرض إلا وتكسر شوكتها ، وتقلب ظهرا لبطن ، حتى لا يبقى فى الأرض إلا كبرياء الله تعالى .

٣ — وغاية تطهير الثياب وهجران الرجز أن يبلغ فى تطهير الظاهر والباطن وفى تزكية النفس من جميع الشوائب والألواث إلى حد وكمال يمكن لنفس بشرية تحت ظلال رحمة الله الوارفة وحفظه وكلئه وهدايته ونوره ، حتى يكون أعلى مثل فى المجتمع البشرى ، تجتذب إليه القلوب السليمة ، وتحس بهيبته وفخامته القلوب الزائغة ، حتى ترتكز إليه الدنيا بأسرها وفاقا أو خلافا .

٤ — وغاية عدم الاستكثار بالمنة أن لا يعد فعالاته وجهوده فخيمة عظيمة ، بل لا يزال يجتهد فى عمل بعد عمل ، ويبذل الكثير من الجهـــد والتضحية والفناء ، ثم ينسى كل ذلك ، بل يفنى فى الشعور بالله بحيث لا يحس ولايشعر بما بذل وقدم .

٥ — وفى الآية الأخيرة إشارة إلى ما سيلقاه من أذى المعاندين من المخالفـــة والاستهزاء والسخرية إلى الجد والاجتهاد فى قتله وقتل أصحابه ، وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين ، يأمر الله تعالى أن يصبر على كل من ذلك بقوة وجلادة ، لا لينال حظا من حظوظ نفسه ، بل لمجرد مرضاة ربه .

الله أكبر ! ما أبسط هذه الأوامــــر فى صورتها الظاهرة ، وما أروعها فـــى إيقاعاتها الهادئة الخلابة ، ولكن ما أكبرها وأفخمها وأشدها فى العمل ، وما أعظمها

إثارة لعاصفة هوجاء تحضر جوانب العالم كله ، وتتركها يتلاحم بعضها فى بعض .

والآيات نفسها تشتمل على مواد الدعوة والتبليغ ، فالإنذار نفسه يقتضى أن هناك أعمالا لها عاقبة سوآى يلقاها أصحابها ، ونظراً لما يعرفه كل أحد أن الدنيا لا يجازى فيها بكل ما يعمل الناس ، بل ربما لا يمكن المجازاة بجميع الأعمال . فالإنذار يقتضى يوما للمجازاة غير أيام الدنيا ، وهو الذى يسمى بيوم القيامة ويوم الجزاء والدين ، وهذا يستلزم حياة أخرى غير الحياة التى نعيشها فى الدنيا .

وسائر الآيات تطلب من العباد التوحيد الصريح ، وتفويض الأمور كلها إلى الله تعالى ، وترك مرضاة النفس ، ومرضاة العباد إلى مرضاة الله تعالى .

فإذن تتلخص هذه المواد فى :

(أ) التوحيد

(ب) الإيمان بيوم الآخرة .

(ج) القيام بتزكية النفس بأن تتناهى عن المنكرات والفواحش التى تفضى إلى سوء العاقبة ، وبأن تقوم باكتساب الفضائل والكمالات وأعمال الخير .

(د) تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى .

(هـ) وكل ذلك بعد الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتحت قيادته النبيلة وتوجيهاته الرشيدة .

ثم إن مطلع الآيات تضمنت النــداء العلوى — فى صوت الكبير المتعال — بانتداب النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر الجلل ، وانتزاعه من النوم ، والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة : يأيها المدثر ، قم فأنذر ، كأنه قيل : إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا ، أما أنت الذى تحمل هــذا العبء الكبير فما لك والنوم ؟ وما لك والراحة ؟ وما لك والفراش الدافئ ؟ والعيش الهادئ ؟ والمتاع المريح ! قم للأمر العظيم الذى ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك . قم للجهد والنصب ، والكد والتعب ، قم فقد مضى وقت النوم والراحة ، وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل ، والجهاد الطويل الشاق . قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد .

إنها لكلمة عظيمة رهيبة تنزعه صلى الله عليه وسلم من دفء الفراش فى البيت الهادئ والحضن الدافى، لتدفع به فى الخضم ، بين الزعازع والأنواء ، وبين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء .

وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فظل قائمـا بعدها أكثر من عشرين عاما ! لم يسترح ولم يسكن ، ولم يعش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائما على دعوة الله يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به ، عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، عبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى ، عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً . لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء العلوى الجليل ، وتلقى منه التكليف الرهيب . . . جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء [1] .

وليست الأوراق الآتية إلا صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهاد الطويل الشاق الذى قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال هذا الأمد .

---

(١) فى ظلال القرآن، تفسير سورتى المزمل والمدثر ، ج٢٩ / ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠، ١٧١ ١٨٢

أدوار الدعوة ومراحلها

يمكن أن نقسم عهد الدعوة المحمدية — على صاحبها الصلاة والسلام والتحية — إلى دورين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهما :

(١) الدور المكى ، ثلاث عشرة سنة تقريبا .

(٢) الدور المدنى ، عشر سنوات كاملة .

ثم يشتمل كل من الدورين عـلى مراحل لكل منها خصائص تمتاز بها عن غيرها ، ويظهر ذلك جليا بعد النظر الدقيق فى الظروف التى مرت بها الدعوة خلال الدورين .

ويمكن تقسيم الدور المكى إلى ثلاث مراحل :

١ — مرحلة الدعوة السرية ، ثلاث سنين .

٢ — مرحلة إعلان الدعوة فى أهل مكة ، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة .

٣ — مرحلة الدعوة خارج مكة ، وفشوها فيهم ، من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

أما مراحل الدور المدنى فسيجئ تفصيلها فى موضعه .

المرحلة الأولى

جهاد الدعوة

ثلاث سنوات من الدعوة السرية :

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب ، وكان بها سدنة الكعبة ، والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب ، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسرا وشدة عما لو كان بعيدا عنها . فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث ، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة فى بدء أمرها سرية ، لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم .

الرعيل الأول :

وكان من الطبيعى أن يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام أولا على ألصق الناس به وآل بيته ، وأصدقائه ، فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إليه كل من توسم فيه خيرا ممن يعرفهم ويعرفونه ، يعرفهم بحب الحق والخير ويعرفونه بتحرى الصدق والصلاح ، فأجابه من هؤلاء - الذين لم تخالجهم ريبة قط فى عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم وجلالة نفسه وصدق خبره - جمع عرفوا فى التاريخ الإسلامى بالسابقين الأولين ، وفى مقدمتهم زوجة النبى صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، ومولاه زيد بن ثابت بن شرحبيل الكلبى (١) وابن عمه على بن أبى طالب - وكان صبيا يعيش فى كفالة الرسول - وصديقه الحميم أبوبكر الصديق . أسلم هؤلاء فى أول يوم من أيام الدعوة (٢) .

ثم نشط أبوبكر فى الدعوة إلى الإسلام ، وكان رجلا مألفا محببا سهلا ، ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ؛ لعلمه وتجارته ، وحسن

---

(١) كان قد أسر ورق ، فملكته خديجة ، ووهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءه أبوه وعمه ليلحقا به إلى قومه وعشيرته ، فاختارعليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتبناه حسب قواعد العرب ، وكان لذلك يقال : زيد بن محمد حتى جاء الإسلام فأبطل التبنى .

(٢) رحمة العالمين ١ / ٥٠

مجالسته ، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموى ، والزبير بن العوام الأسدى ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمى. فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام .

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشى ، ثم تلاهم أمين هذه الأمة [1] أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر ، وأبوسلمة بن عبد الأسد ، والأرقم ابن أبى الأرقم المخزوميان ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد العدوى ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب ، وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود الهذلى وخلق سواهم ، وأولئك هم السابقون الأولون ، وهم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً [2] . وفى ذكر بعضهم فى السابقين الأولين نظر .

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به [3] .

أسلم هؤلاء سرا ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيا لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية ، وكان الوحى قد تتابع وحمى نزوله بعد نزول أوائل المدثر . وكانت الآيات وقطع السور التى تنزل فى هذا الزمان آيات قصيرة ، ذات فواصل رائعة منيعة ، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا ، تصف الجنة والنار كأنهما رأى عين ، تسير بالمؤمنين فى جو آخر غير الذى فيه المجتمع البشرى آنذاك .

(١) انظر لتسميته بهذا اللقب صحيح البخارى مناقب أبى عبيدة بن الجراح ٥٣٠/١

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٥ إلى ٢٦٢

(٣) نفس المصدر ١ / ٢٦٢

الصلاة :

وكان في أوائل ما نزل الأمر بالصلاة ، قال مقاتل بن سليمان : فرض الله في أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، لقوله تعالى : «وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار» (٤٠ : ٥٥) وقال ابن حجر : كان صلى الله عليه وسلم قبل الإسراء يصلي قطعا ، وكذلك أصحابه ، ولكن اختلف هل فرض شئ قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا ؟ فقيل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . انتهى . وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن لهيعة موصولا عن زيد بن حارثة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول ما أوحى إليه أتاه جبريل ، فعلمه الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه . وقد روى ابن ماجة بمعناه . وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس : وكان ذلك من أول الفريضة [1] .

وقد ذكر ابن هشام أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبوطالب النبي صلى الله عليه وسلم وعليا يصليان مرة ، فكلمهما في ذلك ، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات [2]

الخبر يبلغ إلى قريش إجمالا :

يبدو بعد النظر في نواح شتى من الوقائع أن الدعوة — في هذه المرحلة — وإن كانت سرية وفردية لكن بلغت أنباءها إلى قريش ، بيد أنها لم تكترث بها .

قال محمد الغزالي : وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما ، ولعلها حسبت محمدا أحد أولئك الديانين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها ، كما صنع

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٨٨

(٢) ابن هشام ١ / ٢٤٧

أمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل وأشباههم، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته [1].

• • •

مرت ثلاث سنين والدعوة لم تزل سرية وفردية ، وخلال هـــذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون ، وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعالنته قومه ، ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم .

---

(١) فقه السيرة ص ٧٦

المرحلة الثانية

الدعوة جهارا

أول أمر بإظهار الدعوة :

أول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين» (٢٦ : ٢١٤) والسورة التي وقعت فيها الآية — وهي سورة الشعراء — ذكرت فيها أولا قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل، ونجاتهم من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه ، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله .

أرى أن هذا التفصيل إنما جيء به حين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوة قومه إلى الله ، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجا لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة ، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم .

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل ، من قوم نوح ، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة — علاوة على ما ذكر من أمر فرعون وقومه — ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم وبما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم لا للمكذبين .

الدعوة في الأقربين :

وأول ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية أنه دعا بني هاشم فحضروا ، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلا . فبادره أبولهب وقال : وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصُّباة. واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك ، فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئت به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : (الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . ثم قال : إن الرائد لايكذب أهله والله الذى لا إله إلا هو ، إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا) . فقال أبوطالب : ما أحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقا لحديثك . وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت به . فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبولهب : هذه والله السوأة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ، فقال أبوطالب : والله لنمنعه ما بقينا (١) .

على جبل الصفا :

وبعد ما تأكد النبى صلى الله عليه وسلم من تعهد أبى طالب بحمايته ، وهو يبلغ عن ربه ، قام يوما على الصفا فصرخ : يا صباحاه. فاجتمع إليه بطون قريش ، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر . وقد روى البخارى طرفا من هذه القصة عن ابن عباس . قال : لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادى يا بنى فهر ! . يا بنى عدى ! لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ؟ فجاء أبولهب وقريش . فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبولهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت « تبت يدا أبى لهب » (٢) .

---

(١) ابن الأثير . فقه السيرة ص ٧٧ ، ٧٨

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٧٠٢ ، ٧٤٣ ، والرواية مخرجة فى صحيح مسلم أيضاً ١ / ١١٤

وروى مسلم طرفا آخر من هذه القصة عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال: لما نزلت هذه الآية « وأنذر عشيرتك الأقربين » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعم وخص . فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى كعب ! أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد ! أنقذى نفسك من النار ، فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها [1] .

هذه النصيحة العالية هى غاية البلاغ ، فقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم . وأن عصبية القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله .

الصدع بالحق وردود فعل المشركين :

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه فى أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (١٥ : ٩٤) فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يغض على خرافات الشرك وترهاته ، ويذكر حقائق الأصنام وما لها من قيمة فى الحقيقة ، يضرب بعجزها الأمثال ، ويبين بالبينات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو فى ضلال مبين .

انفجرت مكة بمشاعر الغضب وماجت بالغرابة والاستنكار حين سمعت صوتا يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام ، كأنه صاعقة قصفت السحاب فرعدت وبرقت وزلزلت الجو الهادئ ، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التى اندلعت بغتة ، ويخشى أن تأتى على تقاليدها وموروثاتها .

قامت لأنها عرفت أن معنى الإيمان بنفى الألوهية عما سوى الله ، ومعنى الإيمان بالرسالة وباليوم الآخر هو الانقياد التام والتفويض المطلق ، بحيث لا يبقى لهم خيار فى أنفسهم وأموالهم فضلا عن غيرهم . ومعنى ذلك انتفاء سيادتهم

---

(١) صحيح مسلم ١ / ١١٤ ، صحيح البخارى ١ / ٣٨٥ ، ٢ / ٧٠٢ ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٦٠

وكبريائهم على العرب ، التي كانت بالصبغة الدينية ، وامتناعهم عن تنفيذ مرضاتهم أمام مرضاة الله ورسوله ، وامتناعهم عن المظالم التي كانوا يفترونها على الأوساط السافلة ، وعن السيئات التي كانوا يجترحونها صباح مساء . عرفوا هذا المعنى فكانت نفوسهم تأبى عن قبول هذا الوضع « المخزى » لا لكرامة ولا لخير « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه » (٧٥ : ٥) .

عرفوا كل ذلك جيدا ، ولكن ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين ، أعلى مثل للقيم البشرية ولمكارم الأخلاق ، لم يعرفوا له نظيرا ولا مثيلا خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء والأقوام ؟ ماذا سيفعلون ؟ تحيروا في ذلك ، وبحق لهم أن يتحيروا .

وبعد إدارة فكرتهم لم يجدوا سبيلا إلا أن يأتوا إلى عمه أبي طالب ، فيطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عما هو فيه ، ورأوا لإلباس طلبهم لباس الجد والحقيقة أن يقولوا : إن الدعوة إلى ترك آلهتهم ، والقول بعدم نفعها وقدرتها سبة قبيحة وإهانة شديدة لها ، وفيه تسفيه وتضليل لآبائهم الذين كانوا على هذا الدين ، وجدوا هذا السبيل فتسارعوا إلى سلوكها .

وفد قريش إلى أبي طالب :

قال ابن إسحاق : مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب ، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه . فقال لهم أبوطالب قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلاً فانصرفوا عنه ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعو إليه [1] .

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٥

المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة :

وخلال هذه الأيام أهم قريشا أمر آخر ، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج ، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم ، فرأت أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب ، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة ، فقال لهم الوليد : أجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، قالوا : فأنت فقل، قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال: ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر. قال: ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر . جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك [1] .

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له ، قالوا : أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه ، فقال لهم : أمهلوني حتى أفكر في ذلك ، فظل الوليد يفكر ويفكر حتى أبدى لهم رأيه الذي ذكر آنفا [2] .

وفي الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر (من ١١ إلى ٢٦) وفي خلالها صور كيفية تفكيره ، فقال : « إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم

---

(١) نفس المصدر ١ / ٢٧١

(٢) أنظر في ظلال القرآن ٢٩ / ١٨٨

قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » .

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا في تنفيذه فجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره [1] .

والذى تولى كبر ذلك هو أبولهب ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع الناس إذا وافى الموسم فى منازلهم وفى عكاظ ومجنة وذى المجاز ، يدعوهم إلى الله ، وأبولهب وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب [2] .

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها .

أساليب شتى لمجابهة الدعوة :

ولما رأت قريش أن محمدا صلى الله عليه وسلم لايصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك . فكروا مرة أخرى واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تتلخص فيما يأتى :

١ — السخرية والتحقير ، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك ، قصدوا بها تخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبى صلى الله عليه وسلم بتهم هازلة ، وشتائم سفيهة ، فكانوا ينادونه بالجنــون « وقالوا يأيها الذى نزّل عليه الذكر إنك لمجنون » (١٥ : ٦) ويصمونه بالسحر والكذب « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » (٣٨ : ٤) وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة ، وعواطف منفعلة هائجة « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون » (٦٨ : ٥١) وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقــالوا : هؤلاء جلساؤه

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٧١

(٢) روى فعله هذا الترمذى عن يزيد بن رومان و . . . عن طارق بن عبد الله المحاربى ورواه الإمام أحمد فى مسنده ٣ / ٤٩٢ ، ٤ / ٣٤١

« منّ الله عليهم من بيننا » (٦ : ٥٣) قال تعالى : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » (٦ : ٥٣) وكانوا كما قص الله علينا « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين » (٨٣: ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) .

٢ — تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات ، وبث الدعايات الكاذبة ، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم ، وحول ذاته وشخصيته ، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال فى تدبر دعوته ، فكانوا يقولون عن القرآن : « أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » (٢٥ : ٥) « إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » (٢٥ : ٤) وكانوا يقولون « إنما يعلمه بشر » (١٦ : ١٠٣) وكانوا يقولون عن الرسول صلى الله عليه وسلم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » (٢٥ : ٧) وفى القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها .

٣ — معارضة القرآن بأساطير الأولين ، وتشغيل الناس بها عنه . فقد ذكروا أن النضر بن الحارث قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر . لا والله ماهو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم: كاهن . لا والله ماهو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم: شاعر . لا والله ماهو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنون لا والله ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب النضر إلى الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ، ويقول : والله ما محمد بأحسن حديثا منى ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى (1) .

وتفيد رواية ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قينات ، فكان لا يسمع برجل مال إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا سلط عليه واحدة منها تطعمه وتسقيه وتغنى له حتى لا يبقى له ميل إلى الإسلام وفيه نزل قوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » . (2)

٤ — مساومات حاولوا بها أن يلتقى الإسلام والجاهلية فى منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه ، ويترك النبي صلى الله عليه وسلم بعض ما هو عليه « ودوا لو تدهن فيدهنون » (٦٨ : ٩) فهناك رواية رواها ابن جرير والطبرانى تفيد أن المشركين عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم عاما ويعبدون ربه عاما . ورواية أخرى لعبد بن حميد تفيد أنهم قالوا : لو قبلت آلهتنا نعبد إلهك (3) .

وروى ابن إسحاق بسنده، قال : اعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يطوف بالكعبة — الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية ابن خلف والعاص بن وائل السهمى — وكانوا ذوى أسنان فى قومهم — فقالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان

---

(1) ابن هشام ١ / ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٥٨ ، وتفهيم القرآن ٤ / ٨ ، ٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١١٧ ، ١١٨

(2) تفهيم القرآن ٤ / ٩

(3) تفهيم القرآن ٦ / ٥٠١ ، ٥٠٢

الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم « قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون .» السورة كلها (١) .

وحسم الله مفاوضتهم المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة .

ولعل اختلاف الروايات لأجل أنهم حاولوا هذه المساومة مرة بعد أخرى .

الاضطهادات :

أعمل المشركون الأساليب التى ذكرناها شيئا فشيئاً لكف الدعوة بعد ظهورها فى بداية السنة الرابعة من النبوة ، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب ، لايتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب ، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لا تجدى لهم نفعا فى كف الدعوة الإسلامية اجتمعوا مرة أخرى وكونوا منهم لجنة أعضاؤها خمسة وعشرون رجـــلا من سادات قريش ، رئيسها أبو لهب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد التشاور والتفكر اتخذت هذه اللجنة قرارا حاسما ضد [illegible] الله صلى الله عليه وسلم، وضد أصحابه . فقررت أن لا تألوا جهدا فى محاربة الإسلام ، وإيـــذاء رسوله ، وتعذيب الداخلين فيه ، والتعرض لهم بألوان من النكال والإيلام (٢) .

اتخذوا هذا القرار وصمموا على تنفيذه . أما بالنسبة إلى المسلمين — ولا سيما المستضعفين منهم — فكان ذلك سهلا جدا . وأما بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان رجلا شهما وقورا ذا شخصية فذة تتعاظمه نفوس الأعـــداء والأصدقاء بحيث لا يقابل مثلها إلا بالإجـــلال والتشريف ، ولا يجترئ على اقتراف الدنايا والرذائل ضده إلا أرذال الناس وسفهاؤهـــم ، ومع ذلك كان فى منعة أبى طالب ، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين كان معظما فى أصله ، معظما بين الناس ، فما يجسر أحد على إخفارذمته واستباحة بيضته ، إن هذا الوضع أقلق

---

(١) ابن هشام ١ / ٣٦٢ .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٥٩ ، ٦٠

قريشا وأقامهم وأقعدهم ، ولكن إلام هذا الصبر الطويل أمام دعــوة تتشوف إلى القضاء على زعامتهم الدينية ، وصدارتهم الدنيوية .

وبدأوا الاعتداءات ضد النبي صلى الله عليه وسلم،وعلى رأسهم أبو لهب ، فقد اتخذ موقفه هــذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول قبــل أن تهم قريش بذلك . وقد أسلفنا ما فعل بالنبي صلى الله عليه وسلم فى مجلس بنى هاشم ، وما فعل على الصفا،وقــد ورد فى بعض الروايات أنه — حينما كان على الصفا — أخذ حجرا ليضرب به النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

وكان أبولهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم قبل البعثة ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما (٢) .

ولما مات عبد الله — الابن الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم — استبشر أبولهب،وهرول إلى رفقائه يبشرهم بأن محمدا صار أبتر (٣) .

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي صلى الله عليه وسلم فى موسم الحج والأسواق لتكذيبه ،وقد روى طارق بن عبــد الله المحاربى ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه (٤) .

وكانت امرأة أبى لهب — أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان — لا تقل عن زوجها فى عداوة النبي صلى الله عليه وسلم فقد كانت تحمل الشوك وتضعه فى طريق النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بابه ليلا ، وكانت امــرأة سليطة تبسط فيه لسانها،وتطيل عليه الافتراء والدس ، وتؤجج نار الفتنة ، وتثير حربا شعواء على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب .

---

(١) روى ذلك الترمذى

(٢) فى ظلال القرآن ٣٠ / ٢٨٢ ، تفهيم القرآن ٦ / ٥٢٢

(٣) تفهيم القرآن ٦ / ٤٩٠

(٤) جامع الترمذى

ولما سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها فهر (أى بمقدار ملء الكف) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة . ثم قالت :

مذمما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى [1] .

وروى أبو بكر البزار هذه القصة . وفيها أنها لما وقفت على أبى بكر قالت : « أبا بكر هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمصدق » .

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاره كان بيته ملصقا ببيته كما كان غيره من جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤذونه وهو فى بيته .

قال ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته أبا لهب ، والحكم بن أبى العاص بن أمية ، وعقبة بن أبى معيط ، وعدى بن حمراء الثقفى ، وابن الأصداء الهذلى — وكانوا جيرانه — لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبى العاص [2] فكان أحدهم يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاه وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها فى برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرا ليستتر به منهم إذا صلى ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود فيقف به على بابه ، ثم

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١ / ٣٣٥ ، ٣٣٦

(٢) هو أبو الخليفة الأموى مروان بن الحكم .

يقول : يا بنى عبد مناف ! أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه فى الطريق (١) .

وازداد عقبة بن أبى معيط فى شقاوته وخبثه ، فقد روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجئ بسلا جزور بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد . فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبى معيط)(٢) فجاء به فنظـــر ، حتى إذا سجد النبى صلى الله عليه وسلم وضـــع على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر ، لا أغنى شيئا ، لوكانت لى منعة ، قال : فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض (أى يتمايل بعضهم على بعض مرحا وبطرا) ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد ، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة ،فطرحته عن ظهره ، فرفع رأسه ، ثم قال : اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، وقال : وكانوا يرون أن الدعوة فى ذلك البلد مستجابة ، ثم سمى اللهم عليك بأبى جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة . وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط — وعد السابع فلم يحفظه — فو الذى نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صرعى فى القليب،قليب بـــدر (٣) .

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه . وفيه نزل : « ويل لكل همزة لمزة » قال ابن هشام : الهمزة : الذى يشتم الرجل علانية ،ويكسر عينيه،ويغمز به . واللمزة : الذى يعيب الناس سرا ويؤذيهم (٤) .

أما أخوه أبى بن خلف فكان هو وعقبة بن أبى معيط متصافيين . وجلس عقبة مرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، فلما بلغ ذلك أبيا أنّبه وعاتبه

---

(١) ابن هشام ١ / ٤١٦

(٢) صرح بذلك فى صحيح البخارى نفسه ٦ / ٥٤٣

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الوضوء ، باب إذا ألقى على المصلى قذر أو جيفة ١ / ٣٧

(٤) ابن هشام ١ / ٣٥٦ ، ٣٥٧

وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعـــل. وأبي بن خلف نفسه فت عظما رميما ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

وكان الأخنس بن شريق الثقفي ممن ينال من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى: « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم » (٦٨ : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣) .

وكان أبو جهل يجيء أحيانا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه القرآن ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ويؤذي رسول الله صلى الله عليـــه وسلم بالقـــول ، ويصد عـــن سبيل الله ، ثم يذهب مختـــالا بما يفعل ، فخورا بمـــا ارتكب من الشر ، كأنما فعـــل شيئاً يذكر ، وفيه نزل : « فلا صدق ولا صلى » إلخ [2] وكان يمنع النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم ، ومرة مر به وهو يصلي عند المقام فقال : يا محمد ألم أنهك عن هذا ، وتوعده فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره . فقال : يا محمد بأي شيء تهددني ؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديا .فأنزل « فليدع ناديه »[3] وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بخناقه وهزه وهو يقول له : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » فقال عدو الله : أتوعدني يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا ، وإني لأعز من مشى بين جبليها [4] .

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار ، بل ازداد شقاوة فيما بعد . أخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبوجهل : يعفـــر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم ! فقال : واللات والعزى ، لئن رأيته لأطأن على رقبتـــه

---

(١) نفس المصدر ١ / ٣٦١ ، ٣٦٢
(٢) في ظلال القرآن ٢٩ / ٢١٢
(٣) نفس المصدر ٣٠ / ٢٠٨
(٤) نفس المصدر ٢٩ / ٣١٢

ولأعفرن وجهه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ، زعم ليطـأ رقبته ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، فقالوا : ما لك يـا أبا الحكم ؟ قال : إن بينى وبينه لخندقا من نار وهؤلاء أجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لودنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا [1] .

كانت هذه الاعتداءات بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع ما لشخصيته الفذة من وقار وجلال فى نفوس العامـة والخاصة ، ومع ما له من منعة أبى طالب أعظم رجل محترم فى مكة ، أما بالنسبة إلى المسلمين – ولاسيما الضعفاء منهم – فإن الإجراءات كانت أقسى من ذلك وأمر ، ففى نفس الوقت قامت كـل قبيلة تعذب من دان منها بالإسلام أنواعا من التعذيب ، ومن لم يكن له قبيلة فأجـرت عليهم الأوباش والسادات ألوانا من الاضطهاد يفزع من ذكرها قلب الحليم .

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة فى المال ، والجاه ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به [2]

وكان عم عثمان بن عفـان يلفه فى حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته [3] .

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته ، وكان من أنعم الناس عيشا فتخشف جلده تخشف الحية [4] .

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحى ، فكان أمية يضع فى عنقه حبلا ، ثم يسلمه إلى الصبيان ، يطوفون به فى جبال مكة ، حتى كان يظهر أثر الحبل فى عنقه ، وكان أمية يشده شدا ثم يضربه بالعصا ، وكان يلجئه إلى الجلوس فى حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجوع وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه

(٢) ابن هشام ١ / ٣٢٠

(٣) رحمة للعالمين ١ / ٥٧

(٤) نفس المصدر ١ / ٥٨ ، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦٠

الظهيرة فيطرحه فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى فيقول وهو فى ذلك : أحد ، أحد ، حتى مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود ، وقيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة وأعتقه [1] .

وكان عمار بن ياسر رضى الله عنه مولى لبنى مخزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه ، فكان المشركون — وعلى رأسهم أبو جهل — يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها . ومر بهم النبى صلى الله عليه وسلم وهم يعذبون فقال : صبرا آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر فى العذاب ، وطعن أبو جهل سمية — أم عمار — فى قبلها بحربة فماتت ، وهى أول شهيدة فى الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر أحمر على صدره أخرى ، وبالتغريق أخرى . وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمدا ، أو تقول : فى اللات والعزى خيرا فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء باكيا معتذرا إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » الآية (١٦ : ١٠٦) [2]

وكان أبو فكيهة — واسمه أفلح — مولى لبنى عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله الحبل ، ثم يجرونه على الأرض [3] .

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية ، فكان المشركون يذيقونه أنواعا من التنكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا ، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة ، ثم وضعوا عليه حجرا حتى لايستطيع أن يقوم [4] .

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ٥٧ ، تلقيح الفهوم ص ٦١ ، ابن هشام ١ / ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٢) ابن هشام ١ / ٣١٩ ، ٣٢٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٨٢ وروى بعض ذلك العوفى عن ابن عباس ، أنظر مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٩٢
(٣) رحمة للعالمين ١ / ٥٧ ، من إعجاز التنزيل ص ٥٣
(٤) نفس المصدر ١ / ٥٧ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦٠

وكانت زنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس إمـــاء أسلمن ، وكان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا . وأسلمت جارية لبنى مؤمل – وهم حى من بنى عدى – فكان عمر بن الخطاب – وهو يومئذ مشرك – يضربها ، حتى إذا مل قال : إنى لم أترك إلا ملالة[1]

وابتاع أبو بكر هذه الجوارى فأعتقهن ، كما أعتق بلالا وعامر بن فهيرة[2]

وكان المشركون يلفون بعض الصحابة فى إهاب الإبل والبقر، ثم يلقونه فى حر الرمضاء ، ويلبسون بعضا آخر درعا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة[3] .

وقائمة المعذبين فى الله طويلة ومؤلمة جدا ، فما من أحـــد علموا بإسلامه إلا تصدوا له وآذوه .

دار الأرقم :

كان من الحكمة تلقاء هذه الاضطهادات أن يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن إعلان إسلامهم قولا أو فعلا ، وأن لا يجتمع بهم إلا سرا ؛ لأنه إذا اجتمع بهم علنا فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين ما يريد من تزكية المسلمين وتعليمهم الكتاب والحكمـــة ، وربمـــا يفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين ، بل وقع ذلك فعلا فى السنة الرابعة من النبوة ، وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يجتمعون فى الشعاب ، فيصلون فيها سرا ، فرآهم نفر من كفار قريش ، فسبوهم وقاتلوهم ، فضرب سعد بن أبى وقاص رجلا فسال دمه ، وكان أول دم هريق فى الإسلام[4] .

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ٥٧ ، ابن هشام ١ / ٣١٩
(٢) ابن هشام ١ / ٣١٨ ، ٣١٩
(٣) رحمة للعالمين ١ / ٥٨
(٤) ابن هشام ١ / ٢٦٣ ، مختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب ص ٦٠

فكان من الحكمة الاختفاء ، فكان عـامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يجهر بالدعـوة والعبادة بين ظهرانى المشركين ، لا يصرفه عن ذلك شئ ، ولكن كان يجتمع مـع المسلمين سرا ، نظرا لصالحهم وصالح الإسلام ، وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومى على الصفا . وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم ، فكان اتخذهـا مركزا لدعوته ، ولاجتماعه بالمسلمين من السنة الخامسة من النبوة [1] .

الهجرة الأولى إلى الحبشة :

كانت بداية الاضطهادات فى أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة ، بدأت ضعيفة ثم لم تزل يوما فيوما وشهرا فشهرا حتى اشتدت وتفاقمت فى أواسط السنة الخامسة ، حتى نبا بهم المقام فى مكة ، وأوعزتهم أن يفكروا فى حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم ، وفى هذه الساعة الضنكة الحالكة نـزلت سورة الكهف ردودا على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنها اشتملت على ثلاث قصص ، فيها إشارات بليغة مـن الله تعالى إلى عبـاده المؤمنين ، فقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين ، متوكلا على الله « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا » (١٨ : ١٦) .

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجرى ولا تنتج حسب الظاهر دائما . بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر ، ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستنعكس تماما ، وسيصادر هؤلاء الطغاة المشركون — إن لم يؤمنوا — أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين .

وقصة ذى القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء . وأن الفلاح إنما هو فى سبيل الإيمان دون الكفر ، وأن الله لا يزال يبعث من عباده — بين آونة

---

(١) نفس المصدر الأخير ص ٦١

وأخرى – من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان ومأجوجه ، وأن الأحق بإرث الأرض إنما هو عباد الله الصالحون. ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (٣٩ : ١٠) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل ، لا يظلم عنده أحد ، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم من الفتن .

وفى رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة . كان مكونا من اثنى عشر رجلا وأربع نسوة ، رئيسهم عثمان بن عفان ، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهما : إنهما أول بيت هاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام [١] .

كان رحيل هؤلاء تسللا فى ظلمة الليل – حتى لا تفطن لهم قريش – خرجوا إلى البحر ويمموا ميناء شعيبة ، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة ، وفطنت لهم قريش ، فخرجت فى آثارهم ، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين ، وأقام المسلمون فى الحبشة فى أحسن جوار [٢] .

وفى رمضان من نفس السنة خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحرم ، وهناك جمع كبير من قريش ، كان فيه ساداتها وكبراؤها ، فقام فيهم ، وأخذ يتلو سورة النجم بغتة ، إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك ، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضا ، من قولهم « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (٤١ : ٢٦) فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة ، وقرع آذانهم كلام إلهى رائع خلاب – لا يحيط بروعته وجلالته البيان – تفانوا عما هم فيه ، وبقى كل واحد مصغيا إليه ، لا يخطر بباله شئ سواه،

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٩٢ ، ٩٣ ،زاد المعاد ١ / ٢٤ ، رحمة للعالمين ١ / ٦١

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٦١ ، زاد المعاد ١ / ٢٤

حتى إذا تلا فى خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ، ثم قرأ « فاسجدوا لله واعبدوا » (٥٣ : ٦٢) ثم سجد ، لم يتمالك أحد نفسه حتي خر ساجدا . وفى الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد فى نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين (١) .

وسقط فى أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم ، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم فى محوه وإفنائه ، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين ، وعند ذلك كذبوا علـى رسول الله صلى الله عليه وسلم وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير ، وأنه قـال عنها « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجـى » جاءوا بـهذا الإفك المبين ، ليعتذروا عن سجودهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون الكذب ، ويطيلون الدس والافتراء (٢) .

بلغ هذا الخبر إلى مهاجرى الحبشة ، ولكن فى صورة تختلف تماما عـن صورته الحقيقية ، بلغهم أن قريشا أسلمت ، فرجعوا إلى مكة فى شوال من نفس السنة ، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار ، وعرفوا جلية الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة ، ولم يدخل فى مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيا ، أو فى جوار رجل من قريش (٣) .

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش ، وسطت بهـم عشائرهم ، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار ، ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة

---

(١) روى البخارى قصة السجود مختصرا عن ابن مسعود وابن عباس ، أنظر باب سجدة النجم وباب سجود المسلمين والمشركين ١ / ١٤٦ ، وباب ما لقى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٥٤٣

(٢) تفهيم القرآن ٥ / ١٨٨ وإلى هذا التوجيه جنح المحققون فى حديث الغرانقة .

(٣) نفس المصدر ٥ / ١٨٨ . زاد المعاد ١ / ٢٤ ، ٢ / ٤٤ ، وابن هشام ١ / ٣٦٤

مرة أخرى ، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، بيد أن المسلمين كانوا أسرع ، ويسر الله لهم السفر ، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا .

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا إن كان فيهم عمار ، فإنه يشك فيه ، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة [1] . وبالأول جزم العلامة محمد سليمان المنصورفوري [2] .

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة :

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم . فاختاروا رجلين جلديين لبيبين ، وهما : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة — قبل أن يسلما — وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته ، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة ، وزوداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون ، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم ، حضرا إلى النجاشي ، وقدما له الهدايا ثم كلماه ، فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردهم إليهم . فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

وقالت البطارقة : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم .

ولكن رأى النجاشي أنه لابد من تمحيص القضية ، وسماع أطرافها جميعا . فأرسل إلى المسلمين ، ودعاهم ، فحضروا ، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنا

---

(١) أنظر زاد المعاد ١ / ٢٤ ، رحمة للعالمين ١ / ٦١

(٢) أنظر المصدر الأخير

ماكان . فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبى طالب – وكان هو المتكلم عن المسلمين – : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل منا القوى الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – فعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شئ ؟ فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأه علىّ فقرأ عليه صدراً من « كهيعص » فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون – يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه – فخرجا ، وقال عمرو بن العاص لعبد الله بن ربيعة : والله لآتينهم غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم . فقال له عبد الله بن ربيعة : لا تفعل ، فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا ، ولكن أصر عمرو على رأيه .

فلما كان الغد قال للنجاشي : أيها الملك ! إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم فى المسيح ، ففزعوا ، ولكن أجمعوا على الصدق ، كائنا ما كان ، فلما دخلوا عليه ، وسألهم ، قال له جعفر : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشي عودا من الأرض ، ثم قال : والله ماعدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت بطارقته ، فقال : وإن نخرتم والله .

ثم قال للمسلمين : اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي – والشيوم : الآمنون بلسان الحبشة – من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبرا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم – والدبر الجبل بلسان الحبشة .

ثم قال لحاشيته : ردّوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه .

قالت أم سلمة التى تروى هذه القصة : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءوا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار (١) .

هذه رواية ابن إسحق ، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر ، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين (٢) لكن الأسئلة والأجوبة التى ذكروا أنها دارت بين النجاشي وجعفر فى الوفادة الثانية هى نفس الأسئلة والأجوبة التى ذكرها ابن إسحق تقريبا . ثم إن تلك الأسئلة تدل لفحواها أنها كانت فى أول مرافعة قدمت إلى النجاشي .

---

(١) ابن هشام ملخصا ١ / ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، وفى تلك الصفحات تفصيل الأسئلة والأجوبة .

أخفقت حيلة المشركين ، وفشلت مكيدتهم ، وعرفوا أنهم لايشيعون ضغينتهم إلا فى حدود سلطانهم ، ونشأت فيهم من أجل ذلك فكرة رهيبة . رأوا أن التفصى عن هذه « الداهية » لايمكن إلا بكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوتـه تماما ، وإلا فبإعدامه ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأبـو طالب يحوطه ويحول بينه وبينهم ؟ رأوا أن يواجهوا أبا طالب فى هذا الصدد .

قريش يهددون أبا طالب :

جاءت سادات قريش إلي أبي طالب فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا . وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبى طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا كذا فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمه خاذله ، وأنه ضعُف عن نصرته ، فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر — حتى يظهره الله أو أهلك فيه — ما تركته ، ثم استعبر وبكى ، وقام ، فلما ولى ناداه أبوطالب فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشئ أبدا (١)

وأنشد : والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينـا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر وقر بذاك منك عيونا (٢)

قريش بين يدى أبى طالب مرة أخرى :

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماض فى عمله عرفت

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦
(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى ص ٦٨

أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم فى ذلك ، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له : يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله لبئس ما تسوموننى أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه . هذا والله ما لا يكون أبدا . فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال : والله ما أنصفتمونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك [1] .

لا تذكر المصادر التاريخية زمن هاتين الوفادتين لكن يبدو بعد التأمل فى القرائن والشواهد أنهما كانتا فى أواسط السنة السادسة من النبوة، وأن الفصل بين الوفادتين لم يكن إلا يسيرا .

فكرة الطغاة فى إعدام النبى صلى الله عليه وسلم :

وبعد فشل قريش وخيبتهم فى الوفادتين عادوا إلى ضراوتهم وتنكيلهم بأشد مما كان قبل ذلك ، وخلال هذه الأيام نشأت فى طغاتهم فكرة إعدامه صلى الله عليه وسلم بطريق أخرى ، وكانت هذه الفكرة وتلك الضراوة هى التى سببت فى تقوية الإسلام ببطلين جليلين من أبطال مكة ، وهما:حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

فمن تلك الضراوة أن عتيبة بن أبى لهب أتى يوما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أكفر بـ « النجم إذا هوى » و « بالذى دنا فتدلى » ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه، وتفل فى وجهه صلى الله عليه وسلم، إلا أن البزاق

(١) ابن هشام ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧

لم يقع عليه ، وحينئذ دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، وقد استجيب دعاؤه صلى الله عليه وسلم ، فقد خرج عتيبة مرة في نفر من قريش ، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتيبة يقول : يا ويل أخي هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ ، قتلني وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه [1] .

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان [2] .

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله صلى الله عليه وسلم ما رواه ابن إسحق في حديث طويل ، قال : قال أبو جهل :

يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلس له بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدا ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو ، فقام يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه ، مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من

---

(١) تفهيم القرآن ٦ / ٥٢٢ ، من الاستيعاب ، والإصابة ، ودلائل النبوة ، والروض الأنف ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٣٥

(٢) نفس المصدر الأخير ص ١١٣

الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحق : فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه [1] .

وبعد ذلك فعل أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أدى إلى إسلام حمزة رضى الله عنه وسيأتى .

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة الإعدام تنضج فى قلوبهم ، روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمعوا فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجهه ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها . فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ، وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه . قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط [2] . انتهى ملخصا

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٩٨ — ٢٩٩

(٢) ابن هشام ١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم . قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا . فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ (١) .

وفي حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ؟ فلهوا عنه وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا نمس شيئا من غدائره إلا رجع معنا (٢) .

إسلام حمزة رضي الله عنه :

خلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق نـور للمقهورين طريقهم ألا وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، أسلم في أواخـر السنة السادسة من النبوة ، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة .

وسبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عند الصفا فآذاه ونال منه ، ورسول الله صلى الله عليـه وسلم ساكت لا يكلمه ، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فشجه حتى نزف منه الدم ، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك ، وأقبل حمزة من القنص متوشحا قوسه ، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل . فغضب حمزة — وكان أعز فتى في قريش وأشده شكيمة — فخرج يسعى . لم يقف لأحد ، معدا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد قام على رأسه ، وقال له : يا مصفر استه ، تشتم ابن أخي وأنا على دينه ؟ ثم

---

(١) صحيح البخاري — باب ذكر ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٥٤٤

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١١٣

ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة ، فثار رجال من بنى مخزوم — حى أبى جهل — وثار بنو هاشم — حى حمزة — فقال : أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى سببت ابن أخيه سبا قبيحا (1) .

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبى أن يهان مولاه . ثم شرح الله صدره ، فاستمسك بالعروة الوثقى (2) ، واعتز به المسلمون أيما اعتزاز .

إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

وخلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق آخر أشد بريقا وإضاءة من الأول ، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب ، أسلم فى ذى الحجة سنة ست من النبوة (3) . بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضى الله عنه (4) . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد دعا الله تعالى لإسلامه . فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر ، وصححه ، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود وأنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام » فكان أحبهما إلى الله عمر رضى الله عنه (5)

وبعد إدارة النظر فى جميع الروايات التى رويت فى إسلامه يبدو أن نزول الإسلام فى قلبه كان تدريجا ، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به رضى الله عنه من العواطف والمشاعر .

كان رضى الله عنه معروفا بحدة الطبع وقوة الشكيمة ، وطالما لقى المسلمون منه ألوان الأذى ، والظاهر أنه كانت تصطرع فى نفسه مشاعر متناقضة ، احترامه للتقاليد التى سنها الآباء والأجداد ، واسترساله مع شهوات السكر واللهو التى ألفها ،

(1) مختصر سيرة الرسول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٦ ، رحمة للعالمين ١ / ٦٨ ، ابن هشام ١ / ٢٩١ ، ٢٩٢

(2) تدل عليه رواية ذكرها الشيخ عبد الله النجدى فى مختصر السيرة ص ١٠١

(3) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١١

(4) ستأتى رواية فى ذلك .

(5) الترمذى ، أبواب المناقب ، مناقب أبى حفص عمر بن الخطاب ٢ / ٢٠٩

ثم إعجابه بصلابة المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التى كانت تساوره - كأى عاقل - في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره ، ولهذا ما إن يثور حتى يخور . قاله محمد الغزالى [1] .

وخلاصة الروايات مع الجمع بينها - فى إسلامه رضى الله عنه أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته ، فجاء إلى الحرم ، ودخل فى ستر الكعبة ، والنبى صلى الله عليه وسلم قائم يصلى وقد استفتح سورة « الحاقة » فجعل عمر يستمع إلى القرآن ، ويعجب من تأليفه ، قال : فقلت - أى فى نفسى - هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال : فقرأ « إنه لقول رسول كريم . وماهو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون» (٦٩ : ٤٠، ٤١) قال : قلت : كاهن . قال : « ولا بقول كاهن، قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين » إلى آخر السورة . قال فوقع الإسلام فى قلبى [2] .

كان هذا أول وقوع نـــواة الإسلام فى قلبه ، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية ، والعصبية التقليدية ، والتعاظم بدين الآباء هى غالبة على مخ الحقيقة التى كان يتهمس بها قلبه ، فبقى مجـــدا فى عمله ضد الإسلام غير مكترث بالشعور الذى يكمن وراء هذه القشرة .

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج يوما متوشحا سيفه يريد القضاء على النبى صلى الله عليه وسلم ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوى [3] ، أو رجل من بنى زهرة [4] ، أو رجل من بنى مخزوم [5]

---

(١) قاله محمد الغزالي في فقه السيرة

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٦ ، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد . لكن فى آخره ما يخالف ذلك . انظر ابن هشام ١ / ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ويقرب من هذا أيضا ما أورده ابن الجوزى عن جابر ، وفى آخره أيضا ما يخالف هذه الرواية انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ٩ - ١٠

(٣) وهذا على رواية ابن إسحاق ، انظر ابن هشام ١ / ٣٤٤

(٤) روى ذلك أنس بن مالك رضى الله عنه . انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠ ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد النجدى ص ١٠٣

(٥) روى ذلك ابن عباس انظر المصدر الأخير ص ١٠٢

فقال : اين تعمد ياعمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمدا . قال : كيف تأمن من بنى هاشم ومن بنى زهرة وقد قتلت محمدا ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذى كنت عليه ، قال أفلا أدلك على العجب يا عمر ! إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك الذى أنت عليه ، فمشى عمر دامرا حتى أتاهما ، وعندهما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها « طـه » يقرئهما إياها — وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن — فلما سمع خباب حس عمر توارى فى البيت ، وسترت فاطمة — أخت عمر — الصحيفة . وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما ، فلما دخل عليهما قال : ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم ؟ فقالا : ما عدا حديثا تحدثناه بيننا . قال : فلعلكما قد صبوتما . فقال له ختنه : يا عمر أرأيت إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديدا . فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده ، فدمى وجهها — وفى رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها — فقالت ، وهى غضبى : يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فلما يئس عمر ، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحى ، وقال : أعطونى هـذا الكتاب الذى عندكم فأقرؤه ، فقالت أختـه : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ، ثم أخذ الكتاب ، فقـرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال : أسماء طيبة طاهرة . ثم قرأ « طه » حتى انتهى إلى قوله « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلوة لذكرى » فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ دلونى على محمد .

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت ، فقال : أبشر يا عمر ، فإنى أرجو أن تكون دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لك ليلة الخميس (اللهم أعـز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام) ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدار التى فى أصل الصفا .

فأخذ عمر سيفه ، فتوشحه ، ثم انطلق حتى أتى الدار ، فضرب الباب ، فقام رجل ينظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستجمع القوم ، فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا: عمر ، فقال : وعمر ، افتحوا له الباب ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم داخل يوحى إليه فخرج إلى عمر حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، ثم جبذه جبذة شديدة فقال : أما أنت منتهيا يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم ! هذا عمر بن الخطاب ، اللهم أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . وأسلم فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد (1) .

كان عمر رضى الله عنه ذا شكيمة لا يرام ، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين بالذلة ، والهوان ، وكسا المسلمين عزة وشرفا وسرورا .

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال : لما أسلمت تذكرت أى أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة ، قال : قلت : أبوجهل ، فأتيت حتى ضربت عليه بابه فخرج إلى ، وقال : أهلا وسهلا ، ما جاء بك ؟ قال جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب فى وجهى ، وقال : قبحك الله ، وقبح ما جئت به (2) .

وذكر ابن الجوزى أن عمر رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال ، فيضربونه ويضربهم ، فجئت — أى حين أسلمت — إلى خالى — وهو العاصى بن هاشم — فأعلمته فدخل البيت ، قال : وذهبت إلى رجل من كبراء قريش — لعله أبو جهل — فأعلمته فدخل البيت (3) .

---

(1) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧ ، ١٠ ، ١١ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ابن هشام ١ / ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦

(2) المصدر الأخير ١ / ٣٤٩ ، ٣٥٠

(3) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٨

وذكر ابن هشام وكذا ابن الجوزى مختصرا ، أنه لما أسلم أتى إلى جميل بن معمر الجمحي – وكان أنقل قريش لحديث – فأخبره أنه أسلم ، فنـادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ . فقال عمر : – وهو خلفه – كذب ، ولكنى قد أسلمت ، فثاروا إليه فما زال يقاتلهم ويقاتلونـه حتى قامت الشمس عـلى رءوسهم ، وطلح أى أعيا عمر ، فقعد ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم . فأحلف بالله أن لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنـا [1] .

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله . روى البخارى عن عبدالله ابن عمر قال : بينما هو – أى عمر – فى الدار خائفا إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو ، وعليه حلة سبرة وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بنى سهم وهم حلفاؤنا فى الجاهلية ، فقال له : ما لك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوننى أن أسلمت ، قال لا سبيل إليك – بعد أن قالها أمنت – فخرج العاص ، فلقى الناس قد سال بهم الوادى ، فقال أين تريدون ؟ فقالوا : هذا ابن الخطاب الذى قـد صبأ ، قال : لا سبيل إليـه ، فكر الناس [2] وفى لفظ ، فى رواية ابن إسحاق : والله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه [3] .

هذا بالنسبة إلى المشركين ، أما بالنسبة إلى المسلمين فروى مجاهد عن ابن عباس قال : سألت عمر بن الخطاب ، لأى شئ سميت الفـاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام – ثم قص عليه قصة إسلامه وقال فى آخره – قلت : – أى حين أسلمت – يا رسول الله ! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : بلى ! والذى نفسى بيده ، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم ، قال : قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن ، فأخرجناه فى صفين ، حمزة فى أحدهما ، وأنا

(١) نفس المصدر ص ٨ وابن هشام ١ / ٣٤٨ ، ٣٤٩
(٢) صحيح البخارى ، باب إسلام عمر بن الخطاب ١ / ٥٤٥
(٣) ابن هشام ١ / ٣٤٩

فى الآخر ، له كديد ككديد الطحين ، حتى دخلنا المسجد ، قال : فنظرت إلى قريش وإلى حمزة ، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم « الفاروق » يومئذ [1] .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر [2] .

وعن صهيب بن سنان الرومى رضى الله عنه ، قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقا ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتى به [3] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر [4] .

ممثل قريش بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم :

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين — حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما — أخذت السحائب تتقشع ، وأفاق المشركون عن سكرهم فى إدلاء العذاب والنكال إلى المسلمين ، وحاولوا مساومة مع النبى صلى الله عليه وسلم بإغداق كل ما هو يمكن أن يكون مطلوبا له ، ليكفوه عن دعوته . ولم يكن يدرى هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوى جناح بعوضة أمام دعوته ، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا .

قال ابن إسحاق : حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيدا ، قال يوما ، وهو فى نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد؟ فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٦ ، ٧

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٠٣

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١٣

(٤) صحيح البخارى . باب إسلام عمر بن الخطاب ١ / ٥٤٥

حين أسلم حمزة رضى الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثرون ويزيدون ، فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد قم إليه ، فكلمه ، فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السطة [1] فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : ياابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه — أو كما قال له — حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه ، قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع منى ، قال : أفعل ، فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه » ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش

---

(١) هى المنزلة الرفيعة المهيبة .

أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم [1] .

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلى قوله تعالى « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فقام مذعورا ، فوضع يده على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : أنشدك الله والرحم ! وذلك مخافة أن يقع النذير ، وقام إلى القوم فقال ما قال [2] .

أبوطالب يجمع بني هاشم وبني عبد المطلب :

تغير مجرى الظروف وتبدلت الأوضاع والأحوال ، ولكن أبا طالب لم يزل يتوجس من المشركين خيفة على ابن أخيه ، إنه كان ينظر في الحوادث الماضية — إن المشركين هددوه بالمنازلة ، ثم حاولوا مساومة ابن أخيه بعمارة بن الوليد ليقتلوه ، إن أبا جهل ذهب إلى ابن أخيه بحجر يرضخه ، إن عقبة بن أبي معيط خنق ابن أخيه بردائه وكاد يقتله ، إن ابن الخطاب كان قد خرج بالسيف ليقضي على ابن أخيه — كان أبو طالب يتدبر في هذه الحوادث ويشم منها رائحة شر يرجف له فؤاده ، وتأكد عنده أن المشركين عازمون على إخفار ذمته ، عازمون على قتل ابن أخيه ، ومايغني حمزة أوعمر أوغيرهما إن انقض أحد من المشركين على ابن أخيه بغتة .

تأكد ذلك عند أبي طالب ، ولم يكن إلا حقا ، فإنهم كانوا قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية ، وإلى هذا الإجماع إشارة في قوله تعالى « أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون »(٤٣ : ٧٩) فماذا يفعل أبو طالب إذن .

---

(١) ابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤

(٢) تفسير ابن كثير ٦ / ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١

إنه لما رأى تألب قريش على ابن أخيه قام فى أهل بيته من بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف ، ودعاهم إلى ماهو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه ، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم ، حمية للجوار العربى ، إلا ما كان من أخيه أبى لهب ، فإنه فارقهم ، وكان مع قريش (١) .



(١) ابن هشام ١ / ٢٦٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد النجدى ص ١٠٦

وقعت أربع حوادث ضخمة – بالنسبة إلى المشركين – خلال أربعة أسابيع، أو فى أقل مدة،منها : أسلم حمزة ، ثم أسلم عمر ، ثم رفض محمد صلى الله عليه وسلم مساومتهم ، ثم تواثق بنــو المطلب ، وبنو هاشم كلهم مسلمهم وكافرهم على حياطة محمد صلى الله عليه وسلم ومنعه ، حار المشركون ، وحقت لهم الحيرة، إنهم عرفوا أنهم لو قاموا بقتل محمد – صلى الله عليه وسلم – يسيل وادى مكة دونه بدمائهم ، بل ربما يفضى إلى استئصالهم . عرفوا ذلك فانحرفوا إلى ظلم آخر دون القتل ، لكن أشد مضاضة عما فعلوا بعد .

ميثاق الظلم والعدوان :

اجتمعوا فى خيف بنى كنانة من وادى المحصب فتحالفوا على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يجالسوهم ، ولا يخالطوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، ولا يكلموهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق«أن لا يقبلوا من بنى هاشم صلحا أبدا ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل » قال ابن القيم : يقال : كتبها منصور بن عكرمة بن عامـــر بن هاشم ، ويقال : نضر بن الحارث ، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشلت يده [1] .

تم هذا الميثاق ، وعلقت الصحيفة فى جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم – إلا أبا لهب – وحبسوا فى شعب أبى طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة .

ثلاثة أعوام فى شعب أبى طالب :

واشتد الحصار ، وقطعت عنهم الميرة والمادة ، فلم يكن المشركون يتركون

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٦

بلناما يدخل مكة ولا بيعا إلا بادروه فاشتروه ، حتى بلغهم الجهد ، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود ، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، وكان لايصل إليهم شئ إلا سرا – وكانوا – لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا فى الأشهر الحرم ،وكانوا يشترون من العير التى ترد مكة من خارجها ، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم فى السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الشراء

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحا إلى عمته خديجة – رضى الله عنها – وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه ، فتدخل بينهما أبو البخترى ، ومكنه من حمل القمح إلى عمته .

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله ،. فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بنى عمه فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يأتى بعض فرشهم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يخرجون فى أيام الموسم ، فيلقون الناس ، ويدعونهم إلى الإسلام ، وقد أسلفنا ماكان يأتى به أبو لهب .

نقض صحيفة الميثاق :

مرت ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك ، وفى المحرم [١] سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفة وفك الميثاق ، وذلك أن قريشا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له ، فسعى فى نقض الصحيفة من كان كارها لها .

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى – وكان يصل بنى هاشم فى الشعب مستخفيا بالليل بالطعام – فإنه ذهب إلى زهير بن أبى أمية المخزومى

---

(١) الدليل على هذا أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة بستة أشهر ، والصحيح فى موت أبى أبى طالب أنه فى شهر رجب . ومن يقول : إنه مات فى رمضان فهو يقول إنه مات بعد نقض الصحيفة بثمانية أشهر وأيام .

ـ وكانت أمه عاتكة بنت عبـد المطلب ـ وقال : يا زهـير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتشرب الشراب ، وأخوالك بحيث تعلم ؟ فقال : ويحك ، فما أصنع وأنا رجل واحد ؟ أما والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها ، قال : قد وجدت رجلا . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير : ابغنا رجلا ثالثا .

فذهب إلى المطعم بن عدى ، فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبد مناف ، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم ، فقال المطعم : ويحك ، ماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، قال : قد وجدت ثانيا ، قال من هو ؟ قال : أنـا قال : ابغنا ثالثا . قال قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، قال: ابغنا رابعـا .

فذهب إلى أبى البحترى بن هشام[1] ، فقال له نحوا مما قال للمطعم ، فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك ، قال : ابغنا خامسا .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم ثم سمى له القوم ، فاجتمعوا عند الحجون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغـدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، لايباع ولايبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمـة .

قال أبو جهل ـ وكان فى ناحية المسجد ـ : كذبت ، والله لا تشق .
فقال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب . ما رضينا كتابتها حيث كتبت .
قال أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .

---

(1) البحترى (انظر ص ٢٧)

قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها .

وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، تُشوورَ فيه بغير هذا المكان .

وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد . إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله على أمر الصحيفة ، وأنه أرسل عليها الأرضة ، فأكلت جميع ما فيها من جوى وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل ، فأخبر بذلك عمه فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا ، فإن كان كاذبا خلينا بينكم وبينه ، وإن كان صادقا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا ، قالوا : قد أنصفت .

وبعـــد أن دار الكلام بين القوم وبين أبى جهل ، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » . وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله .

ثم نقض الصحيفة،وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الشعب وقد رأى المشركون آية عظيمـــة من آيات نبوته ، ولكنهم كما أخبر الله عنهم ، « وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر » (٥٤ : ٢) أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفرا إلى كفرهم [1] .

---

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخارى ، باب نزول النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ١ / ٢١٦ ، وباب تقاسم المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم ١ / ٥٤٨ ،وزاد المعاد ٢ / ٤٦ ، وابن هشام ١ / ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ورحمة العالمين ١ / ٦٩ ، ٧٠ ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨، ١٠٩ ، ١١٠ ، ومختصر السيرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، وبين هذه المصادر اختلاف يسير ، أخذنا ما ترجح عندنا بعد النظر فى القرائن .

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعب ، وجعل يعمل على شاكلته وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة ، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين، والصد عن سبيل الله ، أما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه ، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه ، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات — لاسيما حصار الشعب — قد وهنت وضعفت مفاصله ، وكسرت صلبه ، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات ، وإذا هو يلاحقه المرض ويلح به — وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه ، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطاءه قبل ذلك . فقاموا بوفــادة هي آخر وفادتهم إلى أبي طالب .

قال ابن إسحاق وغيره : لما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشا ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائــل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فليأخذ على ابن أخيه ، وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا [1] أمرنا ، وفي لفظ : فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه شيء فتعيرنا به العرب ، يقولون تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه .

مشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ؛ عتبة بن ربيعة ، وشيبة ابن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم — وهم خمس وعشرون تقريبا — فقالوا : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا ودينتا ، وندعه ودينه . فبعث إليه أبو طالب ، فجاءه فقال : يا ابن أخي ، هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليأخذوا منك

(١) ابتزه أمره : سلبه إياه وغلبه عليه .

ثم أخبره بالذى قالوا له وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها ، ملكتم بها العرب ، ودانت لكم بها العجم ، وفى لفظ أنه قال مخاطبا لأبى طالب : أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب ،وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، وفى لفظ آخر قال : يا عم ، أفلا تدعوهم إلى ماهو خير لهم ؟ قال : وإلى ما تدعوهم ؟ قال : أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم ، ولفظ رواية ابن إسحاق : كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فلما قال هذه المقالة ، توقفوا وتحيروا ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد . ثم قال أبو جهل : ماهى ؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها ، قال : تقولون : لاإله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه . فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن أمرك لعجب .

ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ماهذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا .

وفى هؤلاء نزل قوله تعالى : « ص . والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص . وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشئ عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشئ يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق » (٣٨ : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) [1] .

(١) ابن هشام ١ / ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، تفهيم القرآن ٤ / ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ . مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص ٩١ .

عـــام الحـــزن

وفاة أبى طالب :

ألح المرض بأبى طالب ، فلم يلبث أن وافته المنيـــة ، وكانت وفاته فى رجب [١] سنة عشر من النبوة ، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر [٢] . وقيل : توفى فى رمضان قبل وفاة خديجة رضى الله عنها بثلاثة أيام .

وفى الصحيح عن المسيب : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل ، فقال : أى عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ، ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شئ كلمهم به : على ملة عبد المطلب . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فنزلت : « ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٩ : ١١٣) ونزلت « إنك لا تهدى من أحببت » [٣] (٢٨ : ٥٦) .

ولاحاجة إلى بيان ماكان عليه أبو طالب من الحياطة والمنع ،فقدكان الحصن الذى تحتمى به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء ، ولكنه بقى على ملة الأشياخ من أجداده ، فلم يفلح كل الفلاح . ففى الصحيح عن العباس بن عبد المطلب ، قال للنبى صلى الله عليه وسلم :ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : هو فى ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار [٤] .

وعن أبى سعيد الخدرى أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم ــ وذكر عنده عمه ــ فقال : لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار تبلغ كعبيه[٥]

---

(١) تاريخ الإسلام للشاه أكبر خان النجيب آبادى ١ / ١٢٠ ، وفى المصادر اختلاف كبير فى الشهر الذى توفى فيه أبوطالب ، وهذا الذى رجحناه إنما رجحناه لأن أكثر المصادر متفقة على أن موته كان بعد ستة أشهر من الخروج من الشعب ، وأن الحصار كان ثلاثة أعوام ،وأن بدء الحصار كان ليلة هلال المحرم سنة سبع ،وإذن فموته فى رجب سنة عشر من النبوة

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ١١١

(٣ - ٤ - ٥)صحيح البخارى ، باب قصة أبى طالب ١ / ٥٤٨

خديجة إلى رحمة الله

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام – على اختلاف القولين – توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها ، كانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة ، ولها خمس وستون سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في الخمسين من عمره (١) .

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه ، وتؤازره في أحرج أوقاته ، وتعينه على إبلاغ رسالته ، وتشاركه في مغارم الجهاد المر ، وتواسيه بنفسها ومالها ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آمنت بي حين كفر بي الناس ، وصدقتني حين كذبني الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها ، وحرم ولد غيرها (٢) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله هذه خديجة ، قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب (٣) .

تراكم الأحزان

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة ، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه . فقد كانوا تجرأوا عليه ، وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب ، فازداد غما على غم حتى يئس منهم ، وخرج إلى الطائف ، رجاء أن يستجيبوا

---

(١) نص على موتها في رمضان من تلك السنة ابن الجوزي في التلقيح ص ٧ ،والعلامة المنصورفوري في رحمة للعالمين ٢ / ١٦٤ وغيرهما .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٦ / ١١٨

(٣) صحيح البخاري . باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها ١ / ٥٣٩ .

لدعوته أو يؤووه وينصروه على قومه، فلم يرمن يؤوى ولم ير ناصرا ، وآذوه مع ذلك أشد الأذى . ونالوا منه ما لم ينله قومه .

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبي صلى الله عليه وسلم، اشتدت على أصحابه حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى الهجرة عن مكة فخرج حتى بلغ برك الغماد ، يريد الحبشة ، فأرجعه ابن الدغنة فى جواره [1] .

قال ابن إسحاق : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تطمع به فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا ، ودخل بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكى يا بنية ، فإن الله مانع أباك . قال : ويقول بين ذلك : ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب [2] .

ولأجل توالى مثل هذه الآلام فى هذا العام سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحزن ، وبهذا اللقب صار معروفا فى التاريخ .

الزواج بسودة رضى الله عنها :

وفى شوال من هذه السنة — سنة ١٠ من النبوة — تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة ، كانت ممن أسلم قديما ، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وكان زوجها السكران بن عمرو ، وكان قد أسلم وهاجر معها ، فمات بأرض الحبشة ، أو بعد الرجوع إلى مكة ، فلما حلت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة ، وبعد عدة أعوام وهبت نوبتها لعائشة [3] .

---

(١) صرح الشاه أكبر خان النجيب آبادى بأن هذه الوقعة كانت فى هذه السنة انظر تاريخ إسلام ١ / ١٢٠ ، والقصة بطولها مروية فى ابن هشام ١ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ وفى صحيح البخارى ١ / ٥٥٢ ، ٥٥٣

(٢) ابن هشام ١ / ٤١٦

(٣) رحمة للعالمين ٢ / ١٦٥ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠ .

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران ، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم ماهى الأسباب والعوامل التى بلغت بالمسلمين إلى هذه الغاية القصوى ، والحد المعجز من الثبات ؟ كيف صبروا على هذه الاضطهادات التى تقشعر لسماعها الجلود ، وترجف لهـا الأفئدة ؟ ونظرا إلى هذا الذى يتخالج القلوب نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة :

١ — إن السبب الرئيسى فى ذلك أولا وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفته حق المعرفة ، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولايطيش ، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقمت واشتدت — يراها فى جنب إيمانه — طحالب عائمـة فوق سيل جارف جاء ليكسر السدود المنيعة والقلاع الحصينة ، فلا يبالى بشىء من تلك المتاعب امام ما يجده من حلاوة إيمانه وطراوة إذعانه وبشاشة يقينه « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » (١٣ : ١٧) .

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخـرى تقوى هـذا الثبات والمصابرة وهى : —

٢ — قيادة تهوى إليها الأفئدة ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم — وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية بل وللبشرية جمعاء — يتمتع من جمال الخلـق وكمال النفس ، ومكارم الأخلاق ، والشيم النبيلة والشمائل الكريمة ، بما تتجاذب إليه القلوب ، وتتفانى دونه النفوس ، وكانت أنصبته من الكمال الذى يعشق لم يرزق بمثلها بشر . وكان على أعلى قمة من الشرف والنبل والخير والفضل . وكان من العفة والأمانة والصدق ، ومن جميع سبل الخير على ما لم يتمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلا عن محبيه ورفقائه ، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها :

اجتمع ثلاثة نفر من قريش كان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سرا

عن صاحبيه ثم انكشف سرهم ، فسأل أحدهم أبا جهل – وكان من أولئك الثلاثة – ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان قالوا : لنا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه [1] .

وكان أبو جهل يقول : يا محمد إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله « فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » [2] .

وغمزه الكفار يوما ثلاث مرات فقال في الثالثة : يا معشر قريش ، جئتكم بالذبح ، فأخذتهم تلك الكلمة حتى إن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده .

ولما ألقوا عليه سلا جذور وهو ساجد دعا عليهم، فذهب عنهم الضحك وساورهم الهم والقلق ، وأيقنوا أنهم هالكون .

ودعا على عتيبة بن أبي لهب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه حتى إنه حين رأى الأسد قال قتلني والله – محمد – وهو بمكة .

وكان أبي بن خلف يوعده بالقتل . فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طعن أبيا في عنقه يوم أحد – وكان خدشا غير كبير – كان أبي يقول : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك . فوالله لو بصق علي لقتلني [3] – وسيأتي –

وقال سعد بن معاذ – وهو بمكة – لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنهم – أي المسلمين – قاتلوك ، ففزع فزعا شديدا ، وعهد أن لا يخرج عن مكة ، ولما ألجأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير

---

(١) ابن هشام ١ / ٣١٦
(٢) رواه الترمذي في تفسير سورة الأنعام ٢ / ١٣٢
(٣) ابن هشام ٢ / ٨٤

بمكة ليمكنه من الفرار ، وقالت له امرأته : يا أبا صفوان ، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ قال : لا والله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا [1] .

هكذا كان حال أعدائه صلى الله عليه وسلم ، أما أصحابه ورفقاؤه فقد حل منهم محل الروح والنفس ، وشغل منهم مكان القلب والعين ، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الحدور ، وكانت النفوس تنجـــذب إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس .

فصورته هيولى كل جسم ومغناطيس أفئدة الرجال

وكان من أثر هذا الحب والتفاني أنهم كانوا لا يرضون أن تنـــدق أعناقهم ويخدش له ظفر أو يشاك شوكة .

وطئ أبو بكر بن أبى قحافة يوما بمكة ،وضرب ضربا شديدا ، دنا منه عتبة ابن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ،وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ،فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئا أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله لا علم لى بصاحبك ، فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، قالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت ، قالت : نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : هذه أمك تسمع ، قال :

---

(١) انظر صحيح البخارى ٢ / ٥٦٣

فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح، فقال : أين هو ؟ قالت: في دار ابن الأرقم قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

وسننقل نوادر الحب والتفاني في مواقع شتى من هذه المقالة ، ولاسيما ما وقع في يوم أحد ، وما وقع من خبيب وأمثاله .

٣ — الشعور بالمسئولية — فكان الصحابة يشعرون شعورا تاما ما على كواهل البشر من المسئولية الفخمة الضخمة ، وأن هذه المسئولية لايمكن عنها الحياد والانحراف بحال ، فالعواقب التي تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضررا عما هم فيه من الاضطهاد . وأن الخسارة التي تلحقهم — وتلحق البشرية جمعاء — بعد هذا الفرار لا يقاس بحال على المتاعب التي كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل .

٤ — الإيمان بالآخرة — وهو مما كان يقوى هذا الشعور — الشعور بالمسئولية فقد كانوا على يقين جازم من أنهم يقومون لرب العالمين، يحاسبون بأعمالهم دقها وجلها، صغيرها وكبيرها ، فإما إلى النعيم المقيم ، وإما إلى عذاب خالد في سواء الجحيم ، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء ، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه ، «وكانوا يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لاتساوى جناح بعوضة في جنب الآخرة ، وكانت هذه المعرفة القوية تهون لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها ، حتى لم يكونوا يكترثون لها ويلقون إليها بالا .

٥ — القرآن — وفي هذه الفترات العصيبة الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقيم الحجج والبراهين على مبادئ الإسلام — التي كانت الدعوة تدور حولها — بأساليب منيعة خلابة ، وترشد المسلمين إلى أسس قدر الله أن يتكون عليها

---

(١) البداية والنهاية ٣ / ٣٠

أعظم وأروع مجتمع بشرى فى العالم ـ وهـو المجتمع الإسلامى ـ وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلد ، تضرب لذلك الأمثال ، وتبين لهم ما فيه من الحكم : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » (٢ : ٢١٤) « الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقـوا وليعلمن الكاذبين » (٢٩ : ١ ، ٢ ، ٣) .

كما كانت تلك الآيات ترد على إيرادات الكفار والمعاندين ردا مفحما ، ولا تبقى لهم حيلة ، ثم تحذرهم مرة عن عواقب وخيمة ـ إن أصروا على غيهم وعنادهم ـ فى جلاء ووضوح ، مستدلا بأيام الله، والشواهد التاريخية التى تدل على سنة الله فى أوليائه وأعدائه ، وتلطفهم مرة ، وتؤدى حق التفهيم والإرشاد والتوجيه حتى ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المبين .

وكان القرآن يسير بالمسلمين فى عالم آخر ، ويبصرهم من مشاهد الكون ، وجمال الربوبية ، وكمال الألوهية ، وآثار الرحمـة والرأفة ، وتجليات الرضوان ما يحنون إليه حنينا لا يقوم له أى عقبة .

وكانت فى طى هذه الآيات خطابات للمسلمين فيها يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغـاة الظالمين يحاكمون ويصادرون ثم يسحبون فى النـار على وجوههم ذوقوا مس سقر .

٦ ـ البشارات بالنجاح ـ ومع هـذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد ـ بل ومن قبله ـ أن الدخول فى الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف . بل إن الدعوة الإسلامية تهدف ـ منذ أول يومها ـ إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم ، وأن من أهدافها الأساسية بسط

النفوذ على الأرض ، والسيطرة على الموقف السياسى فى العالم لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله ، وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله .

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات ـ مرة بالتصريح وأخرى بالكناية ـ ففى تلك الفترات القاصمة التى ضيقت الأرض على المسلمين ، وكـادت تخنقهم ،وتقضى على حياتهم كانت تنزل الآيات بما جرت بين الأنبياء السابقين وبين أقـوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم ، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التى تطابق تماما أحوال مسلمى مكة وكفارها ، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين وإيراث عبـاد الله الأرض والديار . فكانت فى هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة فى المستقبل ، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية .

وفى هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين قال تعالى : «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ، فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون . فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين» (٣٧ : ١٧١ ـ ١٧٧) وقال : «سيهزم الجمع ويولون الدبر»(٥٤ : ٤٥) وقال : «جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب»(٣٨ : ١١) ونزلت فى الذين هاجروا إلى الحبشة : « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »(١٦ : ٤١) وسألوه عن قصة يوسف فأنزل الله فى طيها : «لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين» (١٢ : ٧) أى فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقى إخوانه من الفشل ، ويستسلمون كاستسلامهم ، وقال وهو يذكر الرسل : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهـم لنهلكن الظالمين ،

ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » (١٤ : ١٣ ، ١٤) وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان ، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفتهم مشركين ، والمسلمون يحبون غلبة الرومان بصفتهم مؤمنين بالله والرسل والوحي والكتب واليوم الآخر وكانت الغلبة للفرس ، أنزل الله بشارة غلبة الروم في بضع سنين ، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة ، بل صرح ببشارة أخرى وهي نصر الله للمؤمنين حيث قال : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » (٣٠ : ٤ ، ٥).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى ، فكان إذا وافى الموسم ، وقام بين الناس في عكاظ ومجنة وذي المجاز ، لتبليغ الرسالة لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب ، بل يقول لهم بكل صراحة ، يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم ، فإذا متم كنتم ملوكا في الجنة [1] .

وقد أسلفنا ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا ، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره عليه الصلاة والسلام

وكذلك ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم آخر وفد جاء إلى أبي طالب ، فقد صرح لهم أنه يطلب منهم كلمة واحدة يعطونها تدين لهم العرب ويملكون العجم.

قال خباب بن الأرت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة ، وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد ، وهو محمر وجهه فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلا الله — زاد بيان الراوي — والذئب على غنمه [2] وفي رواية ولكنكم تستعجلون [3] .

---

(١) رواه الترمذي وقد مضى مرارا

(٢) صحيح البخاري ١ / ٥٤٣

(٣) نفس المصدر ١ / ٥١٠

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة ، بل كانت فاشية مكشوفة ، يعلمها الكفرة ، كما كان يعلمها المسلمون ، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تغامزوا بهم ، وقالوا : قد جاءكم ملوك الأرض سيغلبون على ملوك كسرى وقيصر ، ثم يصفرون ويصفقون (١) .

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير في الدنيا مع ما فيه من الرجـاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية في الفوز بالجنة كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التي تتوالى عليهم من كل جانب ، والمصائب التي تحيط بهم من كل الأرجاء ليست إلا : « سحابة صيف عن قليل تقشع » .

هذا ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يغذى أرواحهم برغائب الإيمان ، ويزكى نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن ، ويربيهم تربية دقيقة عميقة ، يحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح ونقاء القلب ، ونظافة الخلق ، والتحرر من سلطان الماديات ، والمقاومة للشهوات ، والنزوع إلى رب الأرض والسماوات ، ويذكى جمرة قلوبهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويأخـذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس . فازدادوا رسوخا في الدين ، وعزوفا عن الشهوات ، وتفانيـا في سبيل المرضاة ، وحنينا إلى الجنة ، وحرصا على العلم ، وفقها في الدين ، ومحاسبة للنفس ، وقهرا للنزعات ، وغلبة على العواطف ، وتسيطرا على الثائرات والهائجات وتقيدا بالصبر والهدوء والوقار .

---

(٤) فقه السيرة ص ٨٤

المرحلة الثالثة

- دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول صلى الله عليه وسلم فى الطائف :

فى شوال [1] سنة عشر من النبوة (فى أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩م) خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلا ، سارها ماشيا على قدميه جيئة وذهوبا ، ومعه مولاه زيد بن حارثة ، وكان كلما مر على قبيلة فى الطريق دعاهم إلى الإسلام ، فلم تجب إليه واحدة منها . فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف ، وهم عبدياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وإلى نصرة الإسلام ، فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك. وقال الآخر : أما وجد الله أحدا غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، إن كنت رسولا لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك . فقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهل الطائف عشرة أيام ، لايدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، فقالوا : اخرج من بلادنا ، وأغروا به سفهاءهم فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس فوقفوا له سماطين (أى صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه ، ورجموا عراقيبه ، حتى اختضب نعلاه بالدماء . وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج فى رأسه ، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف ، فلما التجأ إليه رجعوا عنه ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حبلة من عنب فجلس تحت ظلها إلى

---

(١) صرح بذلك النجيب آبادى فى تاريخ الإسلام ١ / ١٢٢ ، وهو الراجح عندى .

جدار . فلما جلس إليه واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذى يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنا مما لقى من الشدة ، وأسفا على أنه لم يؤمن به أحد ، قال :

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى مـن تكلنى ؟ إلى بعيـد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسـع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولاحول ولا قوة إلا بك) .

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا ، يقال له عداس ، وقالا له : خذ قطفا من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مد يده إليه قائلا : « باسم الله » ثم أكل .

فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : أنا نصرانى ، من أهل « نينوى » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى . قال له : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى ، فأكب عداس على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه يقبلها .

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخـر : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء عداس قالا له : ويحك ماهذا ؟ قال : ياسيدى ، مافى الأرض شئ خير من هذا الرجل ، لقد أخبرنى بأمر لايعلمه إلا نبى ، قالا له : ويحك ياعداس ، لايصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق مكة بعد خروجه من الحائط

كثيبا محزونا كسير القلب ، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة .

وقد روى البخارى تفصيل القصة - بسنده - عن عـــروة بن الزبير ، أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك . وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ثم قال : يا محمد ، ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أى لفعلت ، والأخشبان : هما جبلا مكة ، أبو قبيس والذى يقابله وهو قعيقعان - قال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لايشرك به شيئا [1] .

وفى هذا الجواب الذى أدلى به الرسول صلى الله عليه وسلم تتجلى شخصيته الفذة ، وماكان عليه من الخلق العظيم الذى لايدرك غوره .

وأفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واطمأن قلبه لأجل هذا النصر الغيبى الذى أمده الله عليه من فوق سبع سماوات ، ثم تقدم فى طريق مكة حتى بلغ وادى نخلة ، وأقام فيه أياما . وفى وادى نخلة موضعان يصلحان للإقامة - السيل الكبير والزيمة - لما بهما من الماء والخصب ، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته صلى الله عليه وسلم فيه .

---

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق ١ / ٤٥٨ ، مسلم . باب ما لقى النبى صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين ٢ / ١٠٩

وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفرا من الجن ، ذكرهم الله فى موضعين من القرآن ، فى سورة الأحقاف : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم » (٤٦ : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١) .

وفى سورة الجن : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحـــدا » إلى تمام الآية الخامسة عشر .

ومن سياق هذه الآيات ــ وكذا من سياق الروايات التى وردت فى تفسير هذا الحادث ــ يتبين أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعرف بحضور ذلك النفر مـــن الجن ، وإنما علم ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات ، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة ، ويقتضى سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مرارا .

وحقا كان هذا الحادث نصرا آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التى لا يعلمها إلا هو ، ثم إن الآيات التى نزلت بصدد هذا الحادث كانت فى طيها بشارات بنجاح دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن أى قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها : « ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » (٤٦ : ٣٢) « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا » (٧٢ : ١٢) .

أمام هذه النصرة ، وأمام هذه البشارات ، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التى كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودا مدحورا حتى صمم على العود إلى مكة ، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى فى عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد ، جد وحماس .

وحينئذ قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ يعنى قريشا ، فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء، وبعث رجلا من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره.، فقال : أنا حليف ، والحليف لا يجير . فبعث إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدى ، فقال المطعم : نعم ، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال : البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمدا ، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ادخل ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم ، وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعما : أمجير أنت أم متابع – مسلم – ؟ قال : بل مجير . قال : قد أجرنا من أجرت [1] . .

وقد حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع ، فقال فى أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له [2]

(١) التقطنا تفصيل حادث الطائف من ابن هشام ١ / ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، وزاد المعاد ٢ / ٤٦ ، ٤٧ ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ورحمة للعالمين ١ / ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،وتاريخ إسلام للنجيب آبادى ١/١٢٣ ، ١٢٤

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٣

في ذي القعدة سنة عشر من النبوة — في أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩م — عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد ، ولاقتراب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، لقضاء فريضة الحج، وليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا الله في أيام معلومات ، فانتهز رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الفرصة ، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام ، ويدعوهم إليه ، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة . .

القبائل التي عرض عليها الإسلام :

قال الزهري : وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب ابن خصفة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة ، وكلب ، والحارث بن كعب ، وعذرة ، والحضارمة ، فلم يستجب منهم أحد [1] .

وهذه القبائل التي سماها الزهري لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة واحدة ولا في موسم واحد ، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة . ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة ، نعم هناك قبائل قد جزم العلامة المنصور فوري أن عرض الإسلام عليهم كان في موسم السنة العاشرة [2] . وقد ذكر ابن إسحاق كيفية العرض وردودهم ، وهاك ملخصا :

١ — بنو كلب — أتى النبي صلى الله عليه وسلم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : يا بني عبد الله ، إن الله قد أحسن اسم أبيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

---

(١) روى ذلك الترمذي . انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٤٩

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٧٤ ، وبه جزم النجيب آبادي ، انظر تاريخ إسلام ١ / ١٢٥

٢ — بنو حنيفة — أتاهم فى منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم .

٣ — وأتى إلى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال بحيرة بن فراس (رجل منهم) : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء ، فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم لكبر سنه ، وقالوا له : جاءنا فتى من قريش من بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبى ، يدعونا إلى أن نمنعه ، ونقوم معه ، ونخرج به إلى بلادنا ، فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بنى عامر هل لها من تلاف ؟ هل لذناباها من مطلب ؟ والذى نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلى قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم [١] ؟

المؤمنون من غير أهل مكة :

وكما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام على القبائل والوفود ، عرض على الأفراد والأشخاص ، وحصل من بعضهم على ردود صالحة ، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل . وهاك لوحة منهم :

١ — سويد بن صامت — كان شاعرا لبيبا من سكان يثرب يسميه قومه الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، جاء مكة حاجا أو معتمرا ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، فقال : لعل الذى معك مثل الذى معى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك . قال : حكمة لقمان . قال : اعرضها على . فعرضها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله

(١) ابن هشام ١ / ٤٢٤ ، ٤٢٥

عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فأسلم ، وقال : إن هذا لقول حسن . فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم بعاث [1] . وكان إسلامه فى أوائل سنة ١١ من النبوة [2] .

٢ — إياس بن معاذ — كان غلاما حدثا من سكان يثرب ، قدم فى وفد من الأوس جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، وذلك قبيل حرب بعاث فى أوائل سنة ١١ من النبوة ، إذ كانت نيران العداوة متقدة فى يثرب بين القبيلتين — وكان الأوس أقل عددا من الخزرج — فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم ، وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا : وما ذاك ؟ قال : أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد ، أدعوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علىّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ : أى قوم هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع — رجل كان فى الوفد — حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس ، وقال : دعنا عنك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا فى عقد حلف مع قريش .

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك ، وكان يهلل ويكبر ويحمد ، ويسبح عند موته ، فلا يشكون أنه مات مسلما [3] .

٣ — أبو ذر الغفارى — وكان من سكان نواحى يثرب ، ولما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بسويد بن صامت وإياس بن معاذ وقع فى أذن أبى ذر أيضا ، وصار سببا لإسلامه [4] .

---

(١) نفس المصدر ١ / ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، رحمة للعالمين ١ / ٧٤

(٢) تاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٥

(٣) ابن هشام ١ / ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، وتاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٦

(٤) نفس المصدر الأخير ١ / ١٢٨

روى البخارى عن ابن عباس قال : قال أبو ذر : كنت رجلا من غفار ، فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فقلت لأخي : انطلق إلى هذا الرجل وكلمه ، وأتنى بخبره، فانطلق ، فلقيه ، ثم رجع ، فقلت : ما عندك ؟ فقال : والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ، فقلت له : لم تشفنى من الخبر ، فأخذت جرابا وعصا ، ثم أقبلت إلى مكة ، فجعلت لا أعرفه ، وأكره أن أسأل عنه ، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد . قال : فمر بى علىّ . فقال : كأن الرجل غريب ؟ قال : قلت : نعم . فقال : فانطلق إلى المنزل ، فانطلقت معه ، لا يسألنى عن شئ ولا أسأله ولا أخبره . فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه ، وليس أحد يخبرنى عنه بشئ . قال : فمر بى على فقال : أما نال للرجل يعرف منزله بعد ؟ قال : قلت لا . قال : فانطلق معى ، قال : فقال : ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قال : قلت له : إن كتمت علىّ أخبرتك ، قال : فإنى أفعل . قال : قلت له : بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبى الله ، فأرسلت أخي يكلمه ، فرجع ولم يشفنى من الخبر ، فأردت أن ألقاه .

فقال له : أما إنك قد رشدت . هذا وجهى إليه ، ادخل حيث أدخل، فإنى إن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى، وامضِ أنت. فمضى ومضيت معه حتى دخل ، ودخلت معه على النبي صلى الله عليه وسلم . فقلت له : أعرض على الإسلام ، فعرضه ، فأسلمت مكانى ، فقال لى : يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل . فقلت : والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم ، فجئت إلى المسجد وقريش فيه فقلت : يا معشر قريش ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ . فقاموا ، فضربت لأموت ، فأدركنى العباس ، فأكب على ، ثم أقبل عليهم فقال ، ويلكم تقتلون رجلا من غفار ؟ ومتجركم وممركم على غفار . فأقلعوا عنى . فلما أن أصبحت الغد ، رجعت ، فقلت مثل ما قلت بالأمس . فقالوا

قوموا إلى هذا الصابئ ، فصنع بى ما صنع بالأمس ، فأدركنى العباس ، فأكب على وقال مثل مقالته بالأمس [1] .

٤ – طفيل بن عمرو الدوسى – كان رجلا شريفا شاعرا لبيبا رئيس قبيلة دوس ، وكانت لقبيلته إمارة أو شبه إمارة فى بعض نواحى اليمن ، قدم مكة فى عام ١١ من النبوة ، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها ، وبذلوا له أجل تحية وأكرم التقدير ، وقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجه ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئا .

يقول طفيل : فوالله ما زالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفا ؛ فرقا من أن يبلغنى شئ من قوله ، قال فغدوت إلى المسجد ، فإذا هو قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت قريبا منه ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى رجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته ، فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمى ، وتخويف الناس إياى ، وسد الأذن بالكرسف ، ثم سماع بعض كلامه ، وقلت له : أعرض على أمرك ، فعرض على الإسلام ، وتلا على القرآن ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت له : إنى مطاع فى قومى ، وراجع إليهم ، وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية ، فدعا .

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نورا فى وجهه مثل المصباح ، فقال : اللهم فى غير وجهى . أخشى أن يقولوا : هذه مثلة ، فتحول النور إلى سوطه ،

---

(١) صحيح البخارى باب قصة زمزم ١ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ وباب إسلام أبى ذر ١ / ٥٤٤ ، ٥٤٥

فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما ، وأبطأ عليه قومه فى الإسلام لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق[1] ومعه سبعون أو ثمانون بيتا من قومه ، وقد أبلى فى الإسلام بلاء حسنا ، وقتل شهيدا يوم اليمامة [2] .

٥ ـ ضماد الأزدى ـ كان من أزد شنوءة من اليمن ، وكان يرقى من هذا الريح ، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون : إن محمدا مجنون ، فقال : لو أنى أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى ، فلقيه ، فقال : يا محمد ، إنى أرقى من هذا الريح ، فهل لك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . أما بعد .

فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ،فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء،ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه [3] .

ست نسمات طيبة من أهل يثرب:

وفى موسم الحج من سنة ١١ من النبوة ـ يوليو سنة ٦٢٠م ـ وجدت الدعوة الإسلامية بذورا صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات ، اتقى المسلمون فى ظلالها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة أعوام .

وكان من حكمته صلى الله عليه وسلم إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل فى ظلام الليل ، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين [4] .

---

(١) بل وبعد الحديبية ، فقد قدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر . انظر ابن هشام ١ / ٣٨٥

(٢) ابن هشام ١ / ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، رحمة للعالمين ١ / ٨١ ، ٨٢ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٤٤ ، تاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٧

(٣) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ، باب علامات النبوة ٢ / ٥٢٥

(٤) تاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٩

خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعلى فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم فى الإسلام . وقد دارت بين أبى بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة ، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة ، غير أنهم توقفوا فى قبول الإسلام[1] .

ثم مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقبة منى ، فسمع أصوات رجال يتكلمون [2] . فعمدهم حتى لحقهم ،وكانوا ستة نفر من شباب يثرب ، كلهم من الخزرج ، وهم :

(١) أسعد بن زرارة (من بنى النجار)

(٢) عوف بن الحارث بن رفاعة ، ابن عفراء (« «)

(٣) رافع بن مالك بن العجلان (من بنى زريق)

(٤) قطبة بن عامر بن حديدة (من بنى سلمة)

(٥) عقبة بن عامر بن نابى (من بنى حرام بن كعب)

(٦) جابر بن عبد الله بن رئاب (من بنى عبيد بن غنم)

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبيا من الأنبياء مبعوث فى هذا الزمان سيخرج فنتبعه ،ونقتلكم معه قتل عاد وإرم [3] .

فلما لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم ، قالوا: نفر من الخزرج ، قال : من موالى اليهود ؟ أى حلفائهم ، قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم ، إنه للنبي الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا .

---

(١) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٨٤

(٣) زاد المعاد ٢ / ٥٠ ، وابن هشام ١ / ٤٢٩ ، ٥٤١

وكانوا من عقلاء يثرب ، أنهكتهم الحرب الأهلية التى مضت من قريب ، والتي لا يزال لهيبها مستعرا ، فأملوا أن تكون دعوته سببا لوضع الحرب ، فقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمـــرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

استطراد – تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة :

وفى شوال من هذه السنة – سنة ١١ من النبوة – تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة الصديقة رضى الله عنها ، وهى بنت ست سنين وبنى بها بالمدينة فى شوال فى السنة الأولى من الهجرة وهى بنت تسع سنين (٢) .

---

(١) نفس المصدر الأخير ١ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠ ، صحيح البخارى ١ / ٥٥١

الإسراء والمعــراج

وبينا النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه المرحلة التى كانت دعوته تشق فيها طريقا بين النجاح والاضطهاد ، وكانت تتراءى نجوما ضئيلة تتلمح فى آفاق بعيدة ، وقع حادث الإسراء والمعراج .

واختلف فى تعيين زمنه على أقوال شتى :

(١) فقيل : كان الإسراء فى السنة التى أكرمه الله فيها بالنبوة ، اختاره الطبرى.

(٢) وقيل : كان بعد المبعث بخمس سنين ، رجح ذلك النووى والقرطبى .

(٣) وقيل : كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبــوة ، واختاره العلامة المنصور فورى .

(٤) وقيل : قبل الهجرة بستة عشر شهرا ، أى فى رمضان سنة ١٢ من النبوة .

(٥) وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، أى فى المحرم سنة ١٣ من النبوة .

(٦) وقيل : قبل الهجرة بسنة ، أى فى ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة .

وردت الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة رضى الله عنها توفيت فى رمضان سنة عشر من النبوة ، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس . ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء [١] . أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحدا منها ، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جدا .

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الوقعة . وفيما يلى نسردها بإيجاز :

قال ابن القيم : أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، راكبا على البراق ، صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام ، فنزل هناك ، وصلى بالأنبياء إماما ، وربط البراق بحلقة باب المسجد .

---

(١) انظر لهذه الأقوال زاد المعاد ٢ / ٤٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ١٤٨، ١٤٩ ، رحمة للعالمين ١ / ٧٦ وتاريخ إسلام للنجيب آبادى ١ / ١٢٤

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا ، فاستفتح له جبريل ففتح له ، فرأى هنالك آدم أبا البشر ، فسلم عليه ، فرحب به ، ورد عليه السلام ، وأقر بنبوته ، وأراه الله أرواح الشهداء عن يمينه ، وأرواح الأشقياء عن يساره .

ثم عرج به إلى السماء الثانية ، فاستفتح له ، فرأى فيها يحي بن زكريا وعيسى ابن مريم ، فلقيهما وسلم عليهما ، فردا عليه ، ورحبا به ، وأقرا بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف ، فسلم عليه ، فرد عليه ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، فسلم عليه ، ورحب به وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة ، فرأى فيها هارون بن عمران ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقى فيها موسى بن عمران ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

فلما جاوزه بكى موسى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى لأن غلاما بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى .

ثم عرج به إلى السماء السابعة ، فلقى فيها إبراهيم عليه السلام ، فسلم عليه ، ورحب به ، وأقر بنبوته .

ثم رفع إلى سدرة المنتهى ، ثم رفع له البيت المعمور .

ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فرجع حتى مرّ على موسى ، فقال له : بم أمرك ؟ قال بخمسين صلاة . قال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت إلى جبريل ، كأنه يستشيره في ذلك ، فأشار : أن نعم ، إن شئت ، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى ، وهو فى

مكانه — هذا لفظ البخارى فى بعض الطرق — فوضع عنه عشرا ، ثم أنزل حتى مر بموسى ، فأخبره ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ؛ حتى جعلها خمسا ، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال : قد استحييت من ربى ، ولكنى أرضى وأسلم ، فلما بعد نادى مناد : قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى — انتهى [1]

ثم ذكر ابن القيم خلافا فى رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه تبارك وتعالى ، ثم ذكر كلاما لابن تيمية بهذا الصدد ، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلا وهو قول لم يقله أحد من الصحابة . وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقا ورؤيته بالفؤاد فالأول لا ينافى الثانى .

ثم قال : وأما قوله تعالى فى سورة النجم « ثم دنا فتدلى » (٥٣ : ٨) فهو غير الدنو الذى فى قصة الإسراء ، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه ، كما قالت عائشة وابن مسعود ، والسياق يدل عليه ، وأما الدنو والتدلى فى حديث الإسراء فذلك صريح فى أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه ، ولا تعرض فى سورة النجم لذلك ، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وهذا هو جبريل ، رآه محمد صلى الله عليه وسلم على صورته مرتين : مرة فى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . والله أعلم [2] انتهى .

وقد وقع حادث شق صدره صلى الله عليه وسلم هذه المرة أيضا ؛ وقد رأى ضمن هذه الرحلة أمورا عديدة :

عرض عليه اللبن والخمر ، فاختار اللبن ، فقيل : هديت الفطرة أو أصبت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٤٧ ، ٤٨

(٢) زاد المعاد ٢ / ٤٧ ، ٤٨ ، وانظر صحيح البخارى ١ / ٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٨١ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٢ / ٦٨٤ ، وصحيح مسلم ١ / ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

ورأى أربعة أنهار فى الجنة : نهران ظاهران ، ونهران باطنان . والظاهران هما : النيل والفرات، ومعنى ذلك أن رسالته ستوطن الأوديــة الخصبة فى النيل والفــرات ، وسيكون أهلها حملة الإسلام جيلا بعد جيل ، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة .

ورأى مالك خازن النار ، وهو لا يضحك ، وليس على وجهه بشر وبشاشة وكذلك رأى الجنة والنار .

ورأى أكلة أمــوال اليتامى ظلما لهم مشافر كمشافر الإبل ، يقذفون فى أفواههم قطعا من نار كالأفهار ، فتخرج من أدبارهم .

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لايقدرون لأجلها أن يتحولوا عن مكانهم ، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم .

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن ، يأكلون من الغث المنتن ، ويتركون الطيب السمين .

ورأى النساء اللاتى يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم ، رآهن معلقات بثديهن .

ورأى عيرا من أهل مكة فى الإياب والذهاب ، وقد دلهم على بعير ندّ لهم ، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون ، ثم ترك الإناء مغطى ، وقد صار ذلك دليلا على صدق دعواه فى صباح ليلة الإسراء (١) .

قال ابن القيم : فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى ، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم واستضرارهــم عليه ، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس ، فجلاه الله له ، حتى عاينه ، فطفق يخبرهم عن آياته ، ولايستطيعون أن يردوا عليه شيئا ، وأخبرهم عن عيرهم فــى

---

(١) المصادر السابقة وابن هشام ١ / ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦

مسراه ورجوعه ، وأخبرهم عن وقت قدومها ، وأخبرهم عن البعير الذى يقدمها وكان الأمر كما قال ، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا ، وأبى الظالمون إلا كفورا [1]

يقال سمى أبو بكر رضى الله عنه صديقا؛ لتصديقه هذه الوقعة حين كذبها الناس [2] .

وأوجز وأعظم ما ورد فى تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى : « لنريه من آياتنا » (١٧ : ١) وهذه سنة الله فى الأنبياء ، قال : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين » (٦ : ٧٥) وقال لموسى : « لنريك من آياتنا الكبرى » (٢٠ : ٢٣) وقد بين مقصود هذه الإرادة بقوله : « وليكون من الموقنين » فبعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره ، وليس الخبر كالمعاينة ، فيتحملون فى سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم ، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب .

والحكم والأسرار التى تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار الشريعة ، ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من ينابيع هذه الرحلة المباركة وتتدفق إلى حدائق أزهار السيرة النبوية — على صاحبها الصلاة والسلام والتحية — أرى أن أسجل بعضا منها بالإيجاز :

يرى القارئ فى سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء فى آية واحدة فقط ، ثم أخذ فى ذكر فضائح اليهود وجرائمهم ، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، فربما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط ، والأمر ليس كذلك ، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التى لم يبق معها

---

(١) زاد المعاد ١ /٤٨ ، وانظر أيضا صحيح البخارى ٢ / ٦٨٤ ، وصحيح مسلم ١ / ٩٦ ، وابن هشام ١ / ٤٠٢ ، ٤٠٣

(٢) نفس المصدر الأخير ١ / ٣٩٩

مجال لبقائهم على هذا المنصب ، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلا إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما ، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة ، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانـة والإثم والعدوان ، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات ، ولا يزال رسولها يتمتع بوحي القـرآن الذي يهدي للتي هي أقوم .

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة ، والرسول يطوف في جبال مكة مطرودا بين الناس ؟ هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى ، وهي أن دورا من هـذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتمام ، وسيبدأ دور آخر يختلف عن الأول في مجراه ، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (١٧ : ١٦) « وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا » (١٧ : ١٧) وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يبتني عليها مجتمعهم الإسلامي كأنهم قد أووا إلى الأرض تملكوا فيها أمورهم من جميع النواحي ، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحى المجتمع ، ففيه إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيجد ملجأ ومأمنا يستقر فيه أمره ، ويصير مركزا لبث دعوته في أرجاء الدنيا . هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة ، يتصل ببحثنا ، فآثرنا ذكره .

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين ، والله أعلم .

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفرمن أهل يثرب أسلموا فى موسم الحج سنة ١١ من النبوة ، وواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إبلاغ رسالته فى قومهم .

وكان من جراء ذلك أن جاء فى الموسم التالى — موسم الحج سنة ١٢ من النبوة يوليو سنة ٦٢١م — اثنا عشر رجلا ، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام السابق — والسادس الذى لم يحضر هو جابر ابن عبد الله بن رئاب — وسبعة سواهم . وهم :

(١) معاذ بن الحارث ، ابن عفراء — من بنى النجار — (من الخزرج)
(٢) ذكوان بن عبد القيس — من بنى زريق — (»)
(٣) عبادة بن الصامت — من بنى غنم — (»)
(٤) يزيد بن ثعلبة — من حلفاء بنى غنم — (»)
(٥) العباس بن عبادة بن نضلة — من بنى سالم — (»)
(٦) أبو الهيثم بن التيهان — من بنى عبد الأشهل — (الأوس)
(٧) عويم بن ساعدة — من بنى عمرو بن عوف — (»)

الأخيران من الأوس ، والبقية كلهم من الخزرج [(١)] .

اتصل هؤلاء برسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة بمنى ، فبايعوه بيعة النساء ، أى وفق بيعتهن التى نزلت عند فتح مكة .

* روى البخارى عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تعالوا ، بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله ، فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه . قال : فبايعته — وفى نسخة فبايعناه — على ذلك [(٢)] .

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ٨٥ وابن هشام ١ / ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣

(٢) صحيح البخارى ، باب بعد باب حلاوة الإيمان ١ / ٧ ، باب وفود الأنصار ١ / ٥٥٠ ، ٥٥١ واللفظ من هذا الباب ، وباب قوله تعالى : إذا جاءك المؤمنات ٢ / ٧٢٧ ، باب الحدود كفارة ٢ / ١٠٠٣

سفير الإسلام فى المدينة :

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبى صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء المبايعين أول سفيره فى يثرب ، ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام ، ويفقههم فى الدين ،وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالــوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شابا من شباب الإسلام من السابقين الأولين ، وهو مصعب بن عمير العبدرى رضى الله عنــه .

النجاح المغتبط :

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة ، وأخذا يبثان الإسلام فى أهل يثرب بجد وحماس ، وكان مصعب يعرف بالمقرئ .

ومن أروع ما يروى من نجاحه فى الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يوما يريد دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر ، فدخلا فى حائط من حوائط بنى ظفر ، وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق،واجتمع إليهما رجال من المسلمين ـ وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل يومئذ على الشرك ـ فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد : اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانههما عن أن يأتيا دارنا ،فإن أسعد بن زرارة ابن خالتى ، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما ، فلما رآه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، قال مصعب إن يجلس أكلمه . وجاء أسيد فوقف عليهما متشتما ،وقال : ما جاء بكما إلينا ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانــا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ، فقال : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . قال : فوالله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، فى إشراقه وتهلله ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟

قالا له : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . فقام واغتسل وطهر ثوبه وتشهد وصلى ركعتين ، ثم قال : إن ورائى رجلا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ،وسأرشده إليكما الآن — سعد بن معاذ — ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد فى قومه ، وهم جلوس فى ناديهم . فقال سعد : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف أسيد على النادى قال له سعد : ما فعلت؟ فقال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت .

وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه — وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك — ليخفروك . فقام سعد مغضبا للذى ذكر له ، فأخذ حربته ، وخرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى ، تغشانا فى دارنا بما نكره ؟

وقد كان أسعد قال لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد ، فقال مصعب لسعد بن معاذ : أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفت ، ثم ركز حربته فجلس . فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، فى إشراقه وتهلله ، ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلمتم ؟ قالا : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين. ففعل ذلك .

ثم أخذ حربته فأقبل إلى نادى قومه ، فلما رأوه قالوا : نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة ، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم

على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة إلا رجل واحد — وهو الأصيرم — تأخر إسلامه إلى يوم أحد ، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل ، ولم يسجد لله سجدة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عمل قليلا وأجر كثيرا » .

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل . كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر — وكانوا يطيعونه — فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة .

وقبل حلول موسم الحج التالى — أى حج السنة الثالثة عشر — عاد مصعب ابن عمير إلى مكة يحمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشائر الفوز ، ويقص عليه خبر قبائل يثرب ، وما فيها من مواهب الخير ، وما لها من من قوة ومنعة[1]

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشر من النبوة — يونيو سنة ٦٢٢م — حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسا من المسلمين من أهل يثرب ، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين ، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم — وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق — حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذى عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى ، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل .

ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي الذى حول مجرى

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، و٢ / ٩٠ ، وزاد المعاد ٢ / ٥١

الأيام فى صراع الوثنية والإسلام . يقول كعب بن مالك الأنصارى رضى الله عنه :

□ « خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة من أوسط أيام التشريق ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام ، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا — وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا — فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا . ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة ، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة ، وكان نقيبا » .

□ قال كعب : « فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من نسائنا ؛ نسيبة بنت كعب — أم عمارة — من بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو — أم منيع — من بنى سلمة » .

فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ، ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب — وهو يومئذ على دين قومه — إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له ، وكان أول متكلم [1] .

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسئولية :

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الدينى والعسكرى ، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم ليشرح لهم — بكل صراحة — خطورة المسئولية التى ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف . قال :

« يا معشر الخزرج — وكان العرب يسمون الأنصار خزرجا ، خزرجها

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٠ ، ٤٤١

وأوسها كليهما – إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده . وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه . فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده » .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت [1] .

وهذا الجواب يدل على ماكانوا عليه من عزم وتصميم وشجاعة وإيمان وإخلاص في تحمل هذه المسئولية العظيمة ، وتحمل عواقبها الخطيرة .

وألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بيانه ، ثم تمت البيعة .

بنود البيعة :

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلا . قال جابر : قلنا : يا رسول الله على ما نبايعك ؟ قال :

(١) على السمع والطاعة في النشاط والكسل .

(٢) وعلى النفقة في العسر واليسر .

(٣) وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٤) وعلى أن تقوموا في الله ، لا تأخذكم في الله لومة لائم .

(٥) وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة [2] .

وفي رواية كعب – التي رواها ابن إسحاق – البند الأخير فقط من هذه

---

(١) نفس المصدر ١ / ٤٤١ ، ٤٤٢

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، وصححه الحاكم وابن حبان ، انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٥٥ ، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت ، وفيه بند زائد ، وهو « أن لاننازع الأمر أهله » انظر ابن هشام ١ / ٤٥٤

البنود ، ففيه » قال كعب : فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق (نبيا) لنمنعنك مما نمنع أزرنا منه فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا (عن كابر) .

قال : فاعترض القول— والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم — أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم (١) .

التأكيد من خطورة البيعة :

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة ، وأجمعوا على الشروع فى عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا فى مواسم سنتى ١١ و ١٢ من النبوة ، قام أحدهما تلو الآخر ، ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية ، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر ، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية ويتأكدا من ذلك .

قال ابن إسحاق : لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نضلة : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٢

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة . قالوا ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه [١]

وفي رواية جابر (قال) : فقمنا نبايعه ، فأخذ بيده أسعد بن زرارة — وهو أصغر السبعين — فقال رويدا يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله [٢] .

عقـــد البيعة :

وبعد إقرار بنود البيعة ، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة ، قال جابر — بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة — : فقالوا يا أسعد ، أمط عنا يدك. فوالله لا نذر هذه البيعة ، ولا نستقيلها [٣] .

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل ، وتأكـــد منه — وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير ، وبالطبع فكان هو الرئيس الديني على هؤلاء المبايعين — فكان هو السابق إلى هذه البيعة . قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده[٤] . وبعد ذلك بدأت البيعة العامة ، قال جابر : فقمنا إليه رجلا رجلا فأخذ علينا البيعة ، يعطينا بذلك الجنة [٥] .

---

(١) نفس المصدر ١ / ٤٤٦

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث جابر

(٣) نفس المصدر

(٤) قال ابن إسحاق : وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان ، وقال كعب ابن مالك : بل البراء بن معرور (ابن هشام ١ / ٤٤٧) قلت : لعلهم حسبوا ما دار بينهما وبين الرسول صلى الله عليه وسلم بيعة ، وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد ابن زرارة . والله أعلم .

(٥) مسند الإمام أحمد

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولا . ما صافح رسول الله صلى عليه وسلم امرأة أجنبية قط[1] .

اثنا عشر نقيبا :

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم انتخاب اثنى عشر زعيما يكونون نقباء على قومهم ، يكفلون المسئولية عنهم فى تنفيذ بنود هذه البيعة ، فقال للقوم : اخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومكم بما فيهم .

فتم انتخابهم فى الحال ، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهاك أسماؤهـــم :

نقباء الخزرج :

(١) أسعد بن زرارة بن عدس .

(٢) سعد بن الربيع بن عمرو .

(٣) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة .

(٤) رافع بن مالك بن العجلان .

(٥) البراء بن معرور بن صخر .

(٦) عبد الله بن عمرو بن حرام .

(٧) عبادة بن الصامت بن قيس .

(٨) سعد بن عبادة بن دليم .

(٩) المنذر بن عمرو بن خنيس .

نقباء الأوس :

(١) أسيد بن حضير بن سماك .

(٢) سعد بن خيثمة بن الحارث .

(٣) رفاعة بن عبد المنذر بن زبير [2] .

---

(١) أنظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ٢ / ١٣١

(٢) زبير بالباء الموحدة ، وقيل : بالنون . وقد قيل بدل رفاعة ، أبو الهيثم بن التيهان .

ولما تم انتخاب هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ميثاقا آخر بصفتهم رؤساء مسئولين .

قال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي — يعني المسلمين — قالوا : نعم [1] .

شيطان يكتشف المعاهدة :

ولما تم إبرام المعاهدة ، وكان القوم على وشك الارفضاض ، إكتشفها أحد الشياطين وحيث جاء هذا الاكتشاف في اللحظة الأخيرة ، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سرا ليباغتوا المجتمعين وهم في الشعب قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض ، وصاح بأنفذ صوت سمع قط : « يا أهل الأخاشب — المنازل — هل لكم في محمد والصباة معه ؟ قد اجتمعوا على حربكم » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا أزب العقبة ، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك » . ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم [2] .

استعداد الأنصار لضرب قريش :

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة : « والذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعوا وناموا حتى أصبحوا [3] .

قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب :

ولما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ، لأنهم كانوا على معرفة تامة من عواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦

(٢) زاد المعاد ٢ / ٥١

(٣) ابن هشام ١ / ٤٤٨

وأموالهم ، فما إن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى مخيم أهل يثرب، ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة . فقد قال :

« يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم »[1] .

ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئا عن هذه البيعة لأنها تمت فى سرية تامة وفى ظلام الليل، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله : ماكان من شئ ، وما علمناه ، حتى أتوا عبد الله بن أبى بن سلول ، فجعل يقول : هذا باطل ، وما كان هذا ، وماكان قومى ليفتاتوا على مثل هذا . لو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤامرونى .

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم لاذوا بالصمت ، فلم يتحدث أحد منهم بنفى أو إثبات .

ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين ، فرجعوا خائبين .

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين :

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر ، لكنهم لم يزالوا يتنطسونه — يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه — حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح ، والبيعة قد تمت فعلا . وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم ، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين ، ولكن بعد فوات الأوان ، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردوهما ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فألقوا القبض عليه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله ، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتى أدخلوه مكة ، فجاء المطعم بن عدى والحارث بن حرب بن

(١) نفس المصدر ١ / ٤٤٨

أمية فخلصاه من أيديهم . إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة ، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم فوصل القوم جميعا إلى المدينـــة (١) .

هذه هي بيعة العقبة الثانية — التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى — وقد تمت في جو تعلوه عواطف الحب والولاء والتناصر بين أشتات المؤمنين ، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل . فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف في مكة ، ويتعصب له ، ويغضب من ظالمه ، وتجيش في حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله .

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام ، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه ، إيمان لا يزول أمام أي قوة مـــن قوات الظلم والعدوان ، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل . وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالا ، ويتركوا عليها آثارا خلا عن نظائرها الغابر والحاضر ، وسوف يخلو المستقبل .

(١) زاد المعاد ٢ / ٥١ ، ٥٢ ، ابن هشام ١ / ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ، ونجح الإسلام فى تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة — وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته — أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن .

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهــدار المصالح ، والتضحية بالأموال ، والنجاة بالشخص فحسب ، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب قد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان.

وبدأ المسلمون يهاجرون ، وهم يعرفون كل ذلك ، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم ، لما كانوا يحسون من الخطر ؛ وهاك نماذج من ذلك :

(١) كان من أول المهاجرين أبو سلمة — هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق — وزوجته وابنه ، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاوه هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ فأخذوا منه زوجته ، وغضب آل أبى سلمة لرجلهم ، فقالوا لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا ، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده ، وذهبوا به . وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة . وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجهــا ، وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى تمسى ، ومضى على ذلك نحو سنة ، فرقّ لها أحد ذويها وقال : ألا تخرجون هــذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها فقالوا لها : ألحقى بزوجك إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبته ، وخرجت تريد المدينة — رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترا — وليس معها أحد من خلق الله . حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة ، فلما نظر إلى قباء قال : زوجك فى هــذه القرية فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة [1] .

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠

(٢) ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى ، أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى قد جعلت لكم مالى ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب [١] .

(٣) وتواعد عمر بن الخطاب، وعياش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاصى ابن وائل موضعا يصبحون عنده ، ثم يهاجرون إلى المدينة ، فاجتمع عمر وعياش، وحبس عنهما هشام .

ولما قدما المدينة ونزلا بقباء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش — وأم الثلاثة واحدة — فقالا له : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط ، ولا تستظل بشمس حتى تراك ، فرق لها . فقال له عمر : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فأبى عياش إلا الخروج معهما ليبر قسم أمه ، فقال له عمر : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا ابن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟ قال: بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة نهارا موثقا ، وقالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم ، كما فعلنا بسفيهنا هذا [٢] .

---

(١) نفس المصدر ١ / ٤٧٧

(٢) بقى هشام وعياش فى قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما : من لى بعياش وهشام ؟ فقال الوليد بن الوليد : أنا لك يا رسول الله بهما ، فقدم الوليد مكة مستخفيا ، ولقى امرأة تحمل إليهما طعاما فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور الجدار ، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة انظر ابن هشام ١ / ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، وكان قدوم عمر المدينة فى عشرين من الصحابة (صحيح البخارى ١ / ٥٥٨)

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك . ولكن مع كل ذلك خرج الناس أرسالا يتبع بعضهم بعضا . وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلى – أقاما بأمره لهما – وإلا من احتبسه المشركون كرها ، وقد أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج ، وأعد أبو بكر جهازه (١) .

روى البخارى عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين – وهما الحرتان – فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى . فقال له أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال : نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر – وهو الخبط – أربعة أشهر (٢) .

* * *

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٢
(٢) صحيح البخارى ، باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ١ / ٥٥٣

فى دار الندوة « برلمـان قريش »

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تجهزوا وخرجوا وحملوا وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج ،وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان ، وأخـذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقى العظيم الذى أخذ يهدد كيانهم الوثنى والاقتصادي .

فقد كانوا يعلمون ما فى شخصية محمد — صلى الله عليه وسلم — من غاية قوة التأثير مع كمال القيـادة والإرشاد ، وما فى أصحابه من العزيمـة والاستقامـة والفداء فى سبيله ، ثم ما فى قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة ، وما فى عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح ، والتداعى إلى نبذ الأحقاد فيما بينهما بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر ..

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجى بالنسبة إلى المحجة التجارية التى تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام . وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويا سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها . ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن فى تلك الطريق .

فلا يخفى ما كان لقريش من الخطر البالغ فى تمركز الدعوة الإسلامية فى يثرب ومجابهة أهلها ضدهم .

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذى كان يهدد كيانهم ، فصاروا يبحثون عن أنجع الوسائل لدفع هذا الخطر الذى مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعـوة الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة ، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م [١] — أى بعد شهرين ونصف تقريبا من بيعة العقبة الكبرى —

---

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات التى سجلها العلامة محمد سليمان المنصورفورى فى رحمة العالمين ١ / ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ٢ / ٤٧١ .

عقد برلمان مكة (دار الندوة) فى أوائل النهار [1] أخطر اجتماع له فى تاريخه وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعا على حامل لواء الدعوة الإسلامية ، وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائيــا .

وكانت الوجوه البارزة فى هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش :

(١) أبو جهل بن هشام ، عن قبيلة بنى مخزوم .

(٢) جبير بن مطعم ، وطعيمة بن عدى ، والحارث بن عامر ، عن بنى نوفل ابن عبد مناف .

(٣) شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، عن بنى عبد شمس بن عبد مناف .

(٤) النضر بن الحارث (وهو الذى كان ألقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلا جزور) عن بنى عبد الدار .

(٥) أبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام عن بنى أسد بن عبد العزى .

(٦) نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، عن بنى سهم .

(٧) أمية بن خلف ، عن بنى جمح .

ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس فى هيئة شيخ جليل عليه بتلة ، ووقف على الباب ، فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا . قالوا : أجل ، فادخل ، فدخل معهم .

---

(١) يدل على انعقاد هذا الاجتماع فى أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق أن جبريل أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن فى الهجرة . ثم ما رواه البخارى من حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء أبا بكر فى نحر الظهيرة وقال له : « قد أذن فى الخروج » وسيأتى .

النقاش البرلماني والإجماع على قرار غاشم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم :

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول ، ودار النقاش طويلا . قال أبو الأسود : نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ، ولا نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب ، ثم يسير بهم إليكم — بعد أن يتابعوه — حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، ويروا فيه رأيا غير هذا .

قال أبو البخترى : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله — زهيرا والنابغة — ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم .

قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه — كما تقولون — ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوا على أمركم — ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره .

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين قدم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه ، تقدم به كبير مجرمى مكة أبو جهل بن هشام . قال أبو جهل: « والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه. فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم .

قال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره [1]

ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع ، ورجع النواب إلى بيوتهم وقد صمموا على تنفيذ هذا القرار فورا .



(١) انظر ابن هشام ١ / ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢

هجـــرة النبي صلى الله عليه وسلم

ولمـــا تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم نزل إليه جبريل بوحي ربه تبارك وتعالى ، فأخبره بمؤامرة قريش ، وأن الله قد أذن له فى الخروج وحدد له وقت الهجرة قائلا : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه(١)

وذهب النبي صلى الله عليه وسلم فى الهاجرة إلى أبى بكـــر رضى الله عنه ليبرم معه مراحل الهجرة ، قالت عائشة رضى الله عنها : بينما نحن جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل لأبى بكر هذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — متقنعا ، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر .

قالت : فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : أخرج من عندك . فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ، بأبى أنت يا رسول الله . قال : فإنى قد أذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يا رسول الله ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعـــم (٢) .

وبعد إبرام خطة الهجرة رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته ينتظر مجىء الليل .

تطويق منزل الرسول صلى الله عليه وسلم :

أما أكابر مجرمى قريش فقضوا نهارهم فى الإعداد لتنفيذ الخطة المرسومة التى أبرمها برلمان مكة « دار الندوة » صباحا ، واختير لذلك أحد عشر رئيسا من هؤلاء الأكابر ، وهم :—

(١) أبو جهل بن هشام .
(٢) الحكم بن أبى العاص .

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٨٢ ، زاد المعاد ٢ / ٥٢
(٢) صحيح البخارى ، باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ١ / ٥٥٣

(٣) عقبة بن أبى معيط .

(٤) النضر بن الحارث .

(٥) أمية بن خلف .

(٦) زمعة بن الأسود .

(٧) طعيمة بن عدى .

(٨) أبو لهب .

(٩) أبى بن خلف .

(١٠) نبيه بن الحجاج .

(١١) أخوه منبه بن الحجاج [١] .

قال ابن إسحاق : فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نام ، فيثبون عليه [٢] .

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنية ، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء ، وقال مخاطبا لأصحابه المطوقين فى سخرية واستهزاء : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها [٣] .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل ، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر ، ولكن الله غالب على أمره ، بيده ملكوت السماوات والأرض ، يفعل ما يشاء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، فقد فعل ما خاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد : «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين» (٨ : ٣٠) .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٢

(٢) ابن هشام ١ / ٤٨٢

(٣) نفس المصدر ١ / ٤٨٣

الرسول صلى الله عليه وسلم يغادر بيته :

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم قد فشلوا فشلا فاحشا . ففى هـذه الساعة الحرجة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : نم على فراشى ، وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شئ تكرهه منهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام(1)

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واخترق صفوفهم ، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذره على رءوسهم ، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه ، وهو يتلو : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون » (٣٦ : ٩) فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ومضى إلى بيت أبى بكر ، فخرجا من خوخة فى دار أبى بكر ليلا حتى لحقا بغار ثور فى اتجاه اليمن (2) .

وبقى المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر ، وقبيل حلولها تجلت لهم الخيبة والفشل ، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم ، ورآهـم ببابه فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا محمدا . قال : خبتم وخسرتم ، قـد والله مر بكم ، وذر على رءوسكم التراب ، وانطلق لحاجته ، قالوا والله ما أبصرناه ، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم .

ولكنهم تطلعوا من صير الباب فرأوا عليا ، فقالوا والله إن هذا لمحمد نائما ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . وقام على عن الفراش ، فسقط فى أيديهم ، وسألوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا علم لى به (3) .

من الـدار إلى الغـار :

غادر رسول الله صلى الله عليـه وسلم بيته فى ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة

---

(١) نفس المصدر ١ / ٤٨٢ ، ٤٨٣

(٢) نفس المصدر ١ / ٤٨٣ ، زاد المعاد ٢ / ٥٢

(٣) نفس المصدرين السابقين

١٤ من النبوة الموافق ١٢ / ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م [١] . وأتى إلى دار رفيقه – وأمن الناس عليه في صحبته وماله – أبي بكر رضي الله عنه . ثم غادرا منزل الأخير من باب خلفي ، ليخرجا من مكة على عجل ، وقبل أن يطلع الفجر .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن قريشا ستجد في الطلب ، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالا ، فقد سلك الطريق الذي يضاده تماما ، وهو الطريق الواقع جنوب مكة ، والمتجه نحو اليمن سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور ، وهذا جبل شامخ ، وعر الطريق ، صعب المرتقى ، ذا أحجـــار كثيرة ، فحفيت قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه كي يخفي أثره فحفيت قدماه ، وأيا ما كان فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل ، وطفق يشتد به حتى انتهى به إلى غار في قمة الجبل عرف في التاريخ بغار ثـــور [٢] .

إذهما في الغــــار :

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : والله لا تدخله حتى أدخل قبلك ، فإن كان فيه شيء أصابني دونك ، فدخل فكسحه ، ووجد في جانبه ثقبا فشق إزاره وسدها به ، وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه ، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادخل فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضع رأسه في حجره ونام ، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما لك يا أبا بكر؟

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ٩٥ – ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشر من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر محرم ، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذي أكرم الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشر قطعا . وعامة من يكتب في السيرة ربما يختار هذا ، وربما يختار ذاك ، فكثيرا ما يتخبط في ترتيب الوقائع ، ويقع في أغلاط - ونظرا إلى ذلك اخترنا بداية السنين من شهر محرم .

(٢) رحمة للعالمين ١ / ٩٥ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٦٧

قال : لدغت ، فداك أبى وأمى ، فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب ما يجـــده [1] .

وكنا فى الغار ثلاث ليال ، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد [2] . وكان عبد الله بن أبى بكر يبيت عندهما . قالت عائشة : وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام . و(كان) يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان فى رسل ــ وهو لبن منحتهما ورضيفهما ــ حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث [3] . وكان عامر ابن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبى بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفى عليه [4] .

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله صلى الله عليه وسلم صباح ليلة تنفيذ المؤامرة . فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليا وسحبوه إلى الكعبة وحبسوه ساعة ، علهم يظفرون بخبرهما [5] .

ولما لم يحصلوا من على على جدوى جاءوا إلى بيت أبى بكر ، وقرعوا بابه ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر ، فقالوا لها : أين أبوك ؟ قالت : لا أدرى والله أين أبى ؟ فرفع أبو جهل يده ــ وكان فاحشا خبيثا ــ فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها [6] .

---

(١) رواه رزين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفيه ثم انتقض عليه (أى رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته . أنظر مشكاة المصابيح ، باب مناقب أبى بكر ٢ / ٥٥٦ .

(٢) أنظر فتح البارى ٧ / ٣٣٦ .

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٥٣ ، ٥٥٤

(٤) ابن هشام ١ / ٤٨٦

(٥) رحمة للعالمين ١ / ٩٦

(٦) ابن هشام ١ / ٤٨٧

وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين ، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (في جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة . كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين ، كائنا من كان[1]

وحينئذ جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب ، وانتشروا في الجبال والوديان ، والوهاد والهضاب ، لكن من دون جدوى وبغير عائدة .

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار ، ولكن الله غالب على أمره ؛ روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت : يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا . قال : اسكت يا أبا بكر ، اثنان ، الله ثالثهما ، وفي لفظ : ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما [2] .

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة .

في الطريق إلى المدينة :

وحين خمدت نار الطلب ، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش ، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى تهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه للخروج إلى المدينة .

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي ، وكان هاديا خريتا — ماهرا

---

(١) انظر صحيح البخاري ١ / ٥٥٤

(٢) صحيح البخاري ١ / ٥١٦ ، ٥٥٨ ، ولم يكن فزع أبي بكر مخافة على نفسه ، بل سببه الوحيد هو ما روى أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن قتلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة ، فعندها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتحزن إن الله معنا » انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٦٨

بالطريق — وكان على دين كفار قريش ، وأمناه على ذلك ، وسلما إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما ، فلما كانت ليلة الاثنين — غـرة ربيع الأول سنة ١هـ / ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢م — جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين وحينئذ قال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم : بأبى أنت يا رسول الله خذ إحدى راحلتى هاتين ، وقرب إليه أفضلهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن .

وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاما ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها عصام ، فشقت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحد ، وانتطقت بالآخر فسميت ذات النطاقين (١) .

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه ، وارتحل معهما عامر بن فهيرة ، وأخذ بهم الدليل — عبد الله بن أريقط — على طريق السواحل

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن فى اتجاه الجنوب نحـو اليمن ، ثم اتجه غربا نحو الساحل ، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر وسلك طريقا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرا.

وقد ذكر ابن إسحاق المواضع التى مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الطريق . قال : لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديدا ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخرار ، ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفا ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح ، ثم سلك بهما مرجح محاج ، ثم تبطن بهما مرجح ذى الغضوين ، ثم بطن ذى كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما ذا سلم ، من بطن أعداء مدلجة تعهن ، ثم على

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٥٣ T ٥٥٥ وابن هشام ١ / ٤٨٦

العبابيد ، ثم أجاز بهما الفاجة ، ثم هبط بهما العرج ، ثم سلك بهما ثنية العائر — عن يمين ركوبة — حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما على قباء [1] . وهاك بعض ما وقع في الطريق :

(١) روى البخارى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق ، لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس ، فنزلنا عنده ، وسويت للنبي صلى الله عليه وسلم مكانا بيدى ، ينام عليه ، وبسطت عليه فروة ، وقلت : نم يا رسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام ، وخرجت أنفض ما حوله ، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة ، يريد منها مثل الذى أردنا ، فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من أهل المدينة أو مكة . قلت : أفي غنمك لبن ؟ قال : نعم . قلت : أفتحلب ؟ قال : نعم . فأخذ شاة ، فقلت : انفض الضرع من التراب والشعر والقذى فحلب في كعب كثبة من لبن ، ومعى إداوة حملتها للنبي صلى الله عليه وسلم ، يرتوى منها ، يشرب ويتوضأ ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فكرهت أن أوقظه ، فوافقته حين استيقظ ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله ، فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت ، ثم قال : ألم يأن الرحيل ؟ قلت : بلى ، قال : فارتحلنا [2] .

(٢) كان من دأب أبى بكر رضى الله عنه أنه كان ردفا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان شيخا يعرف ، ونبى الله صلى الله عليه وسلم شاب لا يعرف ، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : من هذا الرجل الذى بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهدينى الطريق ، فيحسب الحاسب أنه يعنى به الطريق ، وإنما يعنى سبيل الخير [3]

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٩١ ، ٤٩٢

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥١٠

(٣) روى ذلك البخارى عن أنس ١ / ٥٥٦

(٣) وتبعهما في الطريق سراقة بن مالك . قال سراقة : بينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ، ونحن جلوس ، فقال : يا سراقة ، إني رأيت آنفا أسودة بالساحل ، أراها محمدا وأصحابه قال سراقة : فعرفت أنهم هم . فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا ، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي ، وهي من وراء أكمة ، فتحبسها علي ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت ، فخططت بزجه الأرض ، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسي ، فركبتها ، فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم ، فعثرت بي فرسي فخررت عنها ، فقمت ، فأهويت يدي إلى كنانتي ، فاستخرجت منها الأزلام ، فاستقسمت بها ، أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي وعصيت الأزلام ، تقرب بي ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات — ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسي حتى جئتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ، ولم يسألاني إلا أن قال : أخف عنا ، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة ، فكتب لي في رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] .

وفي رواية عن أبي بكر قال : ارتحلنا ، والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا

---

(١) نفس المصدر ١ / ٥٥٤ — وكان مقر بني مدلج بالقرب من رابغ ، وتبعهما سراقة حينما كانا مصعدين من قديد — زاد المعاد ٢ / ٥٣ — فالأغلب أنه تبعهما في اليوم الثالث من رحيلهما

يا رسول الله ، فقال : « لا تحزن إن الله معنا » [1] .

ورجع سراقة ، فوجد الناس فى الطلب ، فجعل يقول : قد استبرأت لكم الخبر ، قد كفيتم ما ههنا . وكان أول النهار جاهدا عليهما ، وآخره حارسا لهما [2]

(٤) ومر فى مسيره ذلك حتى مر بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء الخيمة ، ثم تطعم وتسقى من مر بها ، فسألاها : هل عندها شئ ؟ فقالت : والله لو كان عندنا شئ ما أعوزكم القرى والشاء عازب ، وكانت سنة شهباء .

فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة فى كسر الخيمة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك .فقال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبى وأمى إن رأيت بها حلبا فاحلبها . فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا ، فتفاجت عليه ودرت ، فدعا بإناء لها يربض الرهط ، فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها ، فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانيا ، حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها فارتحلوا .

فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزلا ، فلما رأى اللبن عجب ، فقال : من أين لك هذا ؟ والشاة عازب ، ولا حلوبة فى البيت؟ فقالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، ومن حاله كذا وكذا ، قال : إنى والله أراه صاحب قريش الذى تطلبه ، صفيه لى يا أم معبد، فوصفته بصفاته الرائعة بكلام رائع كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه ــ وسننقله فى بيان صفاته صلى الله عليه وسلم فى أواخر المقالة ــ فقال أبو معبد : والله هذا صاحب قريش الذى ذكروا من أمره ما ذكروا ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥١٦

(٢) زاد المعاد ٢ / ٥٣

وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأصبح صوت بمكة عاليا يسمعونه ولا يرون القائل :

جزى الله رب العرش خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
همـا نزلا بالبر وارتحلا بـه ... وأفلح من أمسى رفيق محمـد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا يجاذى وسؤدد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصـد
سلو أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

قالت أسماء : ما درينا أين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات ، والناس يتبعونه ويسمعون صوتـه ولا يرونه حتى خرج من أعلاها . قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن وجهه إلى المدينة [1] .

(٥) وفي الطريق لقي النبي صلى الله عليه وسلم أبا بريدة . وكان رئيس قومه ، خرج في طلب النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رجاء أن يفوز بالمكافأة الكبيرة التي كان قد أعلن عنها قريش ، ولما واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه أسلم مكانه مع سبعين رجلا من قومه ، ثم نزع عمامته ، وعقدها برمحه ، فاتخذها راية تعلن بأن ملك الأمن والسلام قد جاء ليملأ الدنيا عدلا وقسطا [2] .

(٦) وفي الطريق لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير ، وهو في ركب المسلمين ، كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثيابا بيضاء [3] .

النزول بقبـاء :

وفي يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة — وهي السنة الأولى من

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٣ ، ٥٤
(٢) رحمة للعالمين ١ / ١٠١
(٣) روى ذلك البخاري عن عروة بن الزبير ١ / ٥٥٤.

الهجرة — الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء[1]

قال عروة بن الزبير : سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة . فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر بوسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته يا معاشر العرب ، هذا جدكم الذى تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح [2] .

قال ابن القيم : وسمعت الوجبة والتكبير فى بنى عمرو بن عوف ، وكبر المسلمون فرحا بقدومه ، وخرجوا للقائه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، فأحدقوا به مطيفين حوله ، والسكينة تغشاه ، والوحى نزل عليه : « فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير » (٦٦ : ٤) [3] .

قال عروة بن الزبير : فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول . فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيي — وفى نسخة : يجيء — أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك [4] .

---

(١) رحمة للعالمين ١ / ١٠٢ — وفى هذا اليوم تم عمره صلى الله عليه وسلم ثلاثة وخمسين عاما كاملا لا وكس ولا شطط ، وتم على نبوته ثلاثة عشر عاما كاملا عند من يقول : إنه أكرم بالنبوة فى ٩ ربيع الأول سنة ٤١ من عام الفيل ، وأما من يقول : إنه أكرم بالنبوة فى رمضان سنة ٤١ من عام الفيل فعنده يتم على نبوته — فى ذلك اليوم — اثنا عشر عاما وخمسة أشهر و١٨ يوماً أو ٢٢ يوما .

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥٥٥

(٣) زاد المعاد ٢ / ٥٤

(٤) صحيح البخارى ١ / ٥٥٥

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال ، وكان يوما مشهودا لم تشهد المدينة مثله في تاريخها ، وقد رأى اليهود صدق بشارة حبقوق النبي : إن الله جاء من التيمان ، والقدوس من جبال فاران [1] .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء على كلثوم بن الهدم ، وقيل : بل على سعد بن خيثمة ، والأول أثبت ، ومكث على بن أبي طالب بمكة ثلاثا حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس ، ثم هاجر ماشيا على قدميه حتى لحقهما بقباء ، ونزل على كلثوم بن الهدم [2] .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبـــاء أربعة أيام : الاثنين والثلاثـــاء والأربعاء والخميس [3] . وأسس مسجد قباء وصلى فيه ، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، فلما كان اليوم الخامس — يوم الجمعة — ركب بأمر الله له ، وأبو بكر ردفه ، وأرسل إلى بني النجار — أخواله — فجاءوا متقلدين سيوفهم ، فسار نحو المدينة ، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف ، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي ، وكانوا مائة رجل [4] .

الدخول في المدينـــة :

وبعد الجمعة دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة — ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعبر عنها بالمدينة مختصرا — وكان

---

(١) صحيفة حبقوق (٣ : ٣)
(٢) زاد المعاد ٢ / ٥٤ . ابن هشام ١ / ٤٩٣ ، رحمة العالمين ١ / ١٠٢
(٣) هذا ما رواه ابن إسحاق ، انظر ابن هشام ١ / ٤٩٤ وهو الذي اختاره العلامة المنصور فوري انظر رحمة العالمين ١ / ١٠٢ ، وفي صحيح البخاري أنه أقام بقباء أربعا وعشرين ليلة (١ / ٦١) وبضع عشرة ليلة (١ / ٥٥٥) وأربع عشرة ليلة (١ / ٥٦٠) وهذا الأخير هو الذي اختاره ابن القيم ، وقد صرح هو نفسه أن نزوله بقباء كان يوم الاثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٢ / ٥٤ ، ٥٥) ومعلوم أن فصل ما بينهما لايزيد على عشرة أيام سوى يومي الدخول والخروج ، ومعهما لا يزيد على اثني عشر يوما إذا كانا من أسبوعين .
(٤) صحيح البخاري ١ / ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٢ / ٥٥ ، ابن هشام ١ / ٤٩٤ ، رحمة العالمين ١ / ١٠٢

يوما تاريخيا أغر ، فقد كانت البيوت والسكك ترتج بأصوات التحميد والتقديس ، وكانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الأبيات فرحا وسرورا [1] :

أشرق البــدر علينــا من ثنيــات الوداع
وجب الشكر علينــا مــا دعــا لله داع
أيها المبعوث فينــا جئت بالأمر المطــاع

والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول صلى الله عليه وسلم عليه. فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته : هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة ، فكان يقول لهم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم فبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليــلا ، ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول ، فنزل عنها ، وذلك فى بنى النجار — أخواله — صلى الله عليه وسلم . وكان من توفيق الله لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النزول عليهم ، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المرء مع رحله ، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته ، وكانت عنده [2] .

وفى رواية أنس عند البخارى ، قال نبى الله صلى الله عايه وسلم : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يا رسول الله ، هذه دارى ، وهذا بابى . قال : فانطلق فهيء لنا مقيلا ، قال : قوما على بركة الله [3] .

---

(١) ذكر ابن القيم أن إنشاد هذه الأشعار كان عند مرجعه صلى الله عليه وسلم من تبوك ، ووهم من يقول : إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ٣ / ١٠) لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهيم بدليل يشفى ، وقد رجح العلامة المنصور فورى أن ذلك كان عند مقدمه المدينة ، ومعه دلائل لا يمكن ردها انظر رحمة للعالمين ١ / ١٠٦

(٢) رحمة للعالمين ١ / ١٠٦ ، زاد المعاد ٢ / ٥٥

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٥٦

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة ، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم ، وأسامة بن زيد ، وأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر ومنهم عائشة ، وبقيت زينب عند أبى العاص ، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر[1] .

قالت عائشة : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما فقلت : يا أبه كيف تجدك ، ويا بلال كيف تجدك؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبّح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   بواد وحولى إذخر وجليل
وهل أردنْ يوما مياه مجنة   وهل يَبْدُوَنْ لى شامة وطفيل

قالت عائشة : فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حبا ، وصححها ، وبارك فى صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة [2] .

إلى هنا انتهى قسم من حياته صلى الله عليه وسلم ، وتم دور من الدعوة الإسلامية ، وهو الدور المكى .



(١) زاد المعاد ٢ / ٥٥

(٢) صحيح البخارى ١ / ٥٨٨ ، ٥٨٩

الحيــــاة في المدينـة

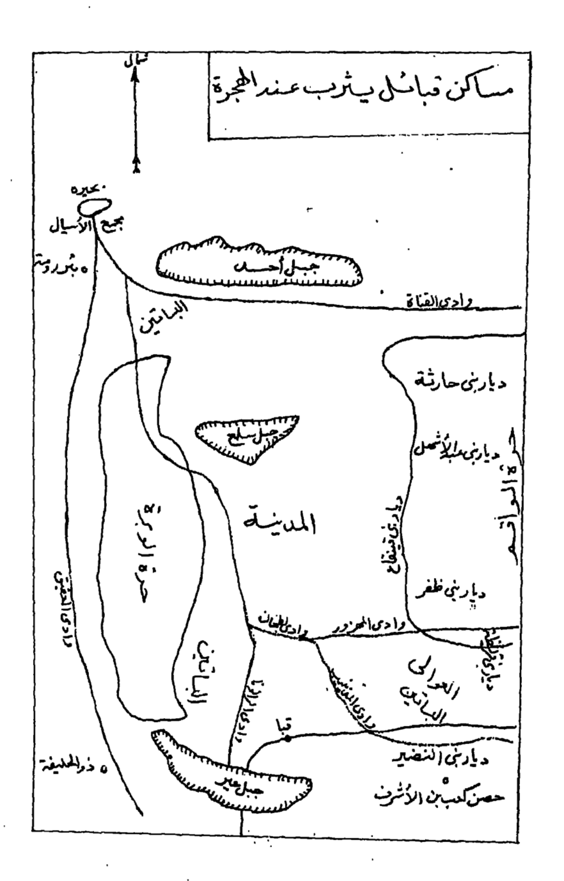
يمكن تقسيم العهد المدني إلى ثلاث مراحل :

١ ــ مرحلة أثيرت فيها القلاقل والفتن ، وأقيمت فيها العراقيل مــن الداخل وزحف فيها الأعداء إلى المدينة لاستئصال خضرائها من الخارج . وهذه المرحلة تنتهي إلى صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ من الهجرة .

٢ ــ مرحلة الهدنة مع الزعامة الوثنية ، وتنتهي بفتح مكة ، في رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وهي مرحلة دعوة الملوك إلى الإسلام .

٣ ــ مرحلة دخول الناس في دين الله أفواجاً ، وهي مرحلة توافد القبائل والأقوام إلى المدينة ، وهذه المرحلة تمتد إلى انتهاء حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة .




مساكن قبائل يثرب عند الهجرة
شمال
بحيرة
مجمع الأسيال
بئر رومة
جبل أحد
وادي القناة
البطحان
ديار بني حارثة
جبل سلع
ديار بني عبد الأشهل
حرة واقم
المدينة
ديار بني قينقاع
حرة الوبرة
وادي العقيق
ديار بني ظفر
وادي بطحان
وادي مهزور
العوالي
البساتين
وادي رانوناء
وادي بطحان
قبا
ديار بني النضير
ذو الحليفة
جبل عير
حصن كعب بن الأشرف

المرحلة الأولى

الحالة الراهنة في المدينة عند الهجرة

لم يكن معنى الهجرة هو التخلص من الفتنة والاستهزاء فحسب ، بل كانت الهجرة مع هذا تعاونا على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن . ولذلك أصبح فرضا على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفعة شأنه .

ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع ، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع .

والأقوام التي كان يواجهها رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة كانت على ثلاثة أصناف يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافا واضحا ، وكان يواجه بالنسبة إلى كل صنف منها مسائل عديدة غير المسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى الأخرى . وهذه الأصناف الثلاثة هي :

(١) أصحابه الصفوة الكرام البررة رضي الله عنهم .

(٢) المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .

(٣) اليهود .

أ ــ والمسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه هــو أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماما عن الظروف التي مروا بها في مكة ، فهم في مكة وإن كانت تجمعهم كلمة جامعة ، وكانوا يستهدفون إلى أهداف متفقة ، إلا أنهم كانوا متفرقين في بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ؛ لم يكن لهم من الأمر شيء ، وإنما كان الأمر بيد أعدائهم في الدين ، فلم يكن هؤلاء المسلمون يستطيعون أن يقيموا مجتمعا إسلاميا جديدا بمواده التي لا يستغنى عنها أي مجتمع إنساني في العالم ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادئ الإسلامية ، وعلى التشريعات

التي يمكن العمل بها لكل فرد وحده ، وعلى الحث على البر والخير ومكارم الأخلاق والاجتناب عن الرذائل والدنايا .

أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم ، ولم يكن عليهم سيطرة أحد من الناس ، فقد آن لهم أن يواجهوا بمسائل الحضارة والعمران ، وبمسائل المعيشة والاقتصاد ، وبمسائل السياسة والحكومة ، وبمسائل السلم والحرب ، وبالتنقيح الكامل في مسائل الحلال والحرام والعبادة والأخلاق وما إلى ذلك من مسائل الحياة .

كان قد آن لهم أن يكونوا مجتمعا جديداً ، مجتمعا إسلاميا ، يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، ويمتاز عن أي مجتمع يوجد في العالم الإنساني ، ويكون ممثلا للدعوة الإسلامية التي عاني لها المسلمون ألوانا من النكال والعذاب طيلة عشر سنوات .

ولا يخفى أن تكوين أي مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يستتب في يوم واحد أو شهر واحد ، أو سنة واحدة ، بل لابد له من زمن طويل يتكامل فيه التشريع والتقنين مع التثقيف والتدريب والتربية تدريجيا ، وكان الله كفيلا بهذا التشريع ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما بتنفيذه ، والإرشاد إليه ، وتربية المسلمين وفقه « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٦٢ : ٢) .

وكان الصحابة رضي الله عنهم مقبلين عليه بقلوبهم ، يتحلون بأحكامه ويستبشرون بها « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » (٨ : ٢) وليس تفصيل هذه المسائل كلها من مباحث موضوعنا فنقتصر منها على قدر الحاجة .

كان هذا أعظم ما يواجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى المسلمين، وهذا الذي كان هو المقصود — على نطاق واسع — من الدعوة الإسلامية ، والرسالة المحمدية ، ولكن لم يكن هذا قضية طارئة . نعم كانت هناك مسائل — دون ذلك — كانت تقتضي الاستعجال .

كانت جماعة المسلمين مشتملة على قسمين : قسم هم في أرضهم وديارهم وأموالهم ،لا يهمهم من ذلك إلا ما يهم الرجل وهو آمن في سربه ، وهم الأنصار ، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد . وكان بجانب هؤلاء قسم آخر — وهم المهاجرون — فاتهم كل ذلك ، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ، ليس لهم ملجأ يأوون إليه، ولا عمل يعملونه لمعيشتهم، ولا مال يبلغون به قواما من العيش ، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل ، وكانوا يزيدون يوما فيوما ، . فقد كان أوذن بالهجرة لكل من آمن بالله ورسوله . ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة ، فتزعزع ميزانها الاقتصادى ، وفي هذه الساعة الحرجة قامت القوات المعادية للإسلام بشبه مقاطعة اقتصادية قلت لأجلها المستوردات وتفاقمت الظروف .

ب — أما القوم الثاني — وهم المشركون من صميم قبائل المدينة — فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين ،وكان منهم من يتخالجه الشكوك ويتردد في ترك دين الآباء ، ولكن لم يكن يبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ، ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم لله .

وكان فيهم من يبطن شديد الإحن والعداوة ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ولكن لم يكن يستطيع أن يناوئهم ، بل كان مضطرا إلى إظهار الودّ والصفاء نظرا إلى الظروف . وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي ،فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب بعاث،ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله — وكانوا قد نظموا له الخرز ،ليتوجوه ويملكوه ، وكان على وشك أن يصير ملكا على أهل المدينة إذ باغت مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم،وانصراف قومه عنه إليه ، فكان يرى أنه استلبه ملكا ، فكان يبطن شديد العداوة ضده — ولما رأى الظروف لا تساعده على شركه ، وأنه يحرم الفوائد الدنيوية أظهر الإسلام بعد بدر ، ولكن بقي مستبطنا الكفر ، وكان لا يجد مجالا للمكيدة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين إلا ويأتي بها — وكان أصحابه — من الرؤساء الذين خرموا المناصب

المرجوة فى ملكه — يساهمونه ويدعمونه فى تنفيذ خططه ، وربما كانوا يتخذون بعض الأحداث ، وضعاف العقول من المسلمين عملاء لهم ؛ لتنفيذ خططهم .

ج — أما القوم الثالث — وهم اليهود — فقد كانوا انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشورى والرومانى كما أسلفنا ، وكانوا فى الحقيقة عبرانيين ، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز صبغوا بالصبغة العربية فى الزى واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماء قبائلهم أو أفرادهم عربية ، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر ، إلا أنهم تحفظوا بعصبيتهم الجنسية ، ولم يندمجوا فى العرب قطعا ، بل كانوا يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية — اليهودية — وكانوا يحتقرون العرب احتقارا بالغا حتى كانوا يسمونهم أميين بمعنى أنهم وحوش سذج ، وأراذل متأخرون ، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم ، يأكلونها كيف شاءوا ، « قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل » (٣ : ٧٥) ولم يكن لهم تحمس فى نشر دينهم وإنما جل بضاعتهم الدينية هى : الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها ، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقادة روحانية .

وكانوا مهرة فى فنون الكسب والمعيشة ، فكانت فى أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب ، كانوا يوردون الثياب والحبوب والخمر ، ويصدرون التمر ، وكانت لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافا مضاعفة ، ثم لم يكونوا يقتصرون على ذلك ، بل كانوا أكالين للربا ، كانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم ، ليكتسب هؤلاء الرؤساء مدائح من الشعراء ، وسمعة بين الناس بعد إنفاقها من غير جدوى ولا طائلة ، ثم كانوا يرتهنون أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم وحوائطهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواما حتى يتملكونها .

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفى لم تكن تشعره

تلك القبائل ، فلا تزال في حروب دامية متواصلة ، ولا تزال أنامل اليهود تؤجج نيرانها كلما رأتها تقارب الخمود والانطفاء،وبعد هذا التحريض والإغراء كانوا يقعدون على جانب ، يرون ساكتين ما يحل بهؤلاء العرب ، نعم كانوا يزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة . وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين ، كانوا يتحفظون علـى كيانهم اليهودى ، وينفقون سوق الربا ؛ليأكلوه أضعافا مضاعفة ، ويكسبوا ثروات طائلة .

وكانت فى يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة :

(١) بنو قينقاع ، كانوا حلفاء الخزرج ، وكانت ديارهم داخل المدينة .

(٢) بنو النضير .

(٣) بنو قريظة ، وهاتان القبيلتان كانتا حلفاء الأوس ، وكانت ديارهما بضواحى المدينة .

وهذه القبائل هى التى كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد وقد ساهمت بأنفسها فى حرب بعاث ، كل مع حلفائها .

وطبعا فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد ، فالرسول لم يكن مـن جنسهم حتى ليسكن جأش عصبيتهم الجنسية التى كانت متغلبة على نفسياتهم وعقليتهم ، ثم دعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب ، وتطفئ نار العداوة والبغضاء ، وتدعو إلى التزام الأمانة فى الشئون ، وإلى التقيـد بأكل الحلال من طيب الأموال ، ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستتألف فيما بينها ، وحينئذ لا بد من أن تفلت من براثن اليهود، فيفشل نشاطهم التجارى ، ويحرموا أموال الربا الذى كانت تدور عليه رحى ثروتهم بل ربما يحتمل أن تتيقظ تلك القبائل ، فتدخل فى حسابها الأموال الربوية التى أخذها اليهود ، فتقوم بإرجاع أرضها وحوائطها التى أضاعتها إلى اليهود فى تأدية الربا .

كان اليهود يدخلون كل ذلك فى حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول

باستقرار في يثرب ، ولذلك كانوا يبطنون أشد العداوة ضد الإسلام ، وضد رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها للمسلمين .

ويظهر ذلك جليا بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها . قال ابن إسحاق : حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت : كنت أحب ولد أبي إليه ، وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه قالت : فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي ؛ حيي بن أخطب ، وعمي أبو ياسر بن أخطب ، مغلسين ، قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت : فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلي واحد منهما ، مع ما بهما من الغم . قالت : وسمعت عمي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي ، حيي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت [1] .

ويشهد بذلك أيضا ما رواه البخاري في إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، فقد كان حبرا من فطاحل علماء اليهود ، ولما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في بني النجار جاءه مستعجلا ، وألقى إليه أسئلة لايعلمها إلانبي ، فلما سمع ردوده صلى الله عليه وسلم عليها آمن به ساعته ومكانه ، ثم قال له : إن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله بن سلام البيت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا (وفي لفظ :) سيدنا وابن سيدنا ، (وفي لفظ آخر :) خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا ، فقال رسول الله صلى الله

(1) ابن هشام ۱ / ٥١٨ ، ٥١٩

عليه وسلم : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك (مرتين أو ثلاثا)
فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. فقالوا :
شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه . (وفى لفظ) فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله ،
فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق. فقالوا :
كذبت (١) .

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود ، فى أول
يوم دخل فيه المدينة .

هذا كله من حيث الداخلية ، وأما من حيث الخارجية فإن ألد قوة ضد
الإسلام هى قريش ، كانت قد جربت منذ عشرة أعوام – حينما كان المسلمون
تحت يديها – كل أساليب الإرهاب، والتهديد والمضايقة وسياسة التجويع والمقاطعة ،
وأذاقتهم التنكيلات والويلات ، وشنت عليهم حربا نفسية مضنية مع دعاية واسعة
منظمة ، ثم لما هاجر المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم ،
وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم ، بل حبست وعذبت من قدرت عليه ،
ثم لم تقتصر على هذا بل تآمرت على الفتك بصاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم والقضاء
عليه، وعلى دعوته ،ولم تأل جهدا فى تنفيذ هذه المؤامرة . وبعد هذا كله – لما نجا
المسلمون إلى أرض تبعد عنها خمسمائة كيلومترا – قامت بدورها السياسى لما لها من
الصدارة الدنيوية والزعامة الدينية بين أوساط العرب بصفتها ساكنة الحرم ومجاورة
بيت الله وسدنته ، فأغرت غيرها من مشركى الجزيرة ضد أهل المدينـة ، حتى
صارت المدينة فى شبه مقاطعة شديدة قلت مستورداتها فى حين كان عدد اللاجئين
يزيد يوما فيوما ، إن « حالة الحرب » قائمة يقينا بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة
وبين المسلمين فى وطنهم الجديد ، ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الخصام (٢) .

كان حقا للمسلمين أن يصادروا أموال هؤلاء الطغاة كما صودرت أموالهم ،

---

(١) انظر صحيح البخارى ١ / ٤٥٩ ، ٥٥٦ ، ٥٦١
(٢) الكلمة الأخيرة لمحمد الغزالى فى فقه السيرة ص ١٦٢

وأن يدالوا عليهم من التنكيلات بمثل ما أدالوا بها ، وأن يقيموا فى سبيل حياتهم العراقيل كما أقاموها فى سبيل حياة المسلمين ، وأن يكال لهؤلاء الطغاة صاعا بصاع حتى لا يجدوا سبيلا لإبادة المسلمين ، واستئصال خضرائهم .

هذه هى القضايا والمشاكل التى كان يواجهها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ورد المدينة بصفته رسولا هاديا وإماما قائدا .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدور الرسالة والقيادة فى المدينة ، وأدلى إلى كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة أو الشدة والنكال — ولاشك أن الرحمة كانت غالبة على الشدة والعنت — حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله فى بضع سنوات ، وسيجد القارئ كل ذلك جايا فى الصفحات الآتية :



بنـــاء مجتمع جديـــد

قد أسلفنا أن نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى بنى النجار كان يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢ م)، وأنه نزل فى أرض أمام دار أبى أيوب ، وقال : ههنا المنزل إن شاء الله ، ثم انتقل إلى بيت أبى أيوب .

بنـــاء المسجـــد النبوى :

وأول خطوة خطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك هو إقامة المسجد النبوى . ففى المكان الذى بركت فيه ناقته أمر ببناء هذا المسجـــد ، واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه ، وساهم فى بنائه بنفسه ، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة فى البناء حتى إن أحدهم ليقول :

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منـــا العمل المضلل

وكانت فى ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقد ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخل والشجرة فقطعت ، وصفت فى قبلة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضادتاه من حجارة ، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين ، وجعل سقفه من جريـــد النخل ، وعمده الجذوع ، وفرشت أرضه من الرمـــال والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب ، وطوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريبا من ثلاثة أذرع .

وبنى بيوتا إلى جانبه ، بيوت الحجر باللبن وسقفها بالجريد والجذوع ، وهى حجرات أزواجه صلى الله عليه وسلم ،وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبى أيوب (١) .

ولم يكن المسجد موضعا لأداء الصلوات فحسب ، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ومنتدى تلتقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها ، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات ، وبرلمانا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية .

وكان مع هذا كله دارا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون .

وفى أوائل الهجرة شرع الأذان ، النغمة العلوية التى تدوى فى الآفاق ، كل يوم خمس مرات ، والتى ترتج لها أنحاء عالم الوجود . وقصة رؤيا عبد الله بن زيد ابن عبد ربه بهذا الصدد معروفة . رواها الترمذى وأبو داود وأحمد وابن خزيمة (٢)

المؤاخاة بين المسلمين :

وكما قام النبى صلى الله عليه وسلم (ببناء المسجد) مركز التجمع والتآلف قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين الأنصار ،قال ابن القيم : ثم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، فى دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلا ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام ، إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » (٨ : ٧٥) رد التوارث ، دون عقد الأخوة .

وقد قيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية . . . والثبت

(١) صحيح البخارى ١ / ٧١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، زاد المعاد ٢ / ٥٦

(٢) انظر بلوغ المرام لابن حجر العسقلانى ص ١٥

الأول ، والمهاجرين كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار (١) أ هـ .

ومعنى هذا الإخاء — كما قال محمد الغزالى — أن تذوب عصبيات الجاهلية فلا حمية إلا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقدا نافذاً لا لفظا فارغا وعملا يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج فى هذه الأخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال (٢) .

فقد روى البخارى أنهم لما قدموا المدينـــة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع ، فقال لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا ، فاقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، وأين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدو ، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مهيم ؟ قال : تزوجت . قال : كم سقت إليها ؟ قال : نواة من ذهب (٣) .

وروى عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار للنبى صلى الله عليه وسلم : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : فتكفونا المؤنة ونشرككم فى الثمرة قالوا سمعنا وأطعنا (٤) .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٦

(٢) فقه السيرة ص ١٤٠ ، ١٤١

(٣) صحيح البخارى . باب إخاء النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ١ / ٥٣٢

(٤) صحيح البخارى — باب إذا قال : اكفنى مؤنة النخل الخ ١ / ٣١٢

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين ، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم .

وحقا فقد كانت هـــذه المؤاخاة حكمة فذة ، وسياسة صائبة حكيمة ، وحلا رائعا لكثير من المشاكل التى كان يواجهها المسلمون ، والتى أشرنا إليها .

ميثاق التحالف الإسلامي :

وكما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقد المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها كل ماكان من حزازات الجاهلية ، والنزعات القبلية ، ولم يترك مجالا لتقاليد الجاهلية ، وهاك بنودها ملخصا :

هذا كتاب من محمد النبي — صلى الله عليه وسلم — بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم :

(١) أنهم أمة واحدة من دون الناس .

(٢) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفـــدون عانيهم بالمعـــروف والقسط بين المؤمنين ، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهـــم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٣) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

(٤) وأن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين .

(٥) وأن أيديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم .

(٦) ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر .

(٧) ولا ينصر كافرا على مؤمن .

(٨) وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

(٩) وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهـــم .

(١٠) وأن سلم المؤمنين واحدة ـ لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

(١١) وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .

(١٢) وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

(١٣) وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولى المقتول .

(١٤) وأن المؤمنين عليه كافة ولايحل لهم إلا قيام عليه .

(١٥) وأنه لايحل لمؤمن أن ينصر محدثا ولايؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولايؤخذ منه صرف ولاعدل .

(١٦) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم [١] .

أثر المعنويات في المجتمع :

بهذه الحكمة ، وبهذه الحذاقة أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم قواعد مجتمع جديد ، ولكن كانت هذه الظاهرة أثرا للمعانى التى كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعهدهم بالتعليم والتربية وتزكية النفوس والحث على مكـــارم الأخلاق ، ويؤدبهم بآداب الود والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة .

سأله رجل : أىّ الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف [٢] .

قال عبد الله بن سلام : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جئت فلما

---

(١) ابن هشام ١ / ٥٠٢ ، ٥٠٣

(٢) صحيح البخارى ١ / ٦ ، ٩

تبينت وجهه ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال : يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام (1) .

وكان يقول : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه (2) .

ويقول : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . (3)

ويقول : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (4) .

ويقول : المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله (5) .

ويقول : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (6) .

ويقول : لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام (7) .

ويقول : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (8) .

ويقول : ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء (9) .

ويقول : ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جانبه (10) .

ويقول : سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر (11) .

---

(1) رواه الترمذى وابن ماجة والدارمى . مشكاة المصابيح ١ / ١٦٨ .
(٢) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٢
(٣ - ٤) صحيح البخارى ١ / ٦
(٥) رواه مسلم ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٢
(٦) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٢ ، صحيح البخارى ٢ / ٨٩٠
(٧) صحيح البخارى ٢ / ٨٩٦
(٨) متفق عليه مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٢
(٩) سنن أبى داود ٢ / ٣٣٥ ، جامع الترمذى ٢ / ١٤
(١٠) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٤
(١١) صحيح البخارى ٢ / ٨٩٣

وكان يجعل : إماطة الأذى عن الطريق صدقـــة ، ويعدها شعبة من شعب الإيمـــان (١) .

وكان يحثهم على الإنفاق ، ويذكر من فضائله ما تتقاذف إليه القلوب ، فكان يقول : الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار (٢) .

ويقول : أيما مسلم كسا مسلما ثوبا على عرى ، كساه الله من خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقا مسلما على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم (٣) .

ويقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة (٤) .

وبجانب هذا كان يحث حثا شديـــدا على الاستعفاف عن المسألة ، ويذكر فضائل الصبر والقناعة ، كان يعد المسألة كدوحا أو خدوشا أو خموشا فى وجه السائل (٥) . اللهم إلا إذا كان مضطرا ، كما كان يحدث لهم بما فى العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله ،وكان يربطهم بالوحى النازل عليه من السماء ربطا موثقا يقرؤه عليهم ، ويقرؤونه، لتكون هذه الدراسة إشعارا بما عليهم مـــن حقوق الدعوة ، وتبعات الرسالة ، فضلا عن ضرورة الفهم والتدبر .

وهكذا رفع معنوياتهم ومواهبهم ، وزودهم بأعلى القيم والأقدار والمثل ، حتى صاروا صورة لأعلى قمة من الكمال عرفت فى تاريخ البشر بعد الأنبياء .

يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه

---

(١) والحديث فى ذلك مروى فى الصحيحين ، انظر مشكاة المصابيح ١/ ١٢ ، ١٦٧

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة ، مشكاة المصابيح ١ / ١٤

(٣) سنن أبى داود ، وجامع الترمذى ، مشكاة المصابيح ١ / ١٦٩

(٤) صحيح البخارى ١ / ١٩٠ ، ٢ / ٨٩٠

(٥) انظر فى ذلك أبا داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارمى ، مشكاة المصابيح ١ / ١٦٣ .

ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم [1] .

ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة ومن الكمالات والمواهب والأمجـاد والفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال بما جعلته تهوى إليه الأفئدة ،وتتفانى عليـه النفوس ، فما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته — رضى الله عنهم — إلى امتثالها ، وما يأتى برشد وتوجيه إلا ويتسابقون إلى التحلى به .

بمثل هذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يبنى فى المدينة مجتمعا جديدا أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلا تتنفس له الإنسانية الصعداء ، بعد أن كانت تعبت فى غياهب الزمان ودياجير الظلمات .

وبمثل هذه المعنويات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد الذى واجه كل تيارات الزمان حتى صرف وجهتها ، وحول مجرى التاريخ والأيام .

(١) رواه رزين ، مشكاة المصابيح ١ / ٣٢

معاهدة مع اليهود

بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع الإسلامي الجديد ، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين ، رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين ، وكان همه فى ذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء ، مع تنظيم المنطقة فى وفاق واحد ، فسن فى ذلك قوانين السماح والتجاوز التى لم تعهد فى عالم ملئ بالتعصب والتغالى .

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود — كما أسلفنا — وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين ، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد ، فعقد معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية فى الدين والمال ، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام .

وجاءت هذه المعاهدة ضمن المعاهدة التى تمت بين المسلمين أنفسهم ، والتى مر ذكرها قريبا . وهاك أهم بنود هذه المعاهدة :

بنود المعاهدة :

(١) إن يهود بنى عوف أمــة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، كذلك لغير بنى عوف من اليهود .

(٢) وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

(٣) وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

(٤) وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

(٥) وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه .

(٦) وإن النصر للمظلوم .

(٧) وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

(٨) وإن يثرب حرام جوفها لأجل هذه الصحيفة .

(٩) وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١٠) وإنه لاتجار قريش ولا من نصرها .

(١١) وإن بينهم النصر على من دهم يثرب . . . على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

(١٢) وإنه لايحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم [١] .

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية ، عاصمتها المدينة ورئيسها — إن صح هذا التعبير — رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين ، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام .

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي صلى الله عليه وسلم قبائل أخرى فى المستقبل بمثل هذه المعاهدة ، حسب الظروف ، وسيأتى ذكرها .

---

(١) أنظر ابن هشام ١ / ٥٠٣ ، ٥٠٤

استفزازات قريش ضد المسلمين بعد الهجرة واتصالهم بعبد الله بن أبى :

قد أسلفنا ماكان يأتى به كفار مكة من التنكيلات و الويلات ضد المسلمين ، وما فعلوا بهم عند الهجرة مما استحقوا لأجلها المصادرة والقتال ، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيهم ، ويمتنعوا عن عدوانهم ، بل زادهم غيظا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنا ومقرا بالمدينة ، فكتبوا إلى عبــد الله بن أبى بن سلول ، وكان إذ ذاك مشركا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة – فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه . وكادوا يجعلونه ملكا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به – كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم فى كلمات باتة :

إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنــه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم [1] .

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبى ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة – وقد كان يحقد على النبى صلى الله عليه وسلم ، لما يراه أنه استلبه ملكه يقول عبد الرحمن بن كعب : فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، فلما بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم لقيهم ، فقال : لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ، فلما سمعوا ذلك من النبى صلى الله عليه وسلم تفرقوا [2] .

امتنع عبد الله بن أبى بن سلول عن إرادة القتال عند ذاك ؛ لما رأى خورا أو رشدا فى أصحابه ، ولكن يبدو أنه كان متواطئا مع قريش ، فكان لايجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين ، وكان يضم معه اليهود ؛ ليعينوه

---

(١) أبو داود باب خبر النضير

(٢) نفس المصدر

على ذلك ، ولكن تلك هي حكمة النبي صلى الله عليه وسلم التي كانت تطفئ نار شرهم حينا بعد حين (1) .

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام :

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرا فنزل على أمية بن خلف بمكة ، فقال لأمية : انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريبا من لقف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، من هذا معك ؟ فقال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما ، فقال له سعد ورفع صوته عليه أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على أهل المدينة (2) .

قريش تهـــدد المهاجـــرين :

ثم إن قريشا أرسلت إلى المسلمين تقول لهم : لايغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب ، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم (3) .

ولم يكن هذا كله وعيدا مجردا فقد تأكد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكائد قريش وإرادتها على الشر ماكان لأجله لايبيت إلا ساهرا ، أو في حرس من الصحابة فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ليلة فقال : ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة ، قالت فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح ، فقال : من هذا ؟ قال : سعد بن أبي وقاص ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جاء بك ؟ فقال : وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(1) انظر في هذا الصدد صحيح البخاري ٢ / ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٩١٦ ، ٩٢٤

(2) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ٢ / ٥٦٣

(3) رحمة للعالمين ١ / ١١٦

فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نام [١] .

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالى بل كان ذلك أمرا مستمرا ، فقد روى عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس ليلا حتى نزل « والله يعصمك من الناس » فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة ، فقال : يأيها الناس انصرفوا عنى فقد عصمنى الله عز وجل [٢] .

ولم يكن الخطر مقتصرا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بل على المسلمين كافة ، فقد روى أبى بن كعب ، قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه .

الإذن بالقتال :

فى هذه الظروف الخطيرة التى كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة ، والتى كانت تنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ولا يمتنعون عن تمردهم بحال أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ، ولم يفرضه عليهم قال تعالى: « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » (٢٢ : ٣٩) .

وأنزل هذه الآية ضمن آيات أرشدتهم إلى أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل ، وإقامة شعائر الله ، قال تعالى : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » (٢٢ : ٤١) .

والصحيح الذى لامندوحة عنه أن هذا الإذن إنما نزل بالمدينة بعد الهجرة ، لا بمكة ، ولكن لا يمكن لنا القطع بتحديد ميعاد النزول .

نزل الإذن بالقتال ولكن كان من الحكمة إزاء هذه الظروف — التى مبعثها

---

(١) مسلم باب فضل سعد بن أبى وقاص ٢ / ٢٨٠ واللفظ له ، وصحيح البخارى — باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله ١ / ٤٠٤

(٢) جامع الترمذى أبواب التفسير ٢ / ١٣٠

الوحيد هو قوة قريش وتمردهـا – أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريـق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام ، واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم لبسط هذه السيطرة خطتين :

الأولى : عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق ، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة ، وقـد أسلفنا معاهدته – صلى الله عليه وسلم – مع اليهود وكذلك كان عقد معاهدة الحلف أو عدم الاعتداء مع جهينة قبل الأخذ فى النشاط العسكرى ، وكانت مساكنهم على ثلاثة مراحل من المدينة ، وقد عقد معاهدات أثناء دورياته العسكرية وسيأتى ذكرها .

الثانية : إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق .

الغزوات والسرايا قبل بدر [1] :

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ فى المسلمين النشاط العسكرى فعلا بعد نزول الإذن بالقتال ، وقاموا بحركات عسكرية هي أشبه بالدوريات الاستطلاعية ، وكان المطلوب منها هو الذى أشرنا إليه من الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة ، والمسالك المؤدية إلى مكة ، وعقد المعاهدات مع القبائل التى مساكنها على هذه الطرق ، وإشعار مشركى يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، وإنذار قريش عقبى طيشها حتى تفيق عن غيها الذى لاتزال تتوغل فى أعماقه ، وعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معايشها فتجنح إلى السلم ، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين فى عقر دارهم ، وعن الصد عن سبيل الله ، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين فى مكة ؛ حتى يصير المسلمون أحرارا فى إبلاغ رسالة الله فى ربوع الجزيرة .

وفيما يلى أحوال هذه السرايا بالإيجاز :

(١) سرية سيف البحـر ، فى رمضان سنة ١ هـ . الموافق مارس سنة ٦٢٣ م .

---

(١) سمى المؤرخون ماخرج فيه النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة ، حارب فيها أم لم يحارب وماخرج فيه أحد قادته سرية .

أمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب ، وبعثه في ثلاثين رجلا من المهاجرين يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل ابن هشام في ثلاثمائة رجل ، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص [1] . فالتقوا واصطفوا للقتال ، فمشى مجدى بن عمرو الجهني — وكان حليفا للفريقين جميعا — بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم فلم يقتتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبيض وكان حامله أبا مرثد كناز بن حصين الغنوى .

(٢) سرية رابـغ ، فى شوال سنة ١ من الهجرة — أبريل سنة ٦٢٣م بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبيدة بن الحارث بن المطلب فى ستين راكبا مـن المهاجرين فلقى أبا سفيان — وهو فى مائتين — على بطن رابغ ، وقد ترامى الفريقان بالنبل ، ولم يقع قتال .

وفى هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد بن عمرو البهرانى ، وعتبة بن غزوان المازنى ، وكانا مسلمين ، خرجـا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين . وكان لواء عبيدة أبيض ، وحامله مسطح ابن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف .

(٣) سرية الخـرار [2] ، فى ذى القعـدة سنة ١هـ الموافق مايو سنة ٦٢٣ م بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبى وقاص فى عشرين راكبا يعترضون عيرا لقريش ، وعهد إليه أن لايجاوز الخرار ، فخرجـوا مشاة يكمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس .

كان لواء سعد رضى الله عنه أبيض ، وحمله المقداد بن عمرو .

٤ — غزوة الأبواء أو ودان [3] — فى صفر سنة ٢هـ الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م ، خرج

---

(١) العيص — بالكسر — مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر .

(٢) الخرار — بالفتح فالتشديد — موضع بالقرب من الجحفة .

(٣) ودان — بالفتح فالتشديد — موضع بين مكة والمدينة ، بينه وبين رابغ مما يلى المدينة تسعة وعشرون ميلا ، والأبواء موضع بالقرب من ودان .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة فى سبعين رجلا من المهاجرين خاصة يعترض عيرا لقريش حتى بلغ ودان ، فلم يلق كيــدا .

وفى هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمرى ، وكان سيد بنى ضمرة فى زمانه ، وهاك نص المعاهدة :

هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة . فإنهم آمنون على أموالهــم وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ، مابل بحر صوفة . وأن النبى إذا دعاهم لنصره أجابوه [1] .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة ، وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب .

٥ ــ غزوة بواط ، فى شهر ربيع الأول سنة ٢هـ سبتمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مائتين من أصحابه يعترض عيرا لقريش فيها أمية ابن خلف الجمحى ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعــير ، فبلغ بواطا من ناحية رضوى [2] ولم يلق كيدا .

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سغد بن معاذ ، واللواء كان أبيض ، وحامله سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .

٦ ــ غزوة سفوان ، فى شهر ربيع الأول سنة ٢هـ سبتمبر سنة ٦٢٣م أغار كرز ابن جابر الفهرى فى قوات خفيفــة من المشركين على مراعى المدينة ، ونهب بعض المواشى ، فخرج رسول الله صلى الله عايه وسلم فى سبعين رجــلا من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كرزا

---

(١) انظر المواهب اللدنية ١ / ٧٥ وشرحه للزرقانى .

(٢) بواط (بالضم) ورضوى ، جبلان فرعان أصلهما واحد من جبال جهينة مما يلى طريق الشام بينه وبين المدينة نحو أربعة برد .

وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى .

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله على بن أبى طالب .

٧ — غـــزوة ذى العشيرة — فى جمادى الأولى ، وجمادى الآخرة سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣م . خـــرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خمسين ومائة ويقال : فى مائتين ، من المهاجرين ، ولم يكره أحدا على الخروج ، وخرجوا على ثلاثين بعيرا يعتقبونها ، يعترضون عيرا لقريش ، ذاهبة إلى الشام ، وقـــد جاء الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش ، فبلغ ذا العشيرة (١) ، فوجد العير قد فاتته بأيام ، وهذه هى العير التى خرج فى طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سببا لغزوة بدر الكبرى .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم فى أواخر جمادى الأولى ، ورجوعه فى أوائل جمادى الآخرة على ما قاله ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير فى تعيين شهر هذه الغزوة .

وفى هذه الغزوة عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة عدم اعتداء مع بنى مدلج وحلفائهم من بنى ضمرة .

واستخلف على المدينة فى هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وكان اللواء فى هذه الغزوة أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

٨ — سرية نخلة — فى رجب سنة ٢هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤م بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش الأسدى إلى نخلة فى اثنى عشر رجلا من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه . فسار عبد الله ، ثم قرأ الكتاب بعد يومين فإذا فيه :

---

(١) العشيرة — مصغرا ، ويقال : العشيراء بالمد ، وقيل : العسيرة ، بالمهلة — موضع بناحية ينبع

« إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها عير قريش ، وتعلم لنا من أخبارهم » فقال : سمعا وطاعة ، وأخبر أصحابه بذلك وأنه لايستكرههم ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم ، غير أنه لما كان فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه فتخلفا فى طلبه .

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة ، وفيها عمرو بن الحضرمى وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة . فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب ، الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اجتمعوا على اللقاء فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت نوفل ، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة ، وقد عزلوا من ذلك الخمس ، وهو أول خمس كان فى الإسلام وأول قتيل فى الإسلام ، وأول أسيرين فى الإسلام .

وأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلوه ، وقال : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، ووقف التصرف فى العير والأسيرين .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ، وكثر فى ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحى حاسما هذه الأقاويل ، وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون . .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل » (٢ : ٢١٧)

فقد صرح هذا الوحى بأن الضجة التى افتعلها المشركون لإثارة الريبة فى سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها . فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها فى محاربة

الإسلام ، واضطهاد أهله ، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم ؟ فما الذى أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟ لا جرم أن الدعاية التى أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتنى على وقاحة ودعارة .

وبعد ذلك أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سراح الأسيرين، وأدى دية المقتول إلى أوليائه (١) .

* * *

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر ، لم يجر فى واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال إلا بعد ما ارتكبه المشركون فى قيادة كرز بن جابر الفهرى ، فالبداية إنما هى من المشركين مع ما كانوا قد أتوه قبل ذلك من الأفاعيل .

وبعد وقوع ما وقع فى سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين ، وتجسد أمامهم الخطر الحقيقى ، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه ، وعلموا أن المدينة فى غاية من التيقظ والتربص ، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريبا ، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم ، ويأخذوا أموالهم ، ويرجعوا سالمين غانمين ، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم ، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة — كما فعلت جهينة وبنو ضمرة — ازدادوا حقدا وغيظا ، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل من إبادة المسلمين فى عقر دارهم ، وهذا هو الطيش الذى جاء بهم إلى بدر .

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش

---

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٢ / ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، وابن هشام ١ / ٥٩١ إلى ٦٠٥ ، ورحمة للعالمين ١ / ١١٥ ، ١١٦ ، ٢ / ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ وفى المصادر اختلاف فى ترتيب هذه الغزوات والسرايا ، وفى تعيين عدد الخارجين فيها — واعتمدنا فى ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم والعلامة المنصور فورى .

فى شهر شعبان سنة ٢هـ وأنزل فى ذلك آيات بينات « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (٢ : ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣)

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر يعلمهم فيها طريقة القتال ، ويحثهم عليه ، ويبين لهم بعض أحكامه « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منًّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . ذلك ، ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ، يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » (٤٧ : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧)[1] .

ثم ذم الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال : « فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » الآية (٤٧ : ٢٠)

وإيجاب القتال والحض عليه ، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال ، ولو كان هناك قائد يسبر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ ، فكيف بالرب العليم المتعال ، فالظروف كانت تقتضى عراكا داميا بين الحق والباطل ، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم آلمتهم وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر .

---

(١) حقق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى تحقيقا مدللا أن سورة محمد نزلت قبل بدر ، راجع تفهيم القرآن ٥ / ١٢ ، ١٢ .

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العــراك الدامى ، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائيا ، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخــراج المشركين من حيث أخرجوهم ، وكيف يعلمهم أحــكام الجند المتغلب فى الأسارى ، والإثخان فى الأرض حتى تضع الحرب أوزارها ، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائيا . ولكن ترك كل ذلك مستورا حتى يأتى كل رجل بما فيه من التحمس فى سبيل الله .

وفى هذه الأيام — فى شعبان سنة ٢هـ / فبراير ٦٢٤م — أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين مــن اليهود الذين كانوا قد دخلوا فى صفوف المسلمين ،لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين ورجعوا إلى ماكانوا عليه ، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهــل الغدر والخيانــة .

وفى تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لاينتهى إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة ، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم ، وإن كانت بأيديهم فلابد من تخليصها يوما ما .

وبعد هذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين واشتدت نــزعاتهم إلى الجهاد فى سبيل الله ولقاء العدو فى معركة فاصلة .



غــزوة بــدر الكبرى
أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة :

قد أسلفنا في ذكر غزوة العشيرة أن عيرا لقريش أفلتت من النبي صلى الله عليه وسلم في ذهابها من مكة إلى الشام ، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ليقوما باكتشاف خبرها ، فوصلا إلى الحوراء ، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير ، فأسرعا إلى المدينة ، وأخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخبر .

كانت العير مركبة من ثــروات طائلة من أهل مكــة ، ألف بعير موقرة بالأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي ، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلا .

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة ، وضربة عسكرية وسياسية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة ، لذلك أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين قائلا : هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليهــا لعل الله ينفلكموها .

ولم يعزم على أحد بالخروج ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة — بدل العير — هذا الاصطدام العنيف في بدر ، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة ، وهم يحسبون أن مضي رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا الماضية ، ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة .

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات :

واستعد رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج ومعــه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا (٣١٣، أو ٣١٤ ، ٣١٧ رجلا) ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و٦١ من

الأوس و ١٧٠ من الخزرج : ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالا بليغا ،ولا اتخذوا أهبتهم كاملة ، فلم يكن معهم إلا فرسان ، فرس للزبير بن العوام ، وفرس للمقداد ابن الأسود الكندى ، وكان معهم سبعون بعيرا ليعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ومرثد بن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا واحدا .

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم ، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة بن عبد المنذر ، واستعمله على المدينة .

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشى العبدرى ، وكان هذا اللواء أبيض .

وقسم جيشه إلى كتيبتين :

(١) كتيبة المهاجرين ، وأعطى علمها على بن أبى طالب .

(٢) كتيبة الأنصار ، وأعطى علمها سعد بن معاذ .

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام ، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو — وكانا هما الفارسين الوحيدين فى الجيش كما أسلفنا — وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة ، وظلت القيادة العامة فى يده صلى الله عليه وسلم كقائد أعلى للجيش.

الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر :

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الجيش غير المتأهب ، فخرج من نقب المدينة ، ومضى على الطريق الرئيسى المؤدى إلى مكة ، حتى بلغ بئر الروحاء ولما ارتحل منها ترك طريق مكة بيسار ، وانحرف ذات اليمين على النازية (يريد بدرا) فسلك فى ناحية منها حتى جزع واديا يقال له رحقان بين النازية وبين مضيق الصفراء ، ثم مر على المضيق ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء ، وهنالك بعث بسبس بن عمر الجهنى وعدى بن أبى الزغباء الجهنى إلى بدر يتجسسان له أخبار العير.

النذير فى مكة :

وأما خبر العير فإن أبا سفيان — وهو المسئول عنها — كان على غاية من الحيطة

والحذر فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار ، وكان يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان . ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمدا — صلى الله عليه وسلم — قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير ، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمضم ابن عمرو الغفارى إلى مكة مستصرخا لقريش بالنفير إلى عيرهم ، ليمنعوه من محمد — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه ، وخرج ضمضم سريعا حتى أتى مكة ، فصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، وقد جدع أنفه ، وحول رحله ، وشق قميصه وهو يقول : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث.

أهل مكة يتجهزون للغزو :

فتحفز الناس سراعا وقالوا : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى؟ كلّا والله ليعلمن غير ذلك ، فكانوا بين رجلين إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلا ، وأوعبوا فى الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب ، فإنه عوض عنه رجلا كان له عليه دين ، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى ، فلم يخرج منهم أحد .

قوام الجيش المكى :

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل فى بداية سيره ، وكان معه مائة فرس وستمائة درع ، وجمال كثيرة لايعرف عددها بالضبط ، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام ، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش ، فكانوا ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا من الإبل .

مشكلة قبائل بنى بكر :

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ذكرت قريش ما كان بينها وبين بنى بكر من العداوة والحرب ، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف فيكونوا بين نارين فكاد ذلك يثنيهم ، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن

جعشم المدلجي — سيد بني كنانة — فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه .

جيش مكة يتحرك :

وحينئذ خرجوا من ديارهم ، كما قال الله : « بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله » ، وأقبلوا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — بحدهم وحديدهم يحادون الله ويحادون رسوله « وغدوا على حرد قادرين » وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لاجتراء هؤلاء على قوافلهم .

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في تجاه بدر ، وسلكوا في طريقهم وادي عسفان ، ثم قديد ، ثم الجحفة ، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها : إنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقـد نجاها الله فارجعـوا .

العير تفلت :

وكان من قصـة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي ، ولكنه لم يزل حذرا متيقظا ، وضاعف حركاته الاستكشافية ، ولما اقترب من بدر تقدم عيره حتى لقي مجدي بن عمرو وسأله عن جيش المدينة ، فقال : ما رأيت أحداً أنكره إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شن لهما ، ثم انطلقا ، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيرهما ، ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، فرجع إلى عيره سريعا ، وضرب وجهها محولا اتجاهها نحو الساحل غربا ، تاركا الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة ، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التي تلقاها في الجحفة .

هم الجيش المكي بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه :

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع ، ولكن قام طاغية قـريش

أبو جهل في كبرياء وغطرسة قائلا : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم بها ثلاثا فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف لنا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

ولكن على رغم أبي جهل أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه ، فرجع هو وبنو زهرة - وكان حليفا لهم ورئيسا عليهم في هذا النفير - فلم يشهد بدراً زهرى واحد ، وكانوا حوالى ثلاثمائة رجل ، واغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس بن شريق ، فلم يزل فيهم مطاعا معظما .

وأرادت بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل ، وقال : لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بني زهرة - وهو يقصد بدرا - فواصل سيره حتى نزل قريبا من بدر ، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادى بدر .

حراجة موقف الجيش الإسلامى :

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو لايزال في الطريق بوادى ذفران - خبر العير والنفير ، وتأكد لديه بعد التدبر فى تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للاجتناب عن لقاء دام ، وأنه لابد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة ، والجراءة ، والجسارة ، فمما لاشك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيما لمكانة قريش العسكرية ، وامتدادا لسلطانها السياسى ، وإضعافا لكلمة المسلمين وتوهينا لها ، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسدا لا روح فيه ، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة .

وبعد هذا كله فهل يكون هناك أحد يضمن للمسلمين أن يمنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة ، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها ، ويغزو المسلمين في عقر دارهم

كلا فلو حدث من جيش المدينة نكول ما لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم .

المجلس الاستشارى :

ونظرا إلى هذا التطور الخطير المفاجئ عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا عسكريا استشاريا أعلى ، أشار فيه إلى الوضع الراهن ، وتبادل فيه الرأى مع عامة جيشه ، وقادته . وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس ، وخافوا اللقاء الدامى ، وهم الذين قال الله فيهم « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » وأما قادة الجيش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر ابن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له به .

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، وهم أقلية فى الجيش ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرف رأى قادة الأنصار ، لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش ، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم ، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم ، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة : « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وفطن ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ ، فقال :

والله ، لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال : أجل .

قال : « فقد آمنا بك ، فصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله »

وفى رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها أن لا تنصرك إلا فى ديارهم ، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فأظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذتَ منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

الجيش الإسلامى يواصل سيره :

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذفران فسلك على ثنايا يقال لها الأصافر ، ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدبة ، وترك الحنان بيمين — وهو كثيب عظيم كالجبل — ثم نزل قريبا من بدر .

الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم بعملية الاستكشاف :

وهناك قام بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه فى الغار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه — سأل عن

الجيشين زيادة فى التكتم — ولكن الشيخ قال: لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرتنا أخبرناك ، قال : أو ذاك بذلك ؟ قال : نعم .

قال الشيخ : فإنه بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا — للمكان الذى به جيش المدينة — وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا — للمكان الذى به جيش مكة .

ولما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن من ماء ، ثم انصرف عنه ، وبقى الشيخ يتفوه ، ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكى :

وفى مساء ذلك اليوم بعث استخباراته من جديد ليبحث عن أخبار العدو ، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين ؛ على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه ، ذهبوا إلى ماء بدر فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة ، فألقوا عليهما القبض وجاءوا بهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو فى الصلاة ، فاستخبرهما القوم ، فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم ورجوا أن يكونا لأبى سفيان — لاتزال فى نفوسهم بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة — فضربوهما موجعا حتى اضطر الغلامان أن يقولا : نحن لأبى سفيان فتركوهما .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة قال لهم كالعاتب : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله ، إنهما لقريش .

ثم خاطب الغلامين قائلا : أخبرانى عن قريش ، قالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندرى ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوما تسعا

ويوما عشرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي ، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف في رجال سمياهم .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

نزول المطر :

وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرا واحدا ، فكان على المشركين وابلا شديدا منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلا طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، وصلب به الرمل ، وثبت الأقدام ، ومهد به المنزل ، وربط به على قلوبهم .

الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية :

وتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر ، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه ، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر ، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكري وقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكم الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ،

قال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم — قريش — فننزله ونغوّر — أي نخرب — ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أشرت بالرأي .

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش حتى أتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه شطر الليل ، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من القلب .

مقر القيـــادة :

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبني المسلمون مقرا لقيادته استعداداً للطوارئ وتقديرا للهزيمة قبل النصر ، حيث قال :

« يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير ، وبنى المسلمون عريشا على تل مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميـــدان القتال ، ويشرف على ساحة المعركة .

كما تم انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم حول مقر قيادته .

تعبئة الجيش وقضاء الليل :

ثم عبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه [1] ومشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله [2] ثم بات رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي إلى جذع شجرة هنالك . وبات المسلمون ليلهم هادئ الأنفاس منير الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم ، وأخـــذوا من الراحة

---

(١) انظر جامع الترمذي أبواب الجهاد ، باب ماجاء في الصف والتعبئة ١ / ٢٠١

(٢) رواه مسلم عن أنس ، انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٣

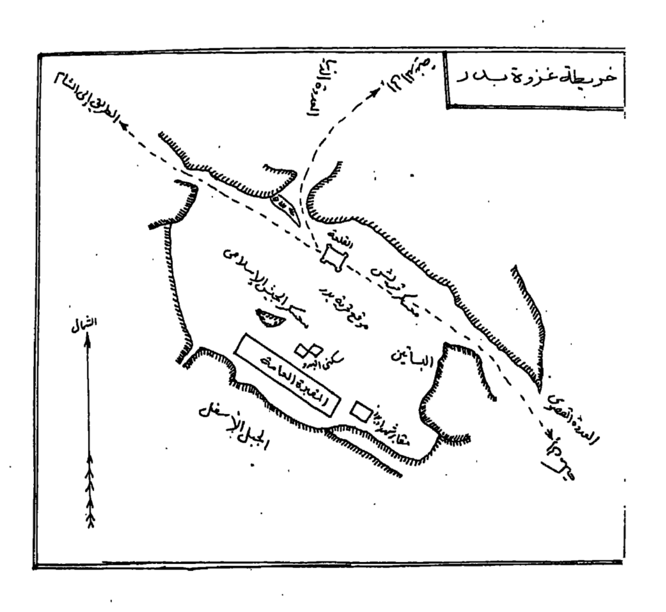
قسطهم ، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحا « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » (٨ : ١١) .

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة ، السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، وكان خروجه فى ٨ أو ١٢ من نفس الشهر .

الجيش المكي في عرصة القتال ووقوع الانشقاق فيه :

أما قريش فقضت ليلتها هذه فى معسكرها بالعدوة القصوى ، ولما أصبحت أقبلت فى كتائبها ، ونزلت من الكثيب إلى وادى بدر . وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دعوهم ، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل ، سوى حكيم بن حزام ، فإنه لم يقتل ؛ وأسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال : لا والذى نجانى من يوم بدر ، فلما اطمأنت قريش بعثت عمير بن وهب الجمحى للتعرف على مدى قوة جيش المدينة ، فدار عمير بفرسه حول العسكر ، ثم رجع إليهم فقال : ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد ؟ فضرب فى الوادى حتى أبعد ، فلم ير شيئا ، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئا ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم فإذا أصابوا منكم أعدادكم فما خير العيش بعد ذلك . فرو رأيكم .

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبى جهل — المصمم على المعركة — تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال ، فقد مشى حكيم بن حزام فى الناس ، وأتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش ، وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى — المقتول فى سرية نخلة — فقال عتبة : قد فعلت أنت ضامن على بذلك . إنما هو حليفى فعلى عقله (دينه) وما أصيب من ماله.



خريطة غزوة بدر
الطريق إلى الشام
القلعة
معسكر قريش
موقع قرية بدر
معسكر الجيش الإسلامي
الشمال
سكنى البدو
البساتين
المقبرة العامة
مقابر الشهداء
الجبل الأسفل
العدوة القصوى

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام : فأت ابن الحنظلية – أبا جهل ، والحنظلية أمه – فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لايزال ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابـــوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبى جهل – وهو يهيئ درعا له – قال يا أبا الحكم إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا ، فقال أبـــو جهل : انتفخ والله سحره حين رأى محمدا وأصحابه كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمـــد وما بعتبة ما قال ولكنه رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه – وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديما وهاجر – فتخوفكم عليه .

ولما بلغ عتبة قول أبى جهل : « انتفخ والله سحره » قال عتبة سيعلم مصفرًا ستة من انتفخ سحره ، أنا أم هو ؟ وتعجل أبو جهل مخافة أن تقوى هذه المعارضة فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمى – أخى عمرو بن الحضرمى المقتول فى سرية عبد الله بن جحش – فقال : هذا حليفك (أى عتبة) يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فأنشد خفرتك ، ومقتل أخيك ، فقام عامر فكشف عن استه ، وصرخ : واعمراه ، واعمراه ، فحمى القوم وحقب أمرهم واستوثقوا على ما هم عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة . وهكذا تغلب الطيش على الحكمة وذهبت هذه المعارضة دون جدوى .

الجيشـــان يتراآن :

ولما طلع المشركون وتراآى الجمعان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى

عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر – إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا .

وعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوف المسلمين ، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب ، فقد كان فى يده قدح يعدل به ، وكان سواد بن غزية مستنصلا من الصف ، فطعن فى بطنه بالقدح وقال : استو يا سواد، فقال سواد : يا رسول الله أوجعتنى فأقدنى ، فكشف عن بطنه وقال : استقد ، فاعتنقه سواد وقبل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله قد حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير .

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بأن لا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة ، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص فى أمر الحرب فقال : إذا أكثبوكم – يعنى كثروكم – فارموهم واستبقوا نبلكم [1] . ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم [2] ، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة ، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش .

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل فى ذلك اليوم فقال : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرفه فأحنه الغداة ، اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم ، وفى ذلك أنزل الله « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » (٨ : ١٩)

ساعة الصفر وأول وقود المعركة :

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومى – وكان رجلا شرسا

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٦٨

(٢) سنن أبى داود باب فى سل السيوف عند اللقاء ٢ / ١٣

سيىء الخلق – خرج قائلا : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دما نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن تبر يمينه ، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض .

المبـــارزة :

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة ، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة ، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار ، عوف ومعوذ ابنا الحارث – وأمهما عفراء – وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : أكفاء كرام . ما لنا بكم حاجة ، وإنما نريد بنى عمنا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا على فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ فأخبروهم ، فقالوا : أنتم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة – وكان أسن القوم – عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد [1] ، فأما حمزة وعلى فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما ، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان ، فأثخن كل واحد منهما صاحبه ، ثم كر على وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة ، وقد قطعت رجله ، فلم يزل صمتا حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر حينما كان المسلمون فى طريقهم إلى المدينة

وكان على يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » الآية .

---

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق ، وفى رواية أحمد وأبى داود أن عبيدة بارز الوليد ، وعلى بارز شيبة ، وحمزة بارز عتبة . مشكاة المصابيح ٢ / ٣٤٣

الهجوم العام :

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين ، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة ، فاستشاطوا غضبا ، وكروا على المسلمين كرة رجل واحد .

وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم واستغاثوه وأخلصوا له وتضرعوا إليه تلقوا هجمات المشركين المتوالية ، وهم مرابطون فى مواقعهم ، واقفون موقف الدفاع ، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة ، وهم يقولون : أحد أحد .

الرسول صلى الله عليه وسلم يناشد ربه :

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، حتى إذا حمى الوطيس ، واستدارت رحى الحرب بشدة واحتدم القتال وبلغت المعركة قمتها قال : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا . وبالغ فى الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فرده عليه الصديق ، وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك .

وأوحى الله إلى ملائكته« أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب» ،وأوحى إلى رسوله« أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين» — أى أنهم ردف لكم ، أو يردف بعضهم بعضا أرسالا ، لا يأتون دفعة واحدة .

نزول الملائكة :

وأغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة واحدة ، ثم رفع رأسه فقال : أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع (أى الغبار) رواية محمد بن اسحاق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثناياه النقع .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب العريش وهو يثب فى الدرع ويقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » (٥٤ : ٤٥) ثم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريشا وقال : شاهت الوجوه ، ورمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه من تلك القبضة ، وفى ذلك أنزل الله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » (٨ : ١٧)

الهجوم المضاد :

وحينئذ أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال : شدوا ، وحرضهم على القتال ، قائلا : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، وقال وهو يحضهم على القتال : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، (وحينئذ) قال عمير بن الحمام : بخ . بخ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على قولك : بخ . بخ ؟ قال : لا ، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة ، ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل [1] .

وكذلك سأله عوف بن الحارث – ابن عفراء فقال : يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ! قال غمسه يده فى العدو حاسرا ، فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وحين أصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت ، وفتر حماسه ، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير فى تعزيز موقف المسلمين ، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم – وقد كان نشاطهم الحربى على شبابه – قاموا بهجوم كاسح مرير ، فجعلوا يقلبون الصفوف

---

(١) رواه مسلم ٢ / ١٣٩ ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٣١

ويقطعون الأعناق ، وزادهم نشاطا وحدة أن رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب فى الدرع ويقول فى جزم وصراحة « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فقاتل المسلمون أشد القتال ، ونصرتهم الملائكة ، ففى رواية ابن سعد عن عكرمة قال : كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه ، وتندر يد الرجل لايدرى من ضربها ، وقال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فنظر إلى المشرك أمامه ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة [1] . وقال أبو داود المازنى : إنى لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى فعرفت أنه قد قتله غيرى ، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرا فقال العباس : إن هذا والله ما أسرنى ، لقد أسرنى رجل أجلح من أحسن الناس وجها على فرس أبلق ، وما أراه فى القوم ، فقال الأنصارى : أنا أسرته يا رسول الله ، فقال : اسكت فقد أيدك الله بملك كريم .

إبليس ينسحب عن ميدان القتال :

ولما رأى إبليس — وكان قد جاء فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى كما ذكرنا ، ولم يكن فارقهم منذ ذلك الوقت — فلما رأى مايفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه ، وتشبث به الحارث بن هشام — وهو يظنه سراقة — فوكز فى صدر الحارث فألقاه ، ثم خرج هاربا ، وقال له المشركون : إلى أين يا سراقة ؟ ألم تكن قلت : إنك جارلنا ، لا تفارقنا ؟ فقال : إنى أرى ما لاترون ، إنى أخاف الله والله شديد العقاب ، ثم فر حتى ألقى نفسه فى البحر .

الهزيمة الساحقة :

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب فى صفوف المشركين ، وجعلت تتهدم

---

(١) روى مثل ذلك مسلم ٢ / ٩٣ وغيره .

أمام حملات المسلمين العنيفة ، واقتربت المعركـــة من نهايتها ، وأخذت جموع المشركين فى الفرار والانسحاب المبـــدد ، وركب المسلمون ظهورهـــم يأسرون ويقتلون حتى تمت عليهم الهزيمة .

صمود أبى جهل :

أما الطاغية الأكبر أبو جهل ، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب فى صفوفه حاول أن يصمد فى وجه هذا السيل ، فجعل يشجع جيشه ، ويقول لهم فى شراسة ومكابرة : لا يهزمنكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه كان على ميعـــاد من محمـــد ، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهم قد عجلوا ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال ، ولا ألفين رجلا منكم قتل منهم رجلا ، ولكن خذوهم أخذا حتى نعرفهم بسوء صنيعهم .

ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطرسة ، فما لبث إلا قليلا حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين . نعم بقى حوله عصابة من المشركين ضربت حوله سياجا من السيوف وغابات من الرماح ، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذا السياج وأقلعت هذه الغابات ، وحينئذ ظهر هذا الطاغية ، ورآه المسلمون يجول على فرسه ، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدى غلامين أنصاريين .

مصرع أبى جهل :

قال عبد الرحمن بن عوف : إنى لفى الصف يوم بدر إذ التفت ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه : يا عم ، أرنى أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخى ، فما تصنع به ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منـــا ، فتعجبت لذلك . قال : وغمزنى الآخر ، فقال لى مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس فقلت : ألا تريان ؟ هـــذا صاحبكما الذى تسألانى عنه ، قال : فابتدراه بسيفيهما

فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيكما قتله ؟ فقال كل واحد منهما : أنا قتلته ، قال : هل مسحتما سيفيكما ؟ فقالا : لا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيفين فقال : كلاكما قتله ، وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والرجلان معاذ بن عمرو ابن الجموح ومعاذ بن عفراء (1) .

وقال ابن إسحاق : قال معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم ، وأبو جهل في مثل الحرجة — والحرجة : الشجر الملتف ، أو شجرة من الأشجار لايوصل إليها ، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظــه بهذه الشجرة — وهم يقولون : أبو الحكم لايخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه ، فلما أمكنني حملت عليه ، فضربته ضربة أطنت قدمه — أطارتها — بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بهــا . قال : وضربني ابنه عكرمة على عاتقي ، فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة من جنبي ، وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي ، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها (2) ثم مر بأبي جهل — وهو عقير — معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل .

ولما انتهت المعركة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ينظر ما صنع أبو جهل ؟ فتفرق الناس في طلبه ، فوجده عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رمق ، فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته ليحتز رأسه ، وقال : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزاني ؟ أأعمد من رجل قتلتموه ؟ أو هل فوق رجل قتلتموه ؟ وقال : فلو غير أكار قتلني ، ثم قال : أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال :

---

(1) صحيح البخاري 1 / 444 ، 2 / 568 ، مشكاة المصابيح 2 / 352 ، وإنما خص بالسلب واحدا منهما لأن الثاني قتل شهيدا في نفس المعركة .

(2) بقي معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه .

لله ورسوله ، ثم قال لابن مسعود – وكان قد وضع رجله على عنقه – لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعى الغنم ، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم فى مكة .

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه ، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبى جهل ، فقال : الله الذى لا إله إلا هو ؟ فرددها ثلاثا ، ثم قال : الله أكبر ، الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، انطلق أرنيه ، فانطلقنا فأريته إياه ، فقال : هذا فرعون هذه الأمة .

من روائع الإيمان فى هذه المعركة :

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث – ابن عفراء – وقد تجلت فى هذه المعركة مناظر رائعة تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ ففى هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة ، خالفت بينهما المبادئ ففصلت بينهما السيوف ، والتقى المقهور بقاهره ، فشفى منه غيظه .

١ – روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى ابن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها ، فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ، والله لئن لقيته لألحمنه – أو لألجمنه – بالسيف ، فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ، فقال عمر : يا رسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيدا .

٢ — وكان النهى عن قتل أبى البحترى ؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شئ يكرهه ، وكان ممن قام فى نقض صحيفة مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب .

ولكن أبا البحترى قتل على رغم هذا كله ، وذلك أن المجذر بن زياد البلوى لقيه فى المعركة ، ومعه زميل له ، يقاتلان سويا ، فقال المجذر : يا أبا البحترى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهانا عن قتلك ، فقال : وزميلى ؟ فقال المجذر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، فقال : والله إذن لأموتن أنا وهو جميعا ، ثم اقتتلا ، فاضطر المجذر إلى قتله .

٣ — كان عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف صديقين فى الجاهلية بمكة ، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن ، وهو واقف مع ابنه على بن أمية ، آخذا بيده ، ومع عبد الرحمن أدراع قد استلبها ، وهو يحملها ، فلما رآه قال : هل لك فى ؟ فأنا خير من هذه الأدراع التى معك ، ما رأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجة فى اللبن ؟ — يريد أن من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن — فطرح عبد الرحمن الأدراع ، وأخذهما يمشى بهما ، قال عبد الرحمن : قال لى أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه : من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة فى صدره ؟ قلت : ذاك حمزة ابن عبد المطلب ، قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل .

قال عبد الرحمن : فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى ، وكان أمية هو الذى يعذب بلالا بمكة ، فقال بلال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا قلت : أى بلال ، أسيرى قال : لا نجوت إن نجا . قلت : أتسمع يا ابن السوداء . قال : لا نجوت إن نجا . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا ، قال : فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة ، وأنا أذب عنه ، قال : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع ، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط ، فقلت : انج بنفسك ، ولا نجاء بك ، فوالله ما أغنى عنك شيئا . قال فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما ، فكان عبد الرحمن يقول :

يرحم الله بلالا ، ذهبت أدراعى ، وفجعنى بأسيرى .

وفى زاد المعاد أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمية : ابرك ، فبرك ، فألقى نفسه عليه ، فضربوه بالسيف من تحته حتى قتلوه ، وأصاب بعض السيف رجل عبد الرحمن عوف [1] .

٤ — وقتل عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه يومئذ خـاله العاص بن هشام ابن المغيرة .

٥ — ونادى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ابنه عبد الرحمن — وهو يومئذ مع المشركين — فقال : أين مالى يا خبيث ؟ فقال عبد الرحمن :

لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب

٦ — ولما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على بابه يحرسه متوشحا سيفه ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له : والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ قال : أجل والله يا رسول الله .

كانت أول وقعـة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل بأهل الشرك أحب إلى من استبقاء الرجال .

٧ — وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن الأسدى ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه جذلا من حطب ، فقال : قاتل بهذا يا عكاشة ، فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه ، فعاد سيفا فى يده طويل القامة ، شديد المتن أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد ، حتى قتل فى حروب الردة وهو عنده .

٨ — وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدرى بأخيه أبى عزيز بن عمير الذى خاض المعركة ضد المسلمين ، مر به وأحد الأنصار يشد يده ، فقال :

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٨٩

مصعب للأنصارى : شد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك ، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب : أهذه وصاتك بى ؟ فقال مصعب : إنه - أى الأنصارى - أخى دونك .

٩ - ولما أمر بإلقاء جيف المشركين فى القليب ، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجه ابنه أبى حذيفة ، فإذا هو كئيب قد تغير ، فقال : يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شئ ؟ فقال : لا والله ، يا رسول الله . ما شككت فى أبى ولا مصرعه ، ولكننى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، وقال له خيرا .

قتلى الفريقين :

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة إلى المشركين ، وبفتح مبين بالنسبة للمسلمين وقد استشهد من المسلمين فى هذه المعركة أربعة عشر رجلا ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة ، قتل منهم سبعون وأسر سبعون . وعامتهم القادة والزعماء والصناديد .

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف على القتلى فقال : بئس العشيرة كنتم لنبيكم . كذبتمونى وصدقنى الناس ، وخذلتمونى ونصرنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قلب بدر .

وعن أبى طلحة أن نبى الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش ، فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث . وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحته

فشد عليها رحلها ، ثم مشى ، وأتبعه أضحابه حتى قام على شفة الركى ، فجعل ينـــاديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، يا فلان بن فلان ، يا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : والذى نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، وفى رواية ما أنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يجيبون (1) .

مكة تتلقى نبأ الهزيمة :

فر المشركون من ساحة بدر في صورة غير منظمة ، تبعثروا في الوديان والشعاب واتجهوا صوب مكة مذعورين ، لا يدرون كيف يدخلونها خجلا .

قال ابن إسحاق : وكان أول من قدم بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم ابن هشام ، وأمية بن خلف في رجال من الزعماء سماهم . فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر : والله إن يعقل هذا ، فاسألوه عنى قالوا : ما فعل صفوان بن أمية قال : ها هو ذا جالس فى الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

وقال أبو رافع – مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم – : كنت غلامـــا للعباس ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت، وكان العباس يكتم إسلامه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بـــدر ، فلما جاءه الخبر كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزا ،وكنت رجلا ضعيفا أعمل الأقداح ، أنحتها فى حجرة زمزم ، فوالله إنى لجالس فيها أنحت أقداحى ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طنب الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهرى ، فبينما هو جالس

---

(١) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٤٥

إذ قال الناس : هذا أبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال له أبو لهب : هلم إلى ، فعندك لعمرى الخبر ، قال : فجلس إليه ، والناس قيام عليه . فقال : يا ابن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ قال : ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا . وايم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تليق شيئا ، ولا يقوم لها شئ .

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدى ، ثم قلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهى ضربة شديدة ، فثاورته ، فاحتملنى فضرب بى الأرض ، ثم برك على يضربنى ، وكنت رجلا ضعيفا ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فعلت فى رأسه شجة منكرة ، وقالت : استضعفته أن غاب عنه سيده ، فقام موليا ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته (وهى قرحة تتشاءم بها العرب ، فتركه بنوه ، وبقى ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاول دفنه ، فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له ، ثم دفعوه بعود فى حفرته ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه) .

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة فى ميدان بدر ، وقد أثر ذلك فيهم أثرا سيئا جدا حتى منعوا النياحة على القتلى ، لئلا يشمت بهم المسلمون .

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر ، وكان يحب أن يبكى عليهم ، وكان ضرير البصر ، فسمع ليلا صوت نائحة ، فبعث غلامه ، وقال : انظر هل أحل النحب ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة — ابنه — فإن جوفى قد احترق ، فرجع الغلام وقال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته ، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال :

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكى على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود

على بدر سراة بنى هصيص	ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكى إن بكيت على عقيـــل	وبكى حارثا أسد الأسود
وبكيهم ، ولا تسمى جميعا	وما لأبى حكيمة من نديد
ألا قـــد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا

المدينة تتلقى أنباء النصر :

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيرين إلى أهل المدينة، ليعجل لهم البشرى ، أرسل عبـــد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية ، وأرسل زيد بن حارثة بشيرا إلى أهل السافلة .

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا فى المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة ، حتى إنهم أشاعوا خبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكبا القصواء — ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال : لقد قتل محمد ، وهذه ناقتـــه نعرفها ، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب ، وجاء فلاّ .

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون ، وأخذوا يسمعون منهما الخبر ، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين ، فعمت البهجة والسرور ، واهتزت أرجاء المدينة تهليلا وتكبيرا ، وتقدم رءوس المسلمين — الذين كانوا بالمدينة — إلى طريق بدر ؛ ليهنئوا رسول الله صلى الله عليه وسلم — بهذا الفتح المبين .

قال أسامة بن زيد : أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كانت عند عثمان بن عفان ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفنى عليها مع عثمان .

الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة :

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام ، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم ، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يرد الجميع ما بأيديهم ، ففعلوا ، ثم نزل الوحى بحل هذه المشكلة .

عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فشهدت معه بدرا فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة في آثــارهم يطاردون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغنم يحرزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم أحق بها منا ، نحن نحينا منها العــدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : خفنا أن يصيب العدو منه غــرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله « يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقــوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعــوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » (٨ : ١) فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين [١] .

وبعد أن أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين ، واحتمل معه النفل الذى أصيب من المشركين وجعل عليه عبد الله بن كعب فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية ، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء بعد أن أخذ منها الخمس .

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث ــ وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر ، وكان من أكابر مجرمى قريش ، ومن أشد الناس كيــدا للإسلام ، وإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فضرب عنقه على بن أبى طالب .

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبى معيط ، وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى كان ألقى سلا جزور على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى الصلاة ، وهو الذى خنقه بردائه ، وكاد يقتله لولا أن يعترض أبو بكر رضى الله عنه ، فلما أمر بقتله قال :

---

(١) أخرجه أحمد ٥ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ ؛ والحاكم ٢ / ٣٢٦

من للصبية يا محمد ؟ قال : النار [1] . قتله عاصم بن ثابت الأنصارى ، ويقال : على بن أبى طالب .

وكان قتل هذين الطاغيتين واجبا من حيث وجهة الحرب ، فلم يكونا من الأسارى فحسب ، بل كانا من مجرمى الحرب بالاصطلاح الحديث .

وفود التهنئة :

ولما وصل إلى الروحاء لقيه رءوس المسلمين — الذين كانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين — يهنئونه بالفتح . وحينئذ قال لهم سلمة بن سلامة : ما الذى تهنئوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا ابن أخى أولئك الملأ .

وقال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، الحمد لله الذى أظفرك ، وأقر عينك والله يا رسول الله ماكان تخلفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوا ، ولكن ظننت أنها عير ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت .

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مظفرا منصورا قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ، وحينئذ دخل عبد الله ابن أبى وأصحابه فى الإسلام ظاهرا .

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم ، فقسمهم على أصحابه ، وأوصى بهم خيرا . فكان الصحابة يأكلون التمر ، ويقدمون لأسرائهم الخبز عملا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قضية الأسارى :

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة استشار أصحابه فى الأسارى ،

---

(١) روى ذلك أصحاب الصحاح ، انظر سنن أبى داود مع حاشيته عون المعبود ٣ / ١٢

فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخـــوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ،فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله ، فيكونوا لنا عضدا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنني من فلان — قريب لعمر — فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل بن أبى طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، وهما يبكيان ، فقلت يا رسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للذى عرض علىّ أصحابك : من أخذهم الفداء ، فقــد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة — شجرة قريبة — [1] .

وأنزل الله تعالى « ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (٨ : ٦٧ ، ٦٨) .

والكتاب الذى سبق من الله هو قوله تعالى « فإما منا بعد وإما فداء » (٤٧ : ٤) ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ولذلك لم يعذبوا ، وإنما نزل العتاب لأنهـــم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا فى الأرض ، ثم إنهم قبلوا الفداء من أولئك المجرمين الذين لم يكونوا أسرى حرب فقط ، بل كانوا أكابر مجرمى الحرب الذين لا يتركهم قانون الحرب الحديث إلا ويحاكمهم ، ولا يكون الحكم فى الغالب إلا بالإعدام أو بالحبس حتى الموت .

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٣٦

واستقر الأمر على رأى الصديق فأخذ منهم الفداء ، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم ، وكان أهل مكة يكتبون ، وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم ، فإذا حذقوا فهو فداء .

ومنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدة من الأسارى ، فأطلقهم بغير فداء ، منهم : المطلب بن حنطب ، وصيفى بن أبى رفاعة ، وأبو عزة الجمحى ، وهو الذى قتله أسرا فى أحد ، وسيأتى .

ومنّ على ختنه أبى العاص بشرط أن يخلى سبيل زينب ، وكانت قد بعثت فى فدائه بمال ، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة ، أدخلتها بها على أبى العاص ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة ، واستأذن أصحابه فى إطلاق أبى العاص ففعلوه ، واشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب ، فخلاها ، فهاجرت ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ، فقال : كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها ، فخرجا حتى رجعا بها . وقصة هجرتها طويلة مؤلمة

وكان فى الأسرى سهيل بن عمرو ، وكان خطيبا مصقعا ، فقال عمر : يا رسول الله ، انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يدلع لسانه ، فلا يقوم خطيبا عليك فى موطن أبدا ، بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفض هذا الطلب ، احترازا عن المثلة وعن بطش الله يوم القيامة .

وخرج سعد بن النعمان معتمرا فحبسه أبو سفيان ، وكان ابنه عمرو بن أبى سفيان فى الأسرى ، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة :

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال ، وهذه السورة تعليق إلهى

– إن صح هذا التعبير – على هذه المعركة ، يختلف كثيراً عن التعاليق التى ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح .

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين – أولا – إلى التقصيرات والتقاريظ الأخلاقية التى كانت قد بقيت فيهم ، وصدرت بعضها منهم ، ليسعوا فى تكميل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التقاريظ .

ثم ثنى بما كان فى هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين . ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم ، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التى خاض الرسول صلى الله عليه وسلم لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة ، ودلهم على الصفات والأخلاق التى تسببت فى الفتوح فى المعارك .

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة ، وعظهم موعظة بليغة ، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقيد به .

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم ، وقنن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة .

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية فى هذه المرحلة ، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية ، ويقوم لهم التفوق فى الأخلاق والقيم والمثل ، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية ، بل إنه يثقف أهله عمليا على الأسس والمبادئ التى يدعو إليها .

ثم قرر بنودا من قوانين الدولة الإسلامية التى تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها ، والذين يسكنون خارجها .

وفى السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان ، وفرضت زكاة الفطر ، وبينت أنصبة الزكاة الأخرى ، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكـــاة الأخرى ؛ تخفيفا لكثير من الأوزار التى يعانيها عـــدد كبير من المهاجرين اللاجئين الذين كانوا فقراء لايستطيعون ضربا فى الأرض .

ومن أحسن المواقع وأروع الصدفات أن أول عيد تعيد به المسلمون فى حياتهم هو العيد الذى وقع فى شوال سنة ٢هـ إثر الفتح المبين الذى حصلوا عليه فى غزوة بدر ، فما أروع هذا العيد السعيد الذى جاء به الله بعد أن توج هامتهم بتاج الفتح والعز ، وما أروق منظر تلك الصلاة التى صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد ، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله ، وحنينا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم من النعم ، وأيدهم به من النصر ، وذكرهم بذلك قائلا : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » (٨ : ٢٦).

* * *

النشاط العسكرى بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين ، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصرا حاسما شهد له العرب قاطبة ، والذين كانوا أشد استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة ؛ وهم المشركون أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضربا قاصما على كيانهم الدينى والاقتصادى ، وهم اليهود . فمنذ أن انتصر المسلمون فى معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظا وحنقا على المسلمين « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » (٥ : ٨٢) وكانت فى المدينة بطانة للفريقين دخلوا فى الإسلام حين لم يبق مجال لوقارهم ، وهم عبد الله بن أبى وأصحابه ، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظا من الأولين .

وكانت هناك فرقة رابعة ، وهم البدو الضاربون حول المدينة ، لم يكن يهمهم مسألة الكفر والإيمان ، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب ، فأخذهم القلق ، واضطربوا لهذا الانتصار ، وخافوا أن تقوم فى المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب ، فجعلوا يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء .

وهكذا أحاطت الأخطار بالمسلمين من كل جانب ، ولكن هذه الفرق تباينت فى سلوكها إزاء المسلمين ، وأخذ كل فريق الطريقة التى رآها كفيلة ببلوغ غايته . فبينما كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام وتأخذ فى طريق المؤامرات والدسائس والتحرشات والاستفزازات كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة وتكاشف عن الحقد والغيظ ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم وتعلن بأخذ الثأر والنقمة ، وتهتم بالتعبئة العامة جهارا ، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها ، تقول بأنه :

ولابد من يوم أغر محجل   يطول استماعى بعده للنوادب

وفعلا فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت فى التاريخ بغزوة أحد ، والتى كان لها أثر سيئ على سمعة المسلمين وهيبتهم .

وقد لعب المسلمون دورا هاما للقضاء على هذه الأخطار ، تظهر فيه عبقرية قيادة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه من غاية التيقظ حول هذه الأخطار ، وما كان عليه من حسن التخطيط للقضاء عليها ، ونذكر فى السطور الآتية صورة مصغرة منها .

* * *

غزوة بنى سليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد بدر أن بنى سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة ، فباغت النبي صلى الله عليه وسلم فى مائتى راكب هذه القبائل المتحشدة فى عقر دارها ، وبلغ إلى منازلهم فى موضع يقال له الكدر [1] . ففر بنو سليم وتركوا فى الوادى خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة ، وقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين ، وأصاب غلاما يقال له « يسار » فأعتقه .

وأقام النبي صلى الله عليه وسلم فى ديارهم ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة فى شوال سنة ٢هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام ، واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة . وقيل : ابن أم مكتوم [2]

* * *

(١) الكدر ، بالضم فالسكون : طير فى لونها كدرة ، وهو ماء من مياه بنى سليم يقع فى نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٠ ، ابن هشام ٢ / ٤٣ ، ٤٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٣٦ .

مؤامرة لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن اشتاطوا غضبا ، وجعلت مكة تغلي كالمرجل ضد النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى تآمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ، ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم .

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر بيسير — وكان عمير من شياطين قريش ممن كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة — وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر ، فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله إن في العيش بعدهم خير .

قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لي قبلهم علة ، ابني أسير في أيديهم .

فاغتنمها صفوان وقال : علي دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكتم عني شأني وشأنك . قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة . فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب — وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر — فقال عمر : هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر . ثم دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحا سيفه ، قال : فأدخله علي ، فأقبل عمير فلببه بحمالة سيفه ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم — وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه — قال : أرسله يا عمر ،

ادن يا عمير ، فدنا وقال : أنعموا صباحا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير ، بالسلام ، تحية أهل الجنة .

ثم قال : ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه .

قال : فما بال السيف فى عنقك؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئا؟

قال : اصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى والله حائل بينى وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم تشهد شهادة الحق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره .

وأما صفوان فكان يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر . وكان يسأل الركبان عن عمير ، حتى أخبره راكب عن إسلامه ، فحلفه صفوان أن لا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه بنفع أبدا .

ورجع عمير إلى مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير[1] .

* * *

غزوة بنى قينقاع

قدمنا بنود المعاهدة التى عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود .

(١) ابن هشام ١ / ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ .

وقد كان حريصا كل الحرص على تنفيذ ما جاء فى هذه المعاهدة ، وفعلا لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفا واحدا من نصوصها . ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود ولم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة ، وأخذوا فى طريق الدس والمؤامرة والتحريش وإثارة القلق والاضطراب فى صفوف المسلمين .
وهاك مثالا من ذلك :

نموذج من مكيدة اليهود :

قال ابن إسحاق : مر شاس بن قيس – وكان شيخا (يهوديـــا) قد عسى عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم – على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قـــد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنـــا معهم إذا اجتمع ملؤهم بهـــا من قرار ، فأمر فتى شابا من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث وما كان من قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعـــوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة – يعنى الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التى كانت بينهم – وغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة – والظاهرة : الحرة – السلاح السلاح ، فخرجـــوا إليها (وكادت تنشب الحرب) .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس [1] .

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والتحريشات في المسلمين ، وإقامة العراقيل فى سبيل الدعوة الإسلامية . وقد كان لهم خطط شتى فى هذا السبيل . كانوا يبثون الدعايات الكاذبة ، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ليزرعوا بذور الشكوك فى قلوب الضعفاء ، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالى ، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء ، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل ، ويمتنعون عن أدائه ، وكانوا يقولون: إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك ، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل [2] .

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر على رغم المعاهدة التى عقدوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصبرون على كل ذلك؛حرصا على رشدهم ،وعلى بسط الأمن والسلام فى المنطقة .

بنو قينقاع ينقضون العهد :

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصرا مؤزرا فى ميدان بدر ، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة فى قلوب الأقاصى والأدانى ،تميزت قدر غيظهم وكاشفوا بالشر والعداوة ، وجاهروا بالبغى والأذى .

وكان أعظمهم حقدا وأكبرهم شرا كعب بن الأشرف — وسيأتى ذكره — كما أن أشر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بنى قينقاع ، كانوا يسكنون داخل المدينة — فى حى باسمهم — وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأوانى ،

---

(١) ابن هشام ١ / ٥٥٥ ، ٥٥٦

(٢) ذكر المفسرون نماذج لفعلاتهم هذه فى تفسير سورة آل عمران وغيرها .

ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحروب ، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود .

فلما فتح الله للمسلمين فى بدر اشتد طغيانهم ، وتوسعوا فى تحرشاتهم واستفزازاتهم ، فكانوا يثيرون الشغب ، ويتعرضون بالسخرية ، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم .

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم ، جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى ، وحذرهم مغبة البغى والعدوان ، ولكنهم ازدادوا فى شرهم وغطرستهم .

روى أبو داود وغيره ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر ، وقدم المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع . فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا . قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لايعرفون القتال . إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى : «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار» (٣ : ١٢ ، ١٣) . (١)

كان معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر بالحرب ، ولكن كظم النبى صلى الله عليه وسلم غيظه ، وصبر وصبر المسلمون ، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالى .

وازداد اليهود — من بنى قينقاع — جراءة ، فقلما لبثوا أن أثاروا فى المدينة قلقا واضطرابا ، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم ، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة .

---

(١) سنن أبى داود مع عون المعبود ٣ / ١١٥ ؛ ابن هشام ١ / ٥٥٢

روى ابن هشام عن أبى عون أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته سوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها — وهى غافلة — فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله — وكان يهوديا — فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع [1] .

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء :

وحينئذ عيل صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب ؛ وسار بجنود الله إلى بنى قينقاع ، ولما رأوه تحصنوا فى حصونهم ، فحاصرهم أشد الحصار ، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢هـ ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب — الذى إذا أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذف فى قلوبهم — فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم ، فأمر بهم فكتفوا .

وحينئذ قام عبد الله بن أبى بن سلول بدوره النفاقى ، فألح على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصدر عنهم عفوا ، فقال : يا محمد ، أحسن فى موالى — وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج — فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكرر ابن أبى مقالته ، فأعرض عنه ، فأدخل يده فى جيب درعه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال : ويحك ، أرسلنى . ولكن المنافق مضى على إصراره وقال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود ، وتحصدهم فى غداة واحدة ؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨

وعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المنافق ـ الذى لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب ـ عامله بالمراعاة . فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام ، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم .

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أموالهم ، فأخذ منها ثلاث قسى ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح ، وخمس غنائمهم ، وكان الذى تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة [1] .

* * *

غزوة السويق

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم كان أبو سفيان يفكر فى عمل قليل المغارم ظاهر الأثر ، يتعجل به ؛ ليحفظ مكانة قومه ، ويبرز ما لديهم من قوة ، وكان قد نذر أن لا يمس رأسه مـاء من جنابة حتى يغزو محمدا ، فخرج فى مائتى راكب ليبر يمينه ، حتى نزل بصـدر قناة إلى جبل يقال له نيب ، من المدينة على بريد أو نحوه ؛ ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهارا ، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة ، فإنه دخل فى ضواحى المدينة فى الليل مستخفيا تحت جنح الظلام ، فأتى حيى بن أخطب ، فاستفتح بابه ، فأبى وخاف فانصرف إلى سلام بن مشكم ـ سيد بنى النضير ، وصاحب كنزهم إذ ذاك ـ فاستأذن عليه فأذن ، فقراه وسقاه الخمر ، وبطن له من خبر الناس ، ثم خرج أبو سفيان فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها « العريض » ، فقطعوا وأحرقوا هناك أسوارا من النخل ، ووجدوا

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٧١ ، ٩١ ، ابن هشام ٢ / ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩

رجلا من الأنصار وحليفا له في حرث لهما فقتلوهما ، و فروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه ، ولكنهم فروا ببالغ السرعة ، وطرحوا سويقا كثيرا من أزوادهم وتمويناتهم يتخففون به ، فتمكنوا من الإفلات ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعا . وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم ، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق . وقعت في ذي الحجة سنة ٢هـ بعد بدر بشهرين ، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر [١] .

* * *

غزوة ذي أمر

وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل معركة أحد ، قادها في المحرم سنة ٣هـ .

وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعا كبيرا من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا ، يريدون الإغارة على أطراف المدينة ، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين ، وخرج في أربعمائة وخمسين مقاتلا ما بين راكب وراجل ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له جبار من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم ، فضمه إلى بلال ، وصار دليلا لجيش المسلمين إلى أرض العدو .

وتفرق الأعداء في رءوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة . أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم ، وهو الماء المسمى « بذي

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٠ ، ٩١ ، ابن هشام ٢ / ٤٤ ، ٤٥

أمر » فأقام هناك صفرا كله — من سنة ٣هـ — أو قريبا من ذلك ، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين ، ويستولى عليهم الرعب والرهبة ، ثم رجع إلى المدينة (١) .

* * *

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقا على الإسلام والمسلمين ، وإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتظاهرا بالدعوة إلى حربه .

كان من قبيلة طيئ — من بنى نبهان — وأمه من بنى النضير ، وكان غنيا مترفا معروفا بجماله فى العرب ، شاعرا من شعرائها . وكان حصنه فى شرق جنوب المدينة فى خلفيات ديار بنى النضير .

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين ، وقتل صناديد قريش فى بدر قال : أحق هذا ؟ هؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

ولما تأكد لديه الخبر ، انبعث عدو الله يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ويمدح عدوهم ، ويحرضهم عليهم ، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى ، وجعل ينشد الأشعار يبكى فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين ، يثير بذلك حفائظهم ، ويذكى حقدهم على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدعوهم إلى حربه ، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأى الفريقين أهدى سبيلا ؟ فقال : أنتم أهدى منهم سبيلا ، وأفضل ، وفى ذلك أنزل الله تعالى :

---

(١) ابن هشام ٢ / ٤٦ ، زاد المعاد ٢ / ٩١ ، ويذكرون أن محاولة اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم من قبل دعثور أوغورث المحاربى كانت فى هذه الغزوة . والصحيح أنها فى غير هذه الغزوة انظر صحيح البخارى ٢ / ٥٩٣ .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » (٤ : ٥١) .

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال ، وأخـذ يشبب فى أشعاره بنساء الصحابة ، ويؤذيهم بسلاطةلسانه أشد الإيذاء .

وحينئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه آذى الله ورسوله ، فانتدب له محمد بن مسلمة،وعباد بن بشر ، وأبو نائلةـواسمه سلكان بن سلامة ، وهو أخو كعب من الرضاعة ـ والحارث بن أوس ، وأبو عبس ابن حبر ، وكان قائد هذه المفرزة محمد بن مسلمة .

وتفيد الروايات فى قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال : من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : فأذن لى أن أقول شيئا . قال : قل .

فأتاه محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنانا .

قال كعب : والله لتملنه .

قال محمد بن مسلمة: فإنا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شئ يصير شأنه ؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين .

قال كعب : نعم أرهنونى .

قال ابن مسلمة : أى شئ تريد ؟

قال : أرهنونى نساءكم .

قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟

قال : فترهنونى أبناءكم .

قال : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال : رهن بوسق أو وسقين . هذا عار علينا . ولكنا نرهنك اللأمة ، يعنى السلاح .

فواعده أن يأتيه .

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة ، فقد جاء كعبا فتناشد معه أطراف الأشعار سويعة ، ثم قال له : ويحك يا ابن الأشرف ، إنى قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى .

قال كعب : أفعل .

قال أبو نائلة : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا ، ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، وقال أبو نائلة أثناء حديثه : إن معى أصحابا لى على مثل رأيى ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك .

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة في هذا الحوار إلى ما قصدا ، فإن كعب لن ينكر معهما السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار .

وفى ليلة مقمرة — ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣هـ — اجتمعت هذه المفرزة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشيعهم إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم قائلا : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم ، ثم رجع إلى بيته ، وطفق يصلى ويناجى ربه .

وانتهت المفرزة إلى حصن كعب بن الأشرف ، فهتف به أبو نائلة ، فقام لينزل إليهم ، فقالت له امرأته — وكان حديث العهد بها : أين تخرج هذه الساعة ؟ أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم .

قال كعب : إنما هو أخى محمد بن مسلمة ، ورضيعى أبو نائلة ، إن الكريم لو دعى إلى طعنة أجاب ، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفخ رأسه .

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه : إذا ما جاء فإنى آخذ بشعره فأشمه ، فإذا رأيتمونى استمكنت منه من رأسه فدونكم فاضربوه ، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة ، ثم قال أبو نائلة : هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز

فنتحدث بقية ليلتنا ؟ قال : إن شئتم ، فخرجوا يتماشون ، فقال أبو نائلة وهو في الطريق : ما رأيت كالليلة طيبا أعطر ، وزهى كعب بما سمع فقال : عندى أعطر نساء العرب ، قال أبو نائلة : أتأذن لى أن أشم رأسك ؟ قال : نعم ، فأدخل يده في رأسه فشمه وأشم أصحابه .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال كعب : نعم ، فعاد لمثلها ، حتى اطمأن .

ثم مشى ساعة ثم قال : أعود ؟ قال : نعم ، فأدخل يده في رأسه ، فلما استمكن منه قال : دونكم عدو الله ، فاختلفت عليه أسيافهم ، لكنها لم تغن شيئا ، فأخذ محمد بن مسلمة معولا فوضعه في ثنته ، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع عدو الله قتيلا ، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حولـــه ، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران .

ورجعت المفرزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذباب بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم ، فلما بلغت المفرزة حرة العريض ، رأت أن الحارث ليس معهم فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه حتى إذا بلغوا بقيع الغرقد كبروا وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرهم ، فعرف أنهم قد قتلوه ، فكبر ، فلما انتهوا إليه قال : أفلحت الوجوه ، قالوا : ووجهك يا رسول الله . ورموا برأس الطاغية بين أيديه ، فحمد الله على قتله ، وتفل على جرح الحارث فبرأ ، ولم يؤذ بعـــده [1] .

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف دب الرعب في قلوبهم العنيدة ، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لن يتوانى في استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يجدى نفعا لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام

---

(١) أخذنا تفاصيل هذه الوقعة من ابن هشام ٢ / ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، وصحيح البخاري ١ / ٣٤١ ، ٤٢٥ ، ٢ / ٥٧٧ ، وسنن أبي داود مـــع عون المعبود ٢ / ٤٢ ، ٤٣ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١

المواثيق ، فلم يحركوا ساكنا لقتل طاغيتهم ، بل لزموا الهدوء ، وتظاهروا بإيفاء العهود ، واستكانوا . وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبئ فيها .

وهكذا تفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم – إلى حين – لمواجهة الأخطار التي كان يتوقع حدوثها خارج المدينة ، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التي كانوا يتوجسونها ، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى .

• • •

غزوة بحـــران

وهي دورية قتال كبيرة ، قوامها ثلاثمائة مقاتل ، قادها الرسول صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الآخر سنة ٣هـ إلى أرض يقال لها بحران – وهي معدن بالحجاز في ناحية الفرع – فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق حربا [1] .

• • •

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد ، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣هـ .

وتفصيلها أن قريشا بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب ، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتها إلى الشام فأخذها هم آخر

---

(١) ابن هشام ٢ / ٥٠ ، ٥١ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ ، واختلفت المصادر في تعيين سبب هذه الغزوة فقيل : إن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بني سليم يحشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو أطرافها ، وقيل : بل خرج يريد قريشا ، وهذا الثاني هو الذي ذكره ابن هشام واختاره ابن القيم – حتى لم يذكر الأول رأسا – وهو الموجه ، وذلك لأن ديار بني سليم لم تكن بناحية الفرع ، وإنما هي في نجد بعيدة عن ناحية الفرع .

قال صفوان بن أمية لقريش — وهو الذى انتخبته قريش فى هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام — : إن محمدا وصحبه عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه ، وهم لايبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف ، وإلى الحبشة فى الشتاء .

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع : فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان: تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق — وهى طريق طويلة جدا تخترق نجدا إلى الشام ، وتمر فى شرقى المدينة على بعد كبير منها ، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل — فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات ابن حيان — من بنى بكر بن وائل — دليلا له ، يكون رائده فى هذه الرحلة .

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذة الطريق الجديدة ، إلا أن أنباء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة . وذلك أن سليط بن النعمان — وكان قد أسلم — اجتمع فى مجلس شرب — وذلك قبل تحريم الخمر — مع نعيم ابن مسعود الأشجعى — ولم يكن أسلم إذ ذاك — فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها ، فأسرع سليط إلى النبى صلى الله عليه وسلم يروى له القصة .

وجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لوقته حملة قوامها مائة راكب فى قيادة زيد بن حارثة الكلبى ، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة — على حين غرة — وهى تنزل على ماء فى أرض نجد يقال له قردة — بالفتح فالسكون — فاستولى عليها كلها ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أى مقاومة .

وأسر المسلمون دليل القافلة — فرات بن حيان ، وقيل : ورجلين غيره — وحملوا غنيمة كبيرة من الأوانى والفضة كانت تحملها القافلة ، قدرت قيمتها بمائة ألف

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس ، وأسلم فرات بن حيان على يديه صلى الله عليه وسلم [1] .

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشا بعد بدر ، اشتد لها قلق قريش وزادتها هما وحزنا . ولم يبق أمامها إلا طريقان ، إما أن تمتنع عن غطرستها وكبريائها ، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد وعزها القديم ، وتقضي على قوات المسلمين بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك ، وقد اختارت مكة الطريق الثانية ، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر ، والتهيؤ للقاء المسلمين فى تعبئة كاملة ، وتصميمها على الغزو فى ديارهم ، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوى لمعركة أحد .

• •

---

(١) ابن هشام ٢ / ٥٠ ، ٥١ ، فقه السيرة ص ١٩٠ ، رحمة للعالمين ٢ / ٢١٩

غزوة أحـــد

استعداد قريش لمعركة ناقمة :

كانت مكة تحترق غيظا على المسلمين مما أصابها فى معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديـــد والأشراف ، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخـــذ الثأر ، حتى إن قريشا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم فى بدر ، ومنعوا مـــن الاستعجال فى فداء الأسارى حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم .

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين تشفى غيظها وتروى غلة حقدها ، وأخذت فى الاستعداد للخوض فى مثل هـــذه المعركة .

وكان عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله ابن أبى ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطا وتحمسا لخوض المعركة .

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان والتى كانت سببا لمعركة بدر . وقالوا للذين كانت فيها أموالهم : : يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأرا ، فأجابوا لذلك ، فباعوها . وكانت ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار وفى ذلك أنزل الله تعالى « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » (٨ : ٣٦) .

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة فى غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة ، وأخذوا لذلك أنواعا من طرق التحريض ، حتى إن صفوان ابن أمية أغرى أبا عزة الشاعر — الذى كان قد أسر فى بدر فمن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلق سراحه بغير فدية ، وأخذ منه العهد بأن لايقوم ضده — أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين ، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيا يغنيه ، وإلا يكفل بناته ، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التى كانت

تذكى حفائظهم ، كما اختاروا شاعرا آخر - مسافع بن عبد مناف الجمحى لنفس المهمــة .

وكان أبوسفيان أشد تألبا على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السويق خائبا لم ينل ما فى نفسه ، بل أضاع مقدارا كبيرا من تموينانه فى هذه الغزوة .

وزاد الطينة بلة - أو زاد النار إذكاء ، إن صح هذا التعبير - ما أصاب قريشا أخيرا فى سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التى قصمت فقار اقتصادها . وزودها مــن الحزن والهم ما لايقادر قــدره ، وحينئذ زادت سرعة قــريش فى استعدادها للخوض فى معركة تفصل بينهم وبين المسلمين .

قوام جيش قريش وقيادته :

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها ، واجتمع إليها مــن المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش ، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجــال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم ، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة .

وكان سلاح النقليات فى هــذا الجيش ثلاثة آلاف بعير ، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس [1] ، جنبوها طول الطريق ، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع .

وكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان بن حرب ، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبى جهل . أما اللواء فكان إلى بنى عبد الدار .

جيش مكة يتحرك :

تحرك الجيش المكى بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة ، وكانت الثارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء فى القلوب ، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير .

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو :

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية ،

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٢ وهو المعروف ، وفى فتح البارى مائة فرس ٧ / ٣٤٦

فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضمنها جميع تفاصيل الجيش .

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة ، وجد فى السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة — التى تبلغ مسافتها إلى خمسمائة كيلو مترا — فى ثلاثة أيام ، وسلم الرسالة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مسجد قباء .

قرأ الرسالة على النبى صلى الله عليه وسلم أبى بن كعب فأمره بالكتمان ، وعاد مسرعا إلى المدينة ، وتبادل الرأى مع قادة المهاجرين والأنصار .

استعداد المسلمين للطوارئ :

وظلت المدينة فى حالة استنفار عام لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم فى الصلاة ، استعدادا للطوارئ .

وقامت مفرزة من الأنصار — فيهم سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة — بحراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح .

وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها خوفا من أن يؤخذوا على غـرة .

وقامت دوريات من المسلمين — لاكتشاف تحركات العدو — تتجول حول الطرق التى يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين .

الجيش المكى إلى أسوار المدينة :

وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة ، ولما وصل إلى الأبواء اقترحت هند بنت عتبة — زوج أبى سفيان — بنبش قبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب ، وحذروا من العواقب الوخيمة التى تلحقهم لو فتحوا هذا الباب .

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة ، فسلك وادى العقيق ، ثم انحرف منه إلى ذات اليمين حتى نزل قريبا بجبل أحد فى مكان يقال له عينين فى بطن السبخة من قناة على شفير الوادى - الذى يقع شمالى المدينة - فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة .

المجلس الاستشارى لأخذ خطة الدفاع :

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبرا بعد خبر حتى الخبر الأخير عن معسكره ، وحينئذ عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا استشاريا عسكريا أعلى ، تبادل فيه الرأى لاختيار الموقف ، وأخبرهم عن رؤيا رآها ، قال : إنى قد رأيت والله خيرا ، رأيت بقرا يذبح ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلما ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة ، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون ، وتأول الثلمة فى سيفه برجل يصاب من أهل بيته ، وتأول الدرع بالمدينة .

ثم قدم رأيه إلى صحابته أن لايخرجوا من المدينة ، وأن يتحصنوا بها ، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدوى ، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت ، وكان هذا هو الرأى . ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبى بن سلول - رأس المنافقين - وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج . ويبدو أن موافقته لهذا الرأى لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية ، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد ، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه - لأول مرة - أمام المسلمين ، وينكشف عنهم الغطاء الذى كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه ، ويتعرف المسلمون فى أحرج ساعتهم عن الأفاعى التى كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم .

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ، فأشاروا على النبى صلى الله عليه وسلم بالخروج ، وألحوا عليه فى ذلك حتى قال قائلهم:

يا رسول الله كنا نتمنى هذا اليوم وندعوالله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير ، اخرج إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنا عنهم .

وكان فى مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم — الذى كان قد أرى فرند سيفه فى معركة بدر — فقد قال للنبى صلى الله عليه وسلم : والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاما حتى أجـالدهم بسيفى خارج المدينة [1] .

ورفض رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه أمام رأى الأغلبيـة ، واستقر الرأى على الخروج من المدينة ، واللقاء فى الميدان السافر .

تكتيب الجيش الإسلامى وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صلى النبى صلى الله عليه وسلم بالناس يوم الجمعة ، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، ففرح الناس بذلك .

ثم صلى بالناس العصر ، وقد حشدوا وحضر أهل العوالى ، ثم دخل بيته ؛ ومعه صاحباه أبو بكر وعمر ، فعمماه وألبساه ، فتدجج بسلاحه وظاهر بين درعين (أى لبس درعا فوق درع) وتقلد السيف ، ثم خرج على الناس .

وكان الناس ينتظرون خروجه ، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج فردوا الأمر إليه ، فندموا جميعا على ما صنعوا ، فلما خرج قالوا له : يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك . فاصنع ما شئت . إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماينبغى لنبى إذا لبس لأمته — وهى الدرع — أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عـدوه [2] .

(١) السيرة الحلبية ٢ / ١٤

(٢) رواه أحمد والنسائى والحاكم وابن إسحاق

وقسم النبي صلى الله عليه وسلم جيشه إلى ثلاث كتائب :

(١) كتيبة المهاجرين وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدرى .

(٢) كتيبة الأوس من الأنصار . وأعطى لواءها أسيد بن حضير .

(٣) كتيبة الخزرج من الأنصار . وأعطى لواءها الحباب بن المنذر .

وكان الجيش متألفا من ألف مقاتل فيهم مائة دارع وخمسون فارسا [١] وقيل لم يكن من الفرسان أحد ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة ، وأذن بالرحيل فتحرك الجيش نحو الشمال ، وخرج السعدان أمام النبى صلى الله عليه وسلم يعدوان دارعين .

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش ، فسأل عنها ، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج [٢] يرغبون المساهمة فى القتال ضد المشركين ، فسأل : هل أسلموا ؟ فقالوا : لا . فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك .

استعراض الجيش :

وعندما وصل إلى مقام يقال له « الشيخان » استعرض جيشه ، فـرد من استصغره ولم يره مطيقا للقتال ، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة ابن زيد ، وأسيد بن ظهير ، وزيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم ، وعرابة بن أوس ، وعمرو بن حزم ، وأبو سعيد الخدرى ، وزيد بن حارثة الأنصارى ، وسعد بن حبة ويذكر فى هؤلاء البراء بن عازب ، لكن حـديثه فى البخارى يدل على شهوده القتال ذلك اليوم .

---

(١) قاله ابن القيم فى الهدى ٢ ، ٩٢ . وقال ابن حجر : هو غلط بين . وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم فى أحد شىء من الخيل ، ووقع عند الواقدى كان معهم فرس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفرس لأبى بردة (فتح البارى ٧ / ٣٥٠)

(٢) روى ذلك ابن سعد وفيه أنهم من بنى قينقاع (٢ / ٣٤) ومعلوم أن بنى قينقاع كان قد تم إجلاؤهم عقب بدر .

وأجاز رافع بن خديج ، وسمرة بن جندب على صغر سنهما ، وذلك أن رافع ابن خديج كان ماهرا فى رماية النبل فأجازه ، فقال سمرة : أنا أقوى من رافع ، أنا أصرعه ، فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه ، فتصارعا ، فصرع سمرة رافعا ، فأجازه أيضا .

المبيت بين أحد والمدينة :

وفى هذا المكان أدركهم المساء ، فصلى المغرب ، ثم صلى العشاء ، وبات هنالك ، وانتخب خمسين رجلا لحراسة المعسكر يتجولون حوله ، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصارى ، بطل سرية كعب بن الأشرف ، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبى صلى الله عليه وسلم خاصة .

تمرد عبد الله بن أبى وأصحابه :

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج حتى إذا كان بالشوط صلى الفجر ، وكان بمقربة جدا من العدو . فقد كان يراهم ويرونه ، وهناك تمرد عبد الله بن أبى المنافق ،فانسحب بنحو ثلث العسكر – ثلاثمائة مقاتل – قائلا : ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ ومتظاهرا بالاحتجاج بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ترك رأيه وأطاع غيره .

ولاشك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه ، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوى إلى هذا المكان معنى . بل لو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره ، بل كان هدفه الرئيسى من هذا التمرد – فى ذلك الظرف الدقيق – أن يحدث البلبلة والاضطراب فى جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم . حتى ينحاز عامة الجيش عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وتنهار معنويات من يبقى معه ، بينما يتشجع العدو ، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر ، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه المخلصين ، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه .

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه ، فقد همت طائفتان – بنى حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج – أن تفشلا : ولكن الله تولاهما فثبتتا بعد ما سرى فيهما الاضطراب وهمتا بالرجوع والانسحاب ، وعنهما يقول الله تعالى : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٣ : ١٢٢) .

وحاول عبد الله بن حرام – والد جابر بن عبد الله – تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق ، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع ، ويقول تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلا : أبعدكم الله ، أعداء الله ، فسيغنى الله عنكم نبيـه .

وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى : « وليعلم الذين نافقوا . وقيل لهم تعالوا ، قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالـوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هـم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون » (٣ : ١٦٧) .

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد :

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبي صلى الله عليه وسلم ببقية الجيش – وهم سبعمائة مقاتل – ليواصل سيره نحو العدو ، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة ، فقال : من رجل يخرج بنا على القوم من كثب (أى من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم ؟

فقال أبو خيثمة : أنا يا رسول الله ، ثم اختار طريقا قصيرا إلى أحد يمر بحرة بني حارثة وبمزارعهم ، تاركا جيش المشركين إلى الغرب .

ومر الجيش في هذا الطريق بحائط مربع بن قيظي – وكان منافقا ضرير البصر – فلما أحس بالجيش قام يحثو التراب في وجوه المسلمين ، ويقول : لا أحل لك أن

تدخل حائطى إن كنت رسول الله . فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال : لاتقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر .

ونفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من جبل أحد فى عدوة الوادى ، فعسكر بجيشه مستقبلا المدينة ، وجاعلا ظهره إلى هضاب جبل أحد . وعلى هذا صار جيش العدو فاصلا بين المسلمين وبين المدينة .

خطة الدفاع :

وهناك عبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه ، وهيأهم صفوفا للقتال ، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين ، قوامها خمسون مقاتلا ، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصارى الأوسى البدرى ، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادى قناة — وعرف فيما بعد بجبل الرماة — جنوب شرق معسكر المسلمين ، على بعد حوالى مائة وخمسين مترا من مقر الجيش الإسلامى

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلماته التى ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائدهم : انضح الخيل عنا بالنبل ، لايأتونا من خلفنا ، ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك [1] . ثم قال للرماة احموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا [2] وفى رواية البخارى أنه قال : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأنهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم [3] .

وبتعيين هذه الفصيلة فى الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلمة الوحيدة التى كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين ، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٦٥ ، ٦٦

(٢) روى ذلك أحمد والطبرانى والحاكم عن ابن عباس . انظر فتح البارى ٧ / ٣٥٠

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الجهاد ١ / ٤٢٦

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو ، وجعل على الميسرة الزبير ابن العوام ، يسانده المقداد بن الأسود ، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد ، وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة ، والذين يوزنون بالآلاف .

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جدا ، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبي صلى الله عليه وسلم العسكرية — وأنه لايمكن لأى قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا — فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة ، مع أنه نزل فيه بعد العدو ، فقد حمي ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل ، وحمى ميسرته وظهره — حين يحتدم القتال — بسد الثلمة الوحيدة التى كانت توجد فى جانب الجيش الإسلامى واختار لمعسكره موضعا مرتفعا يحتمى به — إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين — ولا يلتجئ إلى الفرار ، حتى يتعرض للوقوع فى قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم . ويلحق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه ، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدا أن يحصلوا على شئ من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم ، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين . كما أنه عوض النقص العددى فى رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين .

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوى صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ .

الرسول صلى الله عليه وسلم ينفث روح البسالة في الجيش :

ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم الناس عن الأخذ فى القتال حتى يأمرهم ، وظاهر بين درعين ، وحرض أصحابه على القتال ، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء . وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة فى أصحابه — حتى جرد سيفا باترا ونادى أصحابه : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال ليأخذوه — منهم

على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام، وعمر بن الخطاب — حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ، فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحنى . قال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله ، فأعطاه إياه .

وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت . فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة ، وجعل يتبختر بين الصفين ، وحينئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن .

تعبئة الجيش المكى :

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف ، فكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان صخر بن حرب الذى تمركز فى قلب الجيش . وجعلوا على الميمنة خالد ابن الوليد — وكان إذ ذاك مشركا — وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل . وعلى المشاة صفوان بن أمية . وعلى رماة النبل عبد الله بن أبى ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بنى عبد الدار . وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التى ورثوها من قصى بن كلاب — كما أسلفنا فى أوائل المقالة — وكان لايمكن لأحد أن ينازعهم فى ذلك ، تقيدا بالتقاليد التى ورثوها كابرا عن كابر ، بيد أن القائد العام — أبا سفيان — ذكرهم بما أصاب قريشا يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث ، وقال لهم ليستفز غضبهم ويثير حميتهم : يا بنى عبد الدار ، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا . فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

ونجح أبو سفيان فى هدفه فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبى سفيان أشد الغضب . وهموا به وتواعدوه وقالوا له : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع . وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم .

مناورات سياسية من قبل قريش :

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقـة والنزاع داخل صفوف المسلمين . فقد أرسل أبوسفيان إلى الأنصار يقول لهم : « خلوا بيننا وبين ابن عمنا. فننصرف عنكم فلا حاجة لنا إلى قتالكم » ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذى لاتقوم له الجبال ، فقد رد عليه الأنصار ردا عنيفا ، وأسمعوه مايكره .

واقتربت ساعة الصفر ، وتدانت الفئتان ، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض . فقد خرج إليهم عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق — واسمه عبد عمرو ابن صيفى ، وكان يسمى الراهب ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق وكان رأس الأوس فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ، فخرج من المدينة ، وذهب إلى قريش يؤلبهم عـلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على قتاله ، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه — فكان أول من خرج إلى المسلمين فى الأحابيش وعبدان أهل مكة .فنادى قومه وتعرف عليهم ، وقال : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر. فقالوا: لاأنعم الله بك عينا يا فاسق . فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر . (ولما بدأ القتال قاتلهم قتالا شديدا وراضخهم بالحجارة) .

وهكذا فشلت قريش فى محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان . وبدل عملهم هذا على ماكان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم ، مع كثرتهم وتفوقهم فى العدد والعدد .

جهود نسوة قريش في التحميس :

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة فى المعركة ، تقودهـن هند بنت عتبة زوجـة أبى سفيان . فكن يتجولن فى الصفوف ، ويضربـن بالدفـوف ، يستنهضن الرجال ، ويحرضن على القتال ، ويثرن حفائظ الأبطال ، ويحركن مشاعر

أهل الطعان والضراب والنضال ، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن :

ويها بني عبد الـــدار ويها حماة الأدبـــار

ضربا بكل بتـــار

وتارة يأززن قومهن على القتال وينشدن :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

أول وقود المعركة :

وتقارب الجمعان ، وتدانت الفئتان ، وبدأت مراحل القتـــال . وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري . وكان من أشجع فرسان قريش . يسميه المسلمون كبش الكتيبة . خرج وهو راكب على جمل ، يدعو إلى المبارزة ، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته . ولكن تقدم إليه الزبير ، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله ، ثم اقتحم به الأرض ، فألقاه عنه وذبحه بسيفه .

ورأى النبي صلى الله عليه وسلم هذا الصراع الرائع ، فكبر وكبر المسلمون ، وأثنى على الزبير ، وقال في حقه : إن لكل نبي حواريا ، وحواري الزبير [1] .

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته :

ثم اندلعت نيران المعركة ، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان . وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين . فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة ، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة ، وتقدم للقتال وهو يقول :

إن على أهل اللواء حقا أن تخضب الصعدة أو تندقا

(١) ذكره صاحب السيرة الحلبية ٢ / ١٨

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه، حتى وصلت إلى سرته ، فبانت رئته .

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبى طلحة، فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم أصاب حنجرته، فأدلع لسانه ومات لحينه . وقيل : بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز ، فتقدم إليه على بن أبى طالب ، فاختلفا ضربتين ، فضربه على فقتله .

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبى طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح بسهم فقتله . فحمل اللواء بعده أخـوه كلاب بن طلحة بن أبى طلحة ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله ، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبى طلحة ، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته . وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح بسهم فقضى عليه .

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد ، بيت أبى طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار ، قتلوا جميعا حول لواء المشركين ، ثم حمله من بنى عبد الدار أرطاة بن شرحبيل ، فقتله على بن أبى طالب ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب ، ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان — وكان منافقا قاتل مع المسلمين حمية لا عن الإسلام — ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدرى ، فقتله قزمان أيضا . ثم حمله ولـد لشرحبيل بن هاشم العبدرى فقتله قزمان أيضا .

فهؤلاء عشرة من بنى عبد الدار — من حملة اللواء — أبيدوا عن آخرهم ، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء . فتقدم غلام لهم حبشى — اسمه صواب — فحمل اللواء وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله فقد قاتل حتى قطعت يداه ، فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط حتى قتل وهو يقول : اللهم أعزرت ؟ يعنى هل أعذرت .

وبعد أن قتل هذا الغلام — صواب — سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد يحمله ، فبقى ساقطا .

القتال فى بقية النقاط :

وبينما كان ثقل المعركة، يدور حول اواء المشركين كان القتال المرير يجرى فى سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين ، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود ، وهم يقولون « أمت ، أمت » كان ذلك شعارا لهم يوم أحد .

أقبل أبو دجانة معلما بعصابته الحمراء، آخذاً بسيف رسول الله صلى الله عايه وسلم ، مصمما على أداء حقه، فقاتل حتى أمعن فى الناس، وجعل لا يلقى مشركا إلا قتله . وأخذ يهد صفوف المشركين هدّا . قال الزبير بن العوام : وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة وقلت أي فى نفسي : أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه : فسألته إياه قبله فآتاه إياه وتركنى ، والله لأنظرن ما يصنع ؟ فاتبعته ، فأخرج عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنـــا الذى عاهدنى خليـــلى	ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لاأقوم الدهر فى الكيول [1]	أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا زفف عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته ، فعضت بسيفه ، فضربه أبو دجانة فقتله [2] .

ثم أمعن أبو دجانة فى هد الصفوف ، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريشـــس ، وهو لايدري بها . قال أبو دجانة : رأيت إنسانـــا يخمش الناس خمشا شديـــدا فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة .

---

(١) الكيول : آخر الصفوف . يعنى أنه لا يقاتل فى مؤخرة الصفوف . بل يظل أبدا فى المقدمة

(٢) ابن هشام ٢ / ٦٨ ، ٦٩

وكانت تلك المرأة هى هند بنت عتبة . قال الزبير بن العوام رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها ، فقلت : الله ورسوله أعلم [1] .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهتاجة ، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير ، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة فى إبادة حاملى لواء المشركين فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صرع وهو فى مقدمة المبرزين ، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجها لوجه فى ميدان القتال ، وإنما كما يغتال الكرام فى حلك الظلام .

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب :

يقول قاتل حمزة وحشى بن حرب : كنت غلاما لجبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحـــد قال لى جبير : إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس — وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئا — فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس هدا ما يقوم له شئ . فوالله إنى لأتهيأ له أريده ، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له : هلم إلى يا ابن مقطعة البظور — وكانت أمه ختانة — قال : فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه [2] .

قال : وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه ، فوقعت فى ثنته — أحشائه — حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحـــوى فغلب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى العسكر ، فقعدت فيه ،

---

(١) نفس المصدر ٢ / ٦٩

(٢) أخطأ رأسه ، يقال عند المبالغة فى الإصابة .

ولم يكن لى بغيره حاجة ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة عتقت [1] .

السيطرة على الموقف :

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التى لحقت المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله . فقد قاتل يومئذ أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع ، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالا فل عزائم المشركين ، وفتت فى أعضادهم .

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة :

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة الغسيل — وهو حنظلة بن أبى عامر ، وأبو عامر هذا هو الراهب الذى سمى بالفاسق والذى مضى ذكره قريبا — كان حنظلة حديث عهد بالعرس ، فلما سمع هواتف الحرب . وهو على امرأته انخلع من أحضانها ، وقام من فوره إلى الجهاد ، فلما التقى بجيش المشركين فى ساحة القتال أخذ يشق الصفوف حتى خلص إلى قائد المشركين أبى سفيان صخر بن حرب ، وكاد يقضى عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة ، فقد شد على أبى سفيان فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله .

نصيب فصيلة الرماة فى المعركة :

وكانت للفصيلة التى عينها الرسول صلى الله عليه وسلم على جبل الرماة يد بيضاء فى إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامى ، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق، ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامى الأيسر حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين ، فيحدثوا البلبلة والارتباك فى

---

(١) ابن هشام ٢ / ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٨٣ — أسلم وحشى هذا بعد معركة الطائف . وقتل مسيلمة الكذاب بحربته تلك ، وشهد اليرموك ضد الرومان .

صفوفهم ، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة ، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث [1] .

الهزيمة تنزل بالمشركين :

هكذا دارت رحى الحرب الزبون ، وظل الجيش الإسلامى الصغير مسيطرا على الموقف كله ، حتى خارت عزائم أبطال المشركين ، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف ، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم لا بضع مئات قلائل ، وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين .

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور ، وانكسرت همتها — حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها الذى سقط بعد مقتل صواب فيحمله ليدور حوله القتال — فأخذت فى الانسحاب ، ولجأت إلى الفرار ، ونسيت ما كانت تتحدث به فى نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام ، وإعادة العز والمجد والوقار .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده : فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها . روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم — سوق — هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير . . إلخ [2]
وفى حديث البراء بن عازب عند البخارى فى الصحيح : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يتشددون فى الجبل ، يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن [3] . وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم .

غلطة الرماة الفظيعة :

وبينما كان الجيش الإسلامى الصغير يسجل مرة أخرى نصرا ساحقا على مكة

(١) أنظر فتح البارى ٧ / ٣٤٦ (٢) ابن هشام ٢ / ٧٧
(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩

لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر ،وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماما ؛ وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، وكادت تكون سببا فى مقتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم ، والهيبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر .

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التى أصدرها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هؤلاء الرماة ،بلزومهم موقفهم من الجبل فى كل حال من النصر أو الهزيمة لكن على رغم هذه الأوامر المشددة ،لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو ، غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا ، فقال بعضهم لبعض : الغنيمة ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟

أما قائدهم عبد الله بن جبير ،فقد ذكرهم أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالا ، وقالت : والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة [1] . ثم غادر أربعون رجلا من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل والتحقوا بسواد الجيش ليشاركوه فى جمع الغنائم . وهكذا خلت ظهور المسلمين ، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه ، التزموا مواقفهم مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا .

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامى :

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية ،فاستدار بسرعة خاطفة حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامى ، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه ، ثم انقض على المسلمين من خلفهم ، وصاح فرسانه صيحة عرف المشركون المنهزمون بالتطور الجديد فانقلبوا على المسلمين ، وأسرعت امرأة منهم – وهى عمرة بنت علقمة الحارثية – فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب ، فالتف حوله المشركون

(١) روى ذلك البخارى من حديث البراء بن عازب ١ / ٤٢٦

ولاثوا به ، وتنادى بعضهم بعضا ، حتى اجتمعوا على المسلمين وثبتوا للقتال ، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف ، ووقعوا بين شقى الرحى .

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ فى مفرزة صغيرة – تسعة نفر من أصحابه (١) – فى مؤخرة المسلمين (٢) ، كان يرقب مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين إذ بوغت بفرسان خالد مباغتة كاملة ، فكان أمامه طريقان ، إما أن ينجو – بالسرعة – بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون ، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور ، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله ، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد .

وهناك تجلت عبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم وشجاعته المنقطعة النظير ، فقد رفع صوته ينادى أصحابه : عباد الله ، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون ، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطرا بنفسه فى هذا الظرف الدقيق .

وفعلا فقد علم به المشركون فخلصوا إليه ، قبل أن يصل إليه المسلمون .

تبدد المسلمين في الموقف :

أما المسلمون فلما وقعوا فى التطويق طار صواب طائفة منهم ، فلم تكن تهمها إلا أنفسها ، فقد أخذت طريق الفرار ، وتركت ساحة القتال ، وهى لا تدرى ماذا وراءها ؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها ، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل ، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين ، والتبس العسكران ، فلم يتميزوا ، فوقع القتل فى المسلمين بعضهم من بعض . روى البخارى عن عائشة قالت :

---

(١) فى صحيح مسلم (٢ / ١٠٧) أنه صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش .

(٢) يدل عليه قوله تعالى : والرسول يدعوكم فى أخراكم . (٣ : ١٥٣)

لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة ، فصاح إبليس : أى عباد الله أخراكم — أى احترزوا من ورائكم — فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم ، فبصر حذيفة ، فإذا هو بأبيه اليمان ، فقال : أى عباد الله أبى أبى . قالت : فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال : عروة فوالله ما زالت فى حذيفة بقية خير حتى لحق بالله (١) .

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى ، وتاه منها الكثيرون ، لا يدرون أين يتوجهون ، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحا يصيح إن محمدا قد قتل . فطارت بقية صوابهم ، وانهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار فى نفوس كثير من أفرادها ، فتوقف من توقف منهم عن القتال ، وألقى بأسلحته مستكينا ، وفكر آخرون فى الاتصال بعبد الله بن أبى — رأس المنافقين — ليأخذ لهم الأمان من أبى سفيان .

ومر بهؤلاء أنس بن النضر ،وقد ألقوا بأيديهم فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ؟ فقال أنس : واها لريح الجنة يا سعد إنى أجده دون أحد ، ثم مضى. فقاتل القوم حتى قتل ، فما عرف حتى عرفته أخته — بعد نهاية المعركة — ببنانه ، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ورمية بسهم (٢) .

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٣٩ ، ٢ / ٥٨١ ، وفتح البارى ٧ / ٣٥١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ وذكر غير البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يديه . فقال حذيفة : تصدقت بديته على المسلمين ، فزاد ذلك حذيفة خيرا عند النبى صلى الله عليه وسلم . انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٤٦

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٣ ، ٩٦ صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩

ونادى ثابت بن الدحداح قومه فقال : يا معشر الأنصار ، إن كان محمد قد قتل ، فإن الله حي لا يموت ، قاتلوا على دينكم ، فإن الله مظفركم وناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار ، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد ، فما زال يقاتلهم حتى قتله خالد بالرمح ، وقتل أصحابه [1] .

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار ، وهو يتشحط فى دمه ، فقال: يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم [2] .

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية ، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم ، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبى وأخذوا سلاحهم ، يهاجمون تيلوات المشركين ، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة ، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبى صلى الله عليه وسلم كذب مختلق ، فزاد ذلك قوة على قوتهم ، فنجحوا فى الإفلات عن التطويق ، وفى التجمع حول مركز منيع بعد أن باشروا القتال المرير ، وجالدوا بضراوة بالغة .

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمل التطويق فى بدايته وفى مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب وغيرهم رضى الله عنهم ، كانوا فى مقدمة المقاتلين ، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة — عليه الصلاة والسلام والتحية — صاروا فى مقدمة المدافعين .

احتدام القتال حول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق ، تطحن بين شقى رحى المشركين ، كان العراك محتدما حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرنا أن

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٢٢

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٦

المشركين لما بدأوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تسعة نفر ، فلما نادى المسلمين : هلم إلى ، أنا رسول الله ، سمع صوته المشركون وعرفوه فكروا إليه وهاجموه ، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ظهرت فيه نوادر الحب والتفانى والبسالة والبطولة .

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو هو رفيقى فى الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضا فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبيه – أى القرشيين – ما أنصفنا أصحابنا [1] .

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن : قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط [2] .

أحرج ساعة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم :

وبعد سقوط ابن السكن بقى الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرشيين فقط ، ففى الصحيحين عن أبى عثمان قال : لم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض تلك الأيام التى يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد (بن أبى وقاص) [3] . وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين ، ولم يتوان المشركون فى انتهاز تلك الفرصة ، فقد ركزوا حملتهم على النبى صلى الله عليه وسلم وطمعوا فى القضاء عليه ، رماه عتبة بن أبى

(١) صحيح مسلم ، باب غزوة أحد ٢ / ١٠٧

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة ، وأدنوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . (ابن هشام ٢ / ٨١)

(٣) صحيح البخارى ١ / ٥٢٧ ، ٢ / ٥٨١

وقاص بالحجارة فوقع لشقه ، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى ، وكلمت شفته السفلى وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهرى، فشجه فى جبهته . وجاء فارس عنيد عبد الله ابن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين ، ثم ضرب على وجنته صلى الله عليه وسلم ضربة أخرى عنيفة كالأولى حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، وقال : خذها وأنا ابن قمئة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لى وهو يمسح الدم عن وجهه : أقمأك الله (١) .

وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته ، وشج فى رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم ، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله عز وجل: « ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » (٢) .

وفى رواية الطبرانى أنه قال يومئذ : اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله ، ثم مكث ساعة ثم قال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون (٣) . وكذا فى صحيح مسلم أنه كان يقول : رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون (٤) ، وفى الشفاء للقاضى عياض أنه قال : اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون (٥) .

ولاشك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن القرشيين سعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة

---

(١) وقد سمع الله دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عائذ أن ابن قمئة « انصرف إلى أهله فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل ، فدخل فيها ، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أدراه من شاهق الجبل فتقطع (فتح البارى ٧ / ٣٧٣) وعند الطبرانى فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح البارى ٧ / ٣٦٦)

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٢ ؛ وصحيح مسلم ٢ / ١٠٨

(٣) فتح البارى ٧ / ٣٧٣

(٤) صحيح مسلم باب غزوة أحد ٢ / ١٠٨

(٥) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٨١

نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير حتى لم يتركا – وهما اثنان فحسب – سبيلا إلى نجاح المشركين في هدفهم ، وكانا من أمهر رماة العرب فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأما سعد بن أبي وقاص، فقد نثل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته وقال : ارم فداك أبي وأمي [1] . ويدل على مدى كفاءته أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجمع أبويه لأحد غير سعد [2] .

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائي عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من الأنصار ، قال جابر : فأدرك المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من للقوم، فقال طلحة : أنا ، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار، وقتلهم واحدا بعد واحد بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة ، قال جابر : ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال : حسن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون ، قال : ثم رد الله المشركين [3] ووقع عند الحاكم في الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعا وثلاثين أو خمسا وثلاثين وشلت إصبعه ، أي السبابة والتي تليها [4]

وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء ، وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد [5] .

وروى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه يومئذ : « من ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » [6] .

(١ ، ٢) صحيح البخاري ١ / ٤٠٧ ، ٢ / ٥٨٠ ، ٥٨١
(٣) فتح الباري ٧ / ٣٦١ ، وسنن النسائي ٢ / ٥٢ ، ٥٣
(٤) نفس المصدر الأول ٧ / ٣٦١
(٥) صحيح البخاري ١ / ٥٢٧ ، ٢ / ٥٨١
(٦) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٦٦ ، ابن هشام ٢ / ٨٦

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة [1] .

وقال فيه أبو بكر أيضا :

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبوأت المها العينا [2]

وفى ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب ، ففى الصحيحين عن سعد ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد . وفى رواية يعنى جبريل وميكائيل [3] .

بداية تجمع الصحابة حول الرسول صلى الله عليه وسلم :

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة فى لحظات خاطفة ، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته صلى الله عليه وسلم — الذين كانوا فى مقدمة صفوف المسلمين عند القتال — لم يكادوا يرون تطور الموقف ، أو يسمعون صوته صلى الله عليه وسلم ، حتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شئ يكرهونه ، إلا أنهم وصلوا وقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لقى من الجراحات — وستة من الأنصار قد قتلوا والسابع قد أثبتته الجراحات ، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح — فلما وصلوا أقاموا حوله سياجا من أجسادهم وسلاحهم ، وبالغوا فى وقايته من ضربات العدو ، ورد هجماتهم . وكان أول من رجع إليه هو ثانيه فى الغار أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

روى ابن حبان فى صحيحه عن عائشة قالت : قال أبو بكر الصديق لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فكنت أول من فاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فرأيت بين يديه رجلا يقاتل عنه ويحميه ، قلت : كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، فلم أنشب أن

---

(١) فتح البارى ٧ / ٣٦١

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٧ / ٨٢ (من هامش شرح شذور الذهب ص ١١٤)

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٠

أدركني عبيدة بن الجراح : وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقني ، فدفعنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا طلحة بين يديه صريعا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دونكم أخاكم فقد أوجب . وقد رمى النبي صلى الله عليه وسلم في وجنته حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، فذهبت لأنزعهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني . قال : فأخذ بفيه فجعل ينضضه كراهية أن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم استل السهم بفيه ، فندرت ثنية أبي عبيدة ، قال أبو بكر : ثم ذهبت لآخذ الآخر . فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني ، قال فأخذه فجعل ينضضه حتى استله . فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دونكم أخاكم ، فقد أوجب ، قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه ، وقد أصابته بضع عشرة ضربة [1].
(وهذا أيضا يدل على مدى كفاءة طلحة ذلك اليوم في الكفاح والنضال) .

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي صلى الله عليه وسلم عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دجانة ،ومصعب بن عمير ،وعلى بن أبي طالب ، وسهل ابن حنيف ، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدرى ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، وقتادة بن النعمان ، وعمر بن الخطاب ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وسهل ابن حنيف ، وأبو طلحة .

تضاعف ضغط المشركين :

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن ، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم وزاد ضغطهم على المسلمين ، حتى سقط رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها ، فجحشت ركبته وأخذ على بيده ، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ، وقال نافع بن جبير سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أحدا فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية رسول الله

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٥

صلى الله عليه وسلم وسطها ؛ كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد ، فلا نجوت ان نجا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ، ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فعاتبه فى ذلك صفوان ، فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله أنه منا ممنوع ، فخرجنا أربعة، فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك (١) .

البطولات النادرة :

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيرا . كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو ؛ قال أنس : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفة له ؛ وكان رجلا راميا شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا ، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول : انثرها لأبى طلحة ، قال : ويشرف النبى صلى الله عليه وسلم ينظر إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك (٢) .

وعنه أيضا قال : كان أبو طلحة يتترس مع النبى صلى الله عليه وسلم بترس واحد . وكان أبو طلحة حسن الرمى ، فكان إذا رمى تشرف النبى صلى الله عليه وسلم فينظر إلى موقع نبله (٣) .

وقام أبو دجانة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترس عليه بظهره . والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك .

وتبع حاطب بن أبى بلتعة عتبة بن أبى وقاص ــ الذى كسر الرباعية الشريفة

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٧

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٨١

(٣) نفس المصدر ١ / ٤٠٦

ـ فضربه بالسيف حتى طرح رأسه . ثم أخذ فرسه وسيفه . وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه ـ عتبة هذا ـ إلا أنه لم يظفر به . بل ظفر به حاطب .

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال ، بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت ، ثم قام بدور فعال فى ذود المشركين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يباشر الرماية بنفسه ، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها ، فأخذها قتادة بن النعمان ، فكانت عنده . وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده. فكانت أحسن عينيه وأحدهما.

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهتم . وجرح عشرين جراحة أو أكثر ، أصابه بعضها فى رجله فعرج .

وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته صلى الله عليه وسلم حتى أنقاه . فقال : مجه . فقال والله لا أمجه أبدا . ثم أدبر يقاتل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا فقتل شهيدا .

وقاتلت أم عمارة فاعترضت لابن قمئة فى أناس من المسلمين ، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحا أجوف ، وضربت هى ابن قمئة عدة ضربات بسيفها . لكن كانت عليه درعان فنجا ، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحا .

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة . يدافع عن النبى صلى الله عليه وسلم هجوم ابن قمئة وأصحابه. وكان اللواء بيده . فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت فأخذ اللواء بيده اليسرى. وصمد فى وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى . ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل . وكان الذى قتله هو ابن قمئة . وهو يظنه رسول الله

– لشبهه به – فانصرف ابن قمئة إلى المشركين ، وصاح إن محمدا قد قتل [1]

إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم وأثره على المعركة :

ولم يمض على هذا الصياح دقائق ، حتى شاع خبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم في المشركين والمسلمين . وهذا هو الظرف الدقيق الذى خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين ، الذين لم يكونوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانهارت معنوياتهم ، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى والاضطراب ، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا فى غاية مرامهم ، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين .

الرسول صلى الله عليه وسلم يواصل المعركة وينقذ الموقف :

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء على بن أبى طالب ، فقاتل قتالا شديدا ، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة يقاتلون ويدافعون .

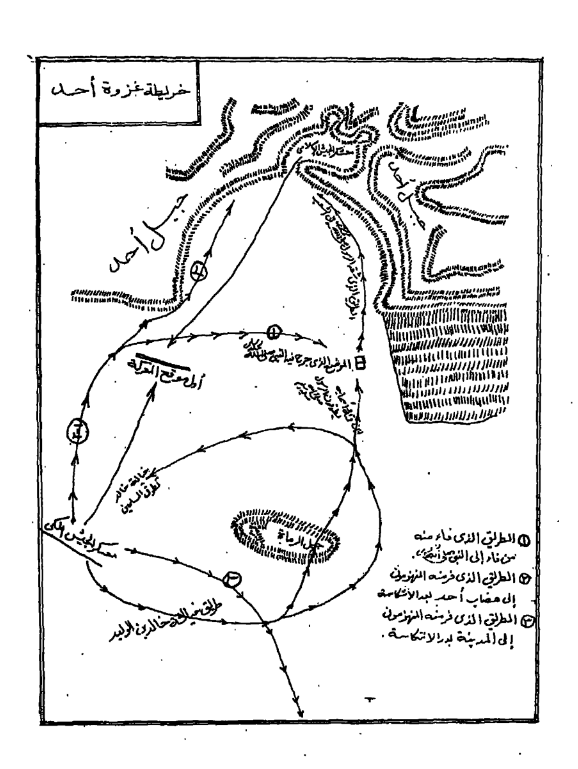
وحينئذ استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق ، فأقبل إليهم ، فعرفه كعب بن مالك – وكان أول من عرفه – فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليه أن اصمت – وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون – إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين ، فلاذ إليه المسلمون حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلا من الصحابة.

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل ، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين ، واشتد المشركون فى هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام .

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة – أحد فرسان المشركين – إلى رسول الله

---

(1) انظر ابن هشام ٢ / ٧٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، وزاد المعاد ٢ / ٩٧


خريطة غزوة أحد
جبل أحد
معسكر الجيش الإسلامي
أول موقع المعركة
جبل الرماة
معسكر الجيش المكي
① الطريق الذى فاء منه
من فاء إلى النبي ﷺ .
② الطريق الذى فر منه المنهزمون
إلى هضاب أحد بعد الانتكاسة
③ الطريق الذى فر منه المنهزمون
إلى المدينة بعد الانتكاسة .

صلى الله عليه وسلم وهو يقول : لا نجوت إن نجا . وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لمواجهته ،إلا أن الفرس عثرت فى بعض الحفر، فنازله الحارث بن الصمة، فضرب على رجله فأقعده ،ثم ذفف عليه ، وأخذ سلاحه ، والتحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعطف عبد الله بن جابر – فارس آخر من فرسان مكة – على الحارث بن الصمة، فضرب بالسيف على عاتقه فجرحه حتى حمله المسلمون ، ولكن انقض أبو دجانة – البطل المغامر ذو العصابة الحمراء – على عبد الله بن جابر ، فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه .

وأثناء هذا القتال المرير، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله،كما تحدث عنه القرآن . قال أبو طلحة : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارا ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه [1] .

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة – فى انسحاب منظم – إلى شعب الجبل وشق لبقية الجيش طريقا إلى هذا المقام المأمون، فتلاحق به فى الجبل ،وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مقتل أبى بن خلف :

قال ابن إسحاق : فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول : أين محمد لا نجوتُ إن نجا ؟ . فقال القوم :يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه ، فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله ، وأبصر ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة فطعنه فيها طعنة تدأدأ – تدحرج – منها عن فرسه مرارا . فلما رجع إلى قريش وقد

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٢

خدشه فى عنقه خدشا غير كبير ، فاحتقن الدم قال : قتلنى والله محمد ، قالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله إن بك من بأس ، قال : إنه قد كان قال لى بمكة : أنـا أقتلك [1] فو الله لو بصق على لقتلنى ، فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة [2] وفى رواية أبى الأسود عن عروة : أنه كان يخور خوار الثور ويقول : والذى نفسى بيده لو كان الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا جميعا [3] .

طلحة ينهض بالنبى صلى الله عليه وسلم :

وفى أثناء انسحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل ، فنهض إليها ليعلوها ، فلم يستطع ، لأنه كان قد بدن وظاهر بين الدرعين وقد أصابه جرح شديد . فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض به حتى استوى عليها وقال : أوجب طلحة [4] ، أى : الجنة .

آخر هجوم قام به المشركون :

ولما تمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقر قيادته فى الشعب قام المشركون بآخر هجوم حـاولوا به النيل من المسلمين . قـال ابن إسحـاق : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل – يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه لاينبغى لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل [5] .

---

(١) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان بمكة كان يلقاه أبى هذا ، فيقول : يامحمد إن عندى العود فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليه ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل أنا أقتلك إن شاء الله .

(٢) ابن هشام ٢ / ٨٤ ، زاد المعاد ٢ / ٩٧

(٣) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الشيخ عبد الله النجدى ص ٢٥٠

(٤) ابن هشام ٢ / ٨٦

(٥) نفس المصدر

وفى مغازى الأموى أن المشركين صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : أجبنهم — يقول : ارددهم — فقال : كيف أجبنهم وحدى؟ فقال ذلك ثلاثا ، فأخذ سعد سهما من كنانته ، فرمى به رجلا فقتله ، قال : ثم أخذت سهمى أعرفه فرميت به آخر ، فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته فهبطوا من مكانهم ؛ فقلت : هذا سهم مبارك ، فجعلته فى كنانتى . فكان عند سعد حتى مات ، ثم كان عند بنيه [1] .

تشويه الشهداء :

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبي صلى الله عليه وسلم . ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئا — بل كانوا على شبه اليقين من قتله — رجعوا إلى مقرهم ، وأخذوا يتهيأون للرجوع إلى مكة ؛ واشتغل من اشتغل منهم — وكذا اشتغلت نساؤهم — بقتلى المسلمين ، يمثلون بهم ، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج ، ويبقرون البطون . وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة ، فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها ، فلفظتها ، واتخذت من الآذان والأنوف خدما — خلاخيل — وقلائد [2] .

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة :

وفى هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال ، ومدى استماتتهم فى سبيل الله .

(١) قال كعب بن مالك : كنت فيمن خرج من المسلمين ، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت ، فإذا رجل من المشركين جمع اللأمة يجوز المسلمين وهو يقول : استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم . وإذا رجل من المسلمين ينتظره ، وعليه لأمته . فمضيت حتى كنت من ورائه ، ثم قمت أقدر

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٥

(٢) ابن هشام ٢ / ٩٠

المسلم والكافر ببصرى ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة . فلم أزل انتظرهما حتى التقيا ، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين ، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة (١) .

(٢) جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة ، قال أنس لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم ، وإنهما لمشمرتان — أرى خدم سوقهما — تنقزان القرب على متونهما تفرغانه في أفــواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنهما ، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم (٢) . وقال عمر : كانت (أم سليط) تزفر لنا القرب يوم أحد (٣) .

وكانت في هؤلاء النسوة أم أيمن ، إنها لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، أخذت تحثو في وجوههم التراب ، وتقول لبعضهم : هاك المغزل ، وهلــم سيفك . ثم سارعت إلى ساحــة القتال ، فأخذت تسقى الجرحى ، فرماها حبــان (بالكسر) ابن العرقة بسهم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهما لا نصل له ، وقال : ارم به ، فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حبان ، فوقع مستلقيا حتى تكشف ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته (٤) .

بعد انتهاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشعب :

ولما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقره من الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس — قيل : هو صخرة منقورة تسع كثيرا

(١) البداية والنهاية ٤ / ١٧
(٢) صحيح البخاري ١ / ٤٠٣ ، ٢ / ٥٨١
(٣) نفس المصدر ١ / ٤٠٣
(٤) السيرة الحلبية ٢ / ٢٢

وقيل : اسم ماء بأحد — فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشرب منه ، فوجد له ريحا فعافه ، فلم يشرب منه وغسل عن وجهه الدم ، وصب على رأسه وهو يقول : اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه (١) .

وقال سهل : والله إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كان يسكب الماء وبما دووى ؟ كانت فاطمة ابنته تغسله ، وعلى بن أبى طالب يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لايزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، فألصقتها ، فاستمسك الدم (٢) .

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ ، فشرب منه النبي صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير (٣) . وصلى الظهر قاعدا من أثر الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعودا (٤) .

شماتة أبى سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر :

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف ،أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه . — وكان النبي صلى الله عليه وسلم منعهم من الإجابة — ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم . فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء . وقد أبقى الله ما يسوءك . فقال : قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسوءنى .

ثم قال : اعل هبل .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٨٥
(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٤
(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٣٠
(٤) ابن هشام ٢ / ٨٧

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تجيبونه ؟ فقالوا : فما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل .

ثم قال : لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تجيبونه ؟ قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ، ولامولى لكم .

ثم قال أبو سفيان : أنعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، والحرب سجال .

فأجابه عمر ، وقال : لاسواء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار .

ثم قال أبوسفيان : هلم إلى يا عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائته فانظر ما شأنه ؟ فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟ قال عمر : اللهم لا . وإنه ليستمع كلامك الآن . قال : أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر [1] .

مواعدة التلاقى فى بدر :

قال ابن إسحاق : ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل : نعم هو بيننا وبينك موعد [2] .

التثبت من موقف المشركين :

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ، فقال : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ ومايريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم . قال

---

(١) ابن هشام ٢ / ٩٣ ، ٩٤ ، زاد المعاد ٢ / ٩٤ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٧٩

(٢) ابن هشام ٢ / ٩٤

على : فخــرجت فى آثارهم أنظر مــاذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة (١) .

تفقد القتلى والجرحى :

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش . قال زيد بن ثابت : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطاب سعد بن الربيع . فقال لى : إن رأيته فأقرئه منى السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجدك؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأتيته وهو بآخر رمق ، وفيه سبعون ضربة : ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام . قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته (٢) .

ووجدوا فى الجرحى الأصيرم – عمرو بن ثابت – وبه رمق يسير ، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه ، فقالوا : إن هذا الأصيرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر ، ثم سألوه : ما الذى جاء بك ؟ أحدب على قومك ، أم رغبة فى الإسلام ؟ فقال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله ورسوله ، ثم قاتلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصابنى ما ترون ، ومات من وقته ، فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هو من أهل الجنة . قال أبو هريرة : ولم يصل لله صلاة قط (٣) .

ووجدوا فى الجرحى قزمان – وكان قد قاتل قتال الأبطال ، قتل وحده سبعة

---

(١) ابن هشام ٢ / ٩٤ ، وفى فتح البارى أن الذى خرج فى آثار المشركين هو سعد بن أبى وقاص (٧ / ٣٤٧)

(٢) زاد المعاد ٢ / ٩٦

(٣) نفس المصدر ٢ / ٩٤ ، وابن هشام ٢ / ٩٠

أو ثمانية من المشركين — وجدوه قد أثبتته الجراحة ، فاحتملوه إلى دار بني ظفر ، وبشره المسلمون فقال : والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلت فلما اشتد به الجراح نحر نفسه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـــول ، إذا ذكر له : إنه من أهل النار [١] — وهذا هو مصير المقاتلين في سبيل الوطنية أو في أي سبيل سوى إعلاء كلمة الله ، وإن قاتلوا تحت لـــواء الإسلام ، بل وفي جيش الرسول والصحابة .

وعلى عكس من هذا كان في القتلى رجل من يهود بني ثعلبة ، قال لقومه : يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبت لكم . فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أصبت فمالي لمحمد . يصنع فيه ما شاء ، ثم غدا فقاتل حتى قتل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مخيريق خير يهود [٢] .

جمع الشهداء ودفنهم :

وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء فقال : أنا شهيد عـــلى هؤلاء ، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة ، يدمى جرحه ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك [٣] .

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة ، فأمر أن يردوهم فيدفنوهم في مضاجعهم وأن لا يغسلوا ، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود وكان يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد ، ويجمع بين الرجلين في ثوب واحد ، ويقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة : ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو بـــن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة [٤] .

---

(١) نفس المصدر الأول ٢ / ٩٧ ، ٩٨ ، وابن هشام ٢ / ٨٨

(٢) ابن هشام ٢ / ٨٨ ، ٨٩ (٣) نفس المصدر ٢ / ٩٨

(٤) زاد المعاد ٢ / ٩٨ ، وصحيح البخاري ٢ / ٥٨٤

وفقدوا نعش حنظلة ، فتفقدوه فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن الملائكة تغسله ، ثم قال : سلوا أهله ما شأنه؟ فسألوا امرأته ، فأخبرتهم الخبر . ومن هنا سمي حنظلة : غسيل الملائكة[1]

ولما رأى ما بحمزة — عمه وأخيه من الرضاعة — اشتد حزنه ، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنها الزبير أن يصرفها ، لاترى ما بأخيها ، فقالت : ولم ؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي . وذلك في الله فما أرضانا بما كان من ذلك . لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله . فأتته فنظرت إليه فصلت عليه — دعت له — واسترجعت واستغفرت له . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفنه مع عبد الله بن جحش — وكان ابن أخته ، وأخاه من الرضاعة .

قال ابن مسعود : ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكيا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب . وضعه في القبلة ، ثم وقف على جنازته ، وانتحب حتى نشع من البكاء[2] — والنشع : الشهيق .

وكان منظر الشهداء مريعا جدا يفتت الأكباد . قال خباب : (إن) حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء ، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه ، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مدت على رأسه ، وجعل على قدميه الإذخر[3] .

وقال عبد الرحمن بن عوف : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، وكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه ، وروى مثل ذلك عن خباب ، وفيه « فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخر »[4] .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٩٤

(٢) رواه ابن شاذان ، انظر مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٥٥

(٣) رواه أحمد ، مشكاة المصابيح ١ / ١٤٠

(٤) صحيح البخاري ٢ / ٥٧٩ ، ٥٨٤

الرسول صلى الله عليه وسلم يثنى على ربه عز وجل ويدعوه :

روى الإمام أحمد ، لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استووا حتى أثنى على ربى عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفا ، فقال :

اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت . اللهم : ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إنى أسألك النعيم المقيم ، الذى لا يحول ولا يزول . اللهم : إنى أسألك العون يوم العيلة . والأمن يوم الخوف . اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا . وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق [1] .

الرجوع إلى المدينة ، ونوادر الحب والتفانى :

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف راجعا إلى المدينة ، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفانى من المؤمنات الصادقات ، كما ظهرت من المؤمنين فى أثناء المعركة .

لقيته فى الطريق حمنة بنت جحش ، فنعى إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، والإمام أحمد فى مسنده ٣ / ٤٢٤

واستغفرت ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن زوج المرأة منها لبمكان [١] .

ومر بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد ، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير إليها حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل – تريد صغيرة [٢] .

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو ، وسعد آخـذ بلجام فرسه ، فقال : يا رسول الله أمي ، فقال : مرحبا بها ، ووقف لها ، فلما دنت عزاها بابنها عمرو ابن معاذ . فقالت : أما إذ رأيتك سالما ، فقد اشتويت المصيبة (أي استقللتها) ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال : يا أم سعد أبشري وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعا ، وقد شفعوا في أهلهم جميعا . قالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكي عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت : يا رسول الله ، ادع لمن خلفوا منهم ، فقال : اللهم اذهب حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، واحسن الخلف على من خلفوا [٣] .

الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة :

وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم مساء ذلك اليوم – يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ – إلى المدينة . فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة ، فقال : اغسلي عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقني اليوم . وناولها علي بن أبي طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضا فاغسلي عنه دمه ، فوالله لقد صدقني اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن كنت صدقت القتال ، لقد صدق معك سهل ابن حنيف وأبو دجانة [٤] .

(١) ابن هشام ٢ / ٩٨ (٢) نفس المصدر ٢ / ٩٩
(٣) السيرة الحلبية ٢ / ٤٧
(٤) ابن هشام ٢ / ١٠٠

قتلى الفريقين :

اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين ، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار ، فقد قتل منهم خمسة وستون رجلا ، واحد وأربعون من الخزرج وأربع وعشرون من الأوس ، وقتل رجل من اليهود . وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط .

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلا ، ولكن الإحصاء الدقيق – بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير ، والتي تتضمن ذكر قتلى المشركين في مختلف مراحل القتال – يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون ، لا اثنان وعشرون . والله أعلم (١) .

حالة الطوارئ في المدينة :

بات المسلمون في المدينة – ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع عن معركة أحد – وهم في حالة الطوارئ ، باتوا – وقد أنهكهم التعب ، ونال منهم أي منال – يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها ، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة . إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب .

غزوة حمراء الأسد :

وبات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يفكر في الموقف ، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئا من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال ، فلا بد من أن يندموا على ذلك ، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية ، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكي .

قال أهل المغازي ما حاصله : إن النبي صلى الله عليه وسلم نادى في الناس ، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو – وذلك صباح الغد من معركة أحد ، أي يوم الأحد

---

(١) انظر ابن هشام ٢ / ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، فتح الباري ٧ / ٣٥١ ، وغزوة أحد لمحمد أحمد باشميل ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

الثامن من شهر شوال سنة ٣هـ – وقال : لايخرج معنا إلا من شهد القتال ، فقال له عبد الله بن أبى : أركب معك ؟ قال : لا ، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد ، والخوف المزيد . وقالوا : سمعا وطاعة . واستأذنه جابر بن عبد الله ، وقال : يا رسول الله ، إنى أحب أن لا تشهد مشهدا إلا كنت معك ، وإنما خلفنى أبى على بناته ، فأذن لى ، أسير معك ، فأذن له .

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك .

وهناك أقبل معبد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم – ويقال : بل كان على شركه ، ولكنه كان ناصحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان بين خزاعة وبنى هاشم من الحلف ، فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك – فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحق أبا سفيان فيخذله .

ولم يكن ما خافه رسول الله صلى الله عليه وسلم من تفكير المشركين فى العودة إلى المدينة إلا حقا ، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئا ، أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم .

ويبدو أن هذا الرأى جاء سطحيا ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديرا صحيحا ، ولذلك خالفهم زعيم مسئول « صفوان بن أمية » قائلا : يا قوم ، لاتفعلوا فإنى أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج – أى من المسلمين فى غزوة أحد – فارجعوا والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم . إلا أن هذا الرأى رفض أمام رأى الأغلبية الساحقة ، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة . ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن

أبى معبد الخزاعى ، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال معبد — وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة — : محمد ، قد خرج فى أصحابه ، يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الحنق عليكم شئ لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : ويحك ، ما تقول ؟

قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل — أو — حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة

فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم .

قال : فلا تفعل ، فإنى ناصح .

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكى، وأخذه الفزع والرعب ، فلم ير العافية إلا فى مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة . بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامى ، لعله ينجح فى كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة . وطبعا فهو ينجح فى الاجتناب عن لقائه . فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال : هل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة ، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيبا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة ؟

قالوا : نعم .

قال : فأبلغوا محمدا أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه .

فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهم بحمراء الأسد فأخبرهم بالذى قاله أبو سفيان ، وقالوا : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم — أى زاد المسلمين قولهم ذلك — إيمانا » وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . »

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد بعد — مقدمه يوم الأحد — الاثنين والثلاثاء والأربعاء — ٩/ ١٠ / ١١ شوال سنة ٣ هـ — ثم رجع إلى المدينة .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحى — وهو الذى كان قد من عليه من أسارى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته على أن لايظاهر عليه أحدا ، ولكنه نكث وغدر ، فحرض الناس بشعره على النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين كما أسلفنا ، وخرج لمقاتلتهم فى أحد — فلما أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا محمد أقلنى ، وامنن على ، ودعنى لبناتى ، وأعطيك عهدا أن لا أعود لمثل ما فعلت ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول : خدعت محمدا مرتين ، لايلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه .

كما حكم بالإعدام فى جاسوس من جواسيس مكة ، وهو معاوية بن المغيرة بن أبى العاص جد عبد الملك بن مروان لأمه ، وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فاستأمن له عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله . فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامى أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش ، فلما رجع الجيش خرج معاوية هاربا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وعمار بن ياسر ، فتعقباه حتى قتلاه [1] .

ومما لاشك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة ، إنما هى جزء من غزوة أحد وتتمة لها ، وصفحة من صفحاتها .

---

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد ، وحمراء الأسد من ابن هشام ٢ / ٦٠ إلى ١٢٩ ، وزاد المعاد ٢ / ٩١ إلى ١٠٨ ، وفتح البارى ٧ / ٣٤٥ إلى ٣٧٧ مع صحيح البخارى ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى من ص ٢٤٢ إلى ٢٥٧ ، وقد أحلنا على المصادر الأخرى فى مواضعها .

تلك هى غزوة أحد بجميع مراحلها وتفاصيلها ، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغــزوة ، هل كانت هزيمة أم لا؟ والذى لايشك فيه أن التفــوق العسكرى فى الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين ، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال ، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت فى جانب المسلمين أكثر وأفدح ، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعا ، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكى ، لكن هناك أمورا تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح .

فمما لاشك فيه أن الجيش المكى لم يستطع احتـــلال معسكر المسلمين، وأن المقدار الكبير من الجيش المدنى لم يلتجئ إلى الفرار — مع الارتباك الشديد والفوضى العامة — بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته ، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكى ، وأن أحدا من جيش المدينة لم يقع فى أسر الكفار ، وأن الكفار لم يحصلوا على شئ من غنائم المسلمين ، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل فى معسكره ، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يوما أو يومين أو ثلاثة أيام — كما هو دأب الفاتحين فى ذلك الزمان — بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال قبل أن يتركها المسلمون، ولم يجترئوا على الدخول فى المدينة لنهب الذرارى والأموال مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب ، وكانت مفتوحة وخالية تماما .

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصــة نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين ، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه مــن إبادة الجيش الإسلامى بعد عمل التطويق — وكثيرا ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التى نالها المسلمون — أما أن ذلك كان نصرا وفتحا فكلا وحاشا .

بل يؤكد لنا تعجيل أبى سفيان فى الانسحاب والانصراف؛ أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال ، ويزداد ذلك تأكدا حين ننظر إلى موقف أبى سفيان من غزوة حمراء الأسد .

وإذن فهذه الغزوة إنما كانت حربا غير منفصلة ، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من

النجـــاح والخسارة ، ثم حاد كل منهما عن القتال ، من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو ، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة . ،

و إلى هذا يشير قوله تعالى : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » (٤ : ١٠٤) فقد شبه أحد العسكرين بالآخر فى التألم وإيقاع الألم ، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين ، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب .

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة :

ونزل القرآن يلقى ضوءا على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة ويدلى بتعليقات تصرح بالأسباب التى أدت إلى هذه الخسارة الفادحة ، وأبدى النواحى الضعيفة التى لم تزل موجودة فى طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم فى مثل هـــذه المواقف الحاسمة ، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التى أنشئت للحصول عليها هذه الأمة التى تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس .

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين ، ففضحهم ،وأبدى ما كان فى باطنهم من العداوة لله ولرسوله مع إزالة الشبهات والوساوس التى كانت تختلج بقلوب ضعفاء المسلمين ،والتى كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود — أصحاب الدس والمؤامرة — وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التى تمخضت عنها هذه المعركة .

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة : « وإذ غدوت من أهلك تبـــوئ المؤمنين مقاعـــد للقتال » (٣ : ١٢١) وتترك فى نهايتها تعليقا جامعا على نتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » (٣ : ١٧٩) .

الحكم والغايات المحمودة فى هذه الغزوة :

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطا تاما [1] . وقال ابن حجر : قال العلماء : وكان فى قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهى ، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذى أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن لايبرحوا منه . ومنها أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة ، والحكمة فى ذلك أنهم لو انتصروا دائما دخل فى المؤمنين من ليس منهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب ، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا عن المسلمين . فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحا ، وعرف المسلمون أن لهم عدوا فى دورهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم . ومنها أن فى تأخير النصر فى بعض المواطن هضما للنفس ، وكسرا لشماختها ، فلما ابتلى المؤمنون صبروا وجزع المنافقون . ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها . ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم ، ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه ، فقيض لهم الأسباب التى يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم فى أذى أوليائه . فمحص بذلك ذنوب المؤمنين ، ومحق بذلك الكافرين [2] .

• • •

(١) انظر زاد المعاد ٢ / ٩٩ إلى ١٠٨

(٢) فتح البارى ٧ / ٣٤٧

السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب

كان لمأساة أحد أثر سئ على سمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم ، وزالت هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين ، وأحاطت الأخطــار بالمدينة من كل جانب . وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر ، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين ، بل طمعت فى أن تقضى عليهم ، وتستأصل شأفتهــم

فلم يمض على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة . ثم قامت قبــائل عضل وقارة فى شهر صفر سنة ٤هـ بمكيدة سببت فى قتل عشرة من الصحابة ، وفى نفس الشهر قامت بنو عامر بمكيــدة مثلها سببت فى قتل سبعين من الصحابة ، وتعرف هذه الوقعة بوقعة بئر معونة ، ولم تزل بنو نضير خلال هــذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت فى ربيع الأول سنة ٤هـ بمكيدة تهدف إلى قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وتجرأت بنو غطفان حتى همت بالغزو على المدينة فى جمادى الأولى سنة ٤هـ .

فريح المسلمين التى كانت قد ذهبت فى معركة أحد تركت المسلمين — إلى حين — يهددون بالأخطار ، ولكن تلك هى حكمة محمد صلى الله عليه وسلم التى صرفت وجوه التيارات وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة ، وأكسبت لهم العلو والمجد من جديد ، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هى حركة المطاردة التى قام بها إلى حمراء الأسد ، فقد حفظ بها مقدارا كبيرا مــن سمعة جيشه ، واستعاد بها من هيبتهم ومكانتهم ما ألقى اليهود والمنافقين فى الدهش والذهول ، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم بل زادت فيها ، وفى الصفحة الآتية شئ من تفاصيلها :

سرية أبى سلمة :

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة ، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلــد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما

يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بعث سرية قوامها مائـة وخمسون مقاتلا من المهاجرين والأنصار ، وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء ، وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم ، فتشتتوا فى الأمر ، وأصاب المسلمون إبلا وشاء لهم فاستاقوها وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربا .

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤هـ ، وعاد أبو سلمة وقد نغر عليه جرح كان قد أصابه فى أحد ، فلم يلبث حتى مات [١] .

بعث عبد الله بن أنيس :

وفى اليوم الخامس من نفس الشهر — المحرم سنة ٤هـ — نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلى يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أنيس ليقضى عليه .

وظل عبد الله بن أنيس غائبا عن المدينة ثمانى عشرة ليلة ، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم ، وقد قتل خالدا وجاء برأسه ، فوضعه بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فأعطاه عصا وقال : هذه آية بينى وبينك يوم القيامة ، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه فى أكفانه [٢] .

بعث الرجيع :

وفى شهر صفر من نفس السنة — أى الرابعة من الهجرة — قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من عضل وقارة ، وذكروا أن فيهم إسلاما ، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين ، ويقرئهم القرآن ، فبعث معهم ستة نفر — فى قول ابن إسحاق وفى رواية البخارى أنهم كانوا عشرة — وأمر عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى — فى قول ابن إسحاق وعند البخارى أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمـر بن الخطاب —

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٠٨

(٢) نفس المصدر ٢ / ١٠٩ ، وابن هشام ٢ / ٦١٩ ، ٦٢٠

فذهبوا معهم فلما كانوا بالرجيع — وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة — استصرخوا عليهم حيا من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فتبعوهم بقرب من مائة رام ، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم ، فأحاطوا بهم — وكانوا قد لجأوا إلى فدفد — وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا . فأما عاصم فأبى من النزول وقاتلهم فى أصحابه ، فقتل منهم سبعة بالنبل ، وبقى خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى ، فنزلوا إليهم ، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، وأبى أن يصحبهم ، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة ، وكانا قتلا من رءوسهم يوم بدر ، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونا ، ثم أجمعوا على قتله ، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم ، فلما أجمعوا على صلبه قال : دعونى حتى أركع ركعتين ، فتركوه فصلاهما ، فلما سلم قال : والله لولا أن تقولوا : إن ما بى جزع لزدت ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا . ولا تبق منهم أحدا ، ثم قال :

لقد أجمع الأحزاب حولى وألبوا	قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم	وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتى بعد كربتى	وما جمع الأحزاب لى عند مضجعى
فذا العرش صبرنى على ما يراد بى	فقد بضعوا لحمى وقد بؤس مطعمى
وقد خيرونى الكفر والموت دونه	فقد ذرفت عيناى من غير مدمع
ولست أبالى حين أقتل مسلما	على أى شق كان فى الله مضجعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ	يبارك على أوصال شلو ممزع

فقال له أبو سفيان : أيسرك أن محمدا عندنا نضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ فقال : لا والله ما يسرنى أنى فى أهلى وأن محمدا فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه .

ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته ، فجاء عمرو بن أمية الضمرى ، فاحتمله بخدعة ليلا ، فذهب به فدفنه ، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث . وكان خبيب قد قتل أباه حارثا يوم بدر .

وفى الصحيح أن خبيبا أول من سن الركعتين عند القتل ، وأنه رئى وهو أسير يأكل قطفا من العنب ، وما بمكة تمرة .

وأما زيد بن الدثنة فأتبعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه .

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشئ من جسده يعرفونه — وكان عاصم قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر — فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر — الزنابير — فحمته من رسلهم ، فلم يقدروا منه على شئ . وكان عاصم أعطى الله عهدا أن لايمسه مشرك ولا يمس مشركا . وكان عمر لما بلغه خبره يقول : يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه فى حياته (١) .

مأساة بئر معونة :

وفى نفس الشهر الذى وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى ، وهى التى تعرف بوقعة بئر معونة .

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك المدعو بملاعب الأسنة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، فقال : يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك ؛ لرجوت أن يجيبوهم ، فقال : إنى أخاف عليهم أهل نجد، فقال أبو براء : أنا جار لهم ، فبعث معه أربعين رجلا — فى قول ابن إسحاق ، وفى الصحيح أنهم كانوا سبعين ، والذى فى الصحيح هو الصحيح — وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب بالمعتق ليموت ، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم ، فساروا يحتطبون بالنهار ، يشترون

(١) ابن هشام ٢ / ١٦٩ إلى ١٧٩ ، وزاد المعاد ٢ / ١٠٩ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٨٥

به الطعام لأهل الصفة ، ويتدارسون القرآن ، ويصلون بالليل ، حتى نزلوا بئر معونة — وهى أرض بين بنى عامر وحرة بنى سليم — فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلم ينظر فيه ، وأمر رجلا فطعنه بالحربة من خلفه ، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام : الله أكبر ، فزت ورب الكعبة .

ثم استنفر عدو الله لفوره بنى عامر إلى قتال الباقين ، فلم يجيبوه لأجل جوار أبى براء ، فاستنفر بنى سليم ، فأجابته عصية ورعل وذكوان ، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار ، فإنه ارتث من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن عقبة بن عامر فى سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة ، فنزل المنذر ، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه ، وأسر عمرو بن أمية الضمرى ، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته ، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه .

ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبى صلى الله عليه وسلم حاملا معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين . تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد ، إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتال واضح ، وأولئك ذهبوا فى غدرة شائنة .

ولما كان عمرو بن أمية فى الطريق بالقرقرة من صدر قناة ، نزل فى ظل شجرة وجاء رجلان من بنى كلاب فنزلا معه ، فلما ناما فتك بهما عمرو ، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه ، وإذا معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشعر به ، فلما قدم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل ، فقال : لقد قتلت قتيلين لأدينهما وانشغل بجمع دياتهم من المسلمين وحلفائهم اليهود (١) وهذا الذى صار سببا لغزوة بنى النضير كما سيذكر .

---

(١) انظر ابن هشام ٢ / ١٨٣ إلى ١٨٨ ، وزاد المعاد ٢ / ١٠٩ ، ١١٠ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٨٤ ، ٥٨٦

وقد تألم النبي صلى الله عليه وسلم لأجل هذه المأساة ، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة [1] تألما شديدا ، وتغلب عليه الحزن والقلق [2] حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه . ففى الصحيح عن أنس قال : دعا النبي صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحا يدعو فى صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية ، ويقول : عصية عصت الله ورسوله ، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنا قرأناه حتى نسخ بعد (بلغوا) قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم قنوته [3] .

غزوة بنى النضير :

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين ، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب . بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة ، ويختارون أنواعا من الحيل ، لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال ، مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق ، وأنهم بعد وقعة بنى قينقاع ، وقتل كعب بن الأشراف خافوا على أنفسهم فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت .

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا ، فكاشوفوا بالعداوة والغدر ، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرا ، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين [4] .

وصبر النبلى صلى الله عليه وسلم حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبى صلى الله عليه وسلم .

وبيان ذلك أنه صلى الله عليه وسلم خرج إليهم من نفر من أصحاب وكلمهم أن

---

(١) ذكر الواقدى أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فى ليلة واحدة .

(٢) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة « مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٦٠ » .

(٣) البخارى ٢ / ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

(٣) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود فى باب خبر النضير ٣ / ١١٦ ، ١١٧ « عون المعبود شرح سنن أبى داود » .

يعينوه فى دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى — وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة — فقالوا : نفعل يا أبا القاسم ، اجلس ههنا حتى نقضى حاجتك فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا ، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلى وطائفة من أصحابه .

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض وسول لهم الشيطان الشقاء الذى كتب عليهم فتآمروا بقتله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحى ، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟ . . فقال أشقاهم عمرو بن جحاش : أنا . فقال لهم سلام ابن مشكم : لا تفعلوا فوالله ليخبرن بما هممتم به ، وإنه لنقض العهد الذى بيننا وبينه، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم .

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله صلى الله عليه وسلم يعلمه بما هموا به ،فنهض مسرعا ،وتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه فقالوا : نهضت ولم نشعر بك ، فأخبرهم بما همت به يهود .

وما لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بعث محمد بن مسلمة إلى بنى النضير يقول لهم : اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها ، وقد أجلتكم عشرا ، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه . ولم يجد يهود مناصا من الخروج ، فأقاموا أياما يتجهزون للرحيل ، بيد أن رئيس المنافقين — عبد الله بن أبى — بعث إليهم أن اثبتوا وتمنعوا . ولا تخرجوا من دياركم ، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم ، فيموتون دونكم « لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم » وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .

وهناك عادت لليهود ثقتهم ، واستقر رأيهم على المناوأة ، وطمع رئيسهم حيى ابن أخطب فيما قاله رأس المنافقين ، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك .

ولا شك أن الموقف كان حرجا بالنسبة إلى المسلمين ، فإن اشتباكهم بخصومهم

فى هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب ، وقد رأيت كلب العرب عليهم ،وفتكهم الشنيع ببعوثهم ، ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال ، وتجعل فرض القتال معهم محفوفا بالمكاره ، إلا أن الحال التى جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التى أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفرادا ،وضاعفت نقمتهم على مقترفيها ، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير — بعد همهم باغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم — مهما تكن النتائج . .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم جواب حيى بن أخطب كبر وكبر أصحابه ثم نهض لمناجزة القوم ، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم ، وعلى بن أبى طالب يحمل اللواء ، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار .

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم ،فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة ، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونا لهم فى ذلك ، فأمر بقطعها وتحريقها ، وفى ذلك يقول حسان :

وهان على سراة بنى لؤى حريق بالبويرة مستطير

البويرة : اسم لنخل بنى النضير ، وفى ذلك أنزل الله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله » (٥٩ : ٥) .

واعتزلتهم قريظة ،وخانهم عبد الله بن أبى وحلفاؤهم من غطفان ، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرا ،أو يدفع عنهم شرا . ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم ، وجعل مثلهم : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك » (٥٩ : ١٦) .

ولم يطل الحصار — فقد دام ست ليال فقط ، وقيل : خمس عشرة ليلة — حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب ،فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح ، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم ، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح .

فنزلوا على ذلك وخربوا بيوتهم بأيديهم ، ليحملوا الأبواب والشبابيك بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف ، ثم حملوا النساء والصبيان ، وتحملوا على ستمائة بعير ، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق إلى خيبر ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام ، وأسلم منهم رجلان فقط يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ، فأحرزا أموالها .

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاح بنى النضير واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم ، فوجد من السلاح خمسين درعا ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفا .

وكانت أموال بنى النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضعها حيث يشاء ، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه ، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما . وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله .

كانت غزوة بنى النضير فى ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة ، أغسطس ٦٢٥ م .

وأنزل الله فى هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها ، فوصف طرد اليهود ، وفضح مسلك المنافقين ، وبين أحكام الفيء ، وأثنى على المهاجرين والأنصار ، وبين جواز القطع والحرق فى أرض العدو للمصالح الحربية ، وأن ذلك ليس من الفساد فى الأرض وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة ، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته .

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر : قل : سورة النضير [١] .

غزوة نجد :

وبهذا النصر الذى أحرزه المسلمون — فى غزوة بنى النضير — دون تضحيات

---

(١) ابن هشام ٢ / ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، زاد المعاد ٢ / ٧١ ، ١١٠ ، صحيح البخارى ٢ / ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

توطد سلطانهم فى المدينة ، وتخاذل المنافقون عن الجهرة بكيدهم ، وأمكن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد ، وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها فى نذالة وكفران [1] ، وبلغت بهم الجـرأة إلى أن أرادوا القيام بجر غزوة على المدينة .

فقبل أن يقـوم النبى صلى الله عليه وسلم بتأديب أولئك الغـادرين نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بنى محارب وبنى ثعلبة مـن غطفان ، فسارع النبى صلى الله عليه وسلم إلى الخروج ، يجوس فيافى نجد ، ويلقى بذور الخوف فى أفئدة أولئك البدو القساة ؛ حتى لا يعاودوا مناكرهم التى ارتكبوها مع المسلمين .

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا فى رءوس الجبـال . وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل المغـيرة وخلطوا بمشاعرهم الرعب ، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين .

وقد ذكر أهل المغازى والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون فى أرض نجد فى شهر ربيع الثانى أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع . أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فلا شك فيه . وهـذا الذى كانت تقتضيه ظروف المدينة ، فإن موسم غزوة بدر التى كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد كان قد اقترب وإخلاء المدينة ، مع ترك البدو والأعراب على تمردهـم وغطرستهم والخروج لمثل هذا اللقاء الرهيب لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعا ، بل كان لابد من خضد شوكتهم ، وكف شرهم قبل الخروج لمثل هذه الحرب الكبيرة التى كانوا يتوقعون وقوعها فى رحاب بدر .

وأما أن تلك الغزوة التى قادها الرسول صلى الله عليه وسلم فى ربيع أو جمادى الأولى سنة ٤هـ هى غزوة الرقاع فلا يصح ، فإن غزوة ذات الرقاع شهدها أبو هريرة

---

(١) كلمة لمحمد الغزالى فى فقه السيرة ص ٢١٤

وأبو موسى الأشعرى رضى الله عنهما ، وكان إسلام أبى هـــريرة قبل غزوة خيبر بأيام ، وكذلك أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه وافى النبى صلى الله عليه وسلم بخيبر . وإذن فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر ، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيها صلاة الخوف ، وكانت أول شرعية صلاة الخوف فى غزوة عسفان ، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق ، وكانت غزوة الخندق فى أواخر السنة الخامسة .

غزوة بدر الثانيـــة :

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب ، وكفكفوا شرهم ، أخـــذوا يتجهـــزون لملاقاة عدوهم الأكبر ، فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قـــريش — فى غزوة أحد — وحق لمحمد صلى الله عليه وسلم وصحبه أن يخرجوا ؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى حتى يستقر الأمر لأحـــدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء [1] .

ففى شعبان سنة ٤هـ يناير سنة ٦٢٦م ، خـــرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لموعده فى ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة وانتهى إلى بدر ، فأقام بها ينتظر المشركين .

وأما أبو سفيان ، فخرج فى ألفين من مشركى مكة ، ومعهم خمسون فرسا ، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة — ماء فى تلك الناحية .

خرج أبو سفيان من مكة متثاقلا يفكر فى عقبى القتال مع المسلمين ، وقد أخذه الرعب ، واستولت على مشاعره الهيبة ، فلما نزل بمر الظهران خـــار عزمه ، فاحتال للرجوع وقال لأصحابه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيـــه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا .

---

(١) كلمة محمد الغزالى فى فقه السيرة ٣١٥

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضا ، فقد رجع الناس ولم يبدو أى مصادمة لهذا الرأى وأى إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين .

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو ، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين ، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيبتهم فى النفوس وسادوا على الموقف .

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد ، وبدر الثانية ، وبدر الآخرة وبدر الصغرى [1]

غزوة دومة الجندل :

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر ، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام ، واطمأنت دولته ، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف ، ويعترف بذلك الموالون والمعادون .

مكث بعد بدر الصغرى فى المدينة ستة أشهر ، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل — قريبا من الشام — تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وأنها قد حشدت جمعا كبيرا تريد أن تهاجم المدينة ، فاستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وخرج فى ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ ، وأخذ رجلا من بنى عذرة دليلا للطريق يقال له مذكور .

خرج يسير الليل ويكمن النهار حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون ، فلما دنا منهم إذا هم مغربون ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم ، فأصاب من أصاب ، وهرب من هرب .

وأما أهل دومة الجندل ففروا فى كل وجـــه ، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحدا ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما ، وبث السرايا وفرق الجيوش ، فلم يصب منهم أحدا ، ثم رجع إلى المدينة ، ووادع فى تلك الغزوة عيينة بن حصن .

ودُومة بالضم ، موضع معروف بمشارف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة .

---

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢ / ٢٠٩ ، ٢١٠ ، زاد المعاد ٢ / ١١٢

بهذه الإقدامات السريعة الحاسمة ، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبى صلى الله عليه وسلم فى بسط الأمن، وتنفيذ السلام فى المنطقة والسيطرة على الموقف ، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين ، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التى كانت قد توالت عليهم ، وأحاطتهم من كل جانب ، فقد سكت المنافقون واستكانوا ، وتم إجلاء قبيلة من اليهود ، وبقيت الأخـــرى تظاهر بإيفاء حق الجـــوار وبإيفاء العهود والمواثيق . واستكانت البدو والأعراب ، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين ، ووجد المسلمون فرصة لإفشاء الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين .

• • •

غـــزوة الأحـــــزاب

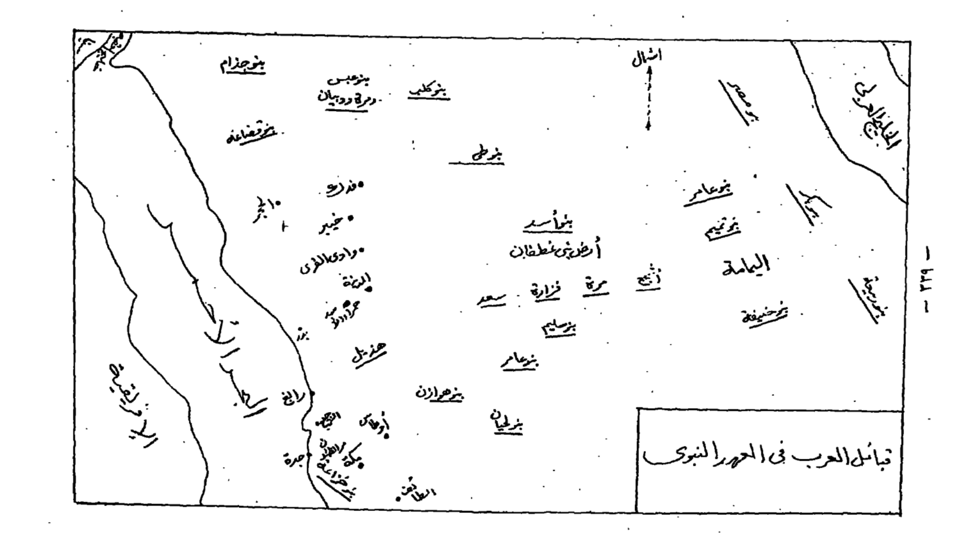
عاد السلام والأمن، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التى استغرقت أكثر من سنة كاملة ، إلا أن اليهود — الذين كانوا قد ذاقوا ألوانا من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم — لم يفيقوا من غيهم . ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر . فبعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين نتيجة المناوشات التى كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين ، ولمـــا تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين ،وتمخضت الليالى والأيام عن بسط نفوذهم ،وتوطد سلطانهم تحرق هؤلاء اليهود أى تحرق .

وشرعوا فى التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة،لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لاحياة بعدها . ولما لم يكونوا يجدون فى أنفسهم جرأة على مناورة المسلمين مباشرة ، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة .

خرج عشرون رجلا من زعماء اليهود وسادات بنى النضير إلى قريش بمكة ، يحرضونهم على غزو الرسول صلى الله عليه وسلم،ويوالونهم عليه ، ووعدوهم مـــن أنفسهم بالنصر لهم فأجابتهم قريش ، وقريش قد أخلفت وعدها فى الخروج إلى بدر فرأت فى ذلك إنقاذ سمعتها والبر بكلمتها .

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان ، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشا فاستجابوا لذلك ثم طاف الوفد فى قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك ، فاستجاب له من استجاب،وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته والمسلمين .

وفعلا خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة — وقائدهم أبو سفيان — فى أربعة آلاف،ووافاهم بنو سليم بمر الظهران ، وخرجت من الشرق قبائل غطفان : بنو فزارة ، يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو مرة ، يقودهم الحارث ابن عوف ، وبنو أشجع يقودهم مسعر بن رخيلة كما خرجت بنو أسد وغيرها .


قبائل العرب في العصر النبوي
الشمال
بنو جذام
بنو عبس
ومرة وذبيان
بنو كلب
بنو قضاعة
بنو طي
فدك
الحجر
خيبر
وادي القرى
المدينة
هذيل
رابغ
أوطاس
جدة
مكة
الطائف
بنو هوازن
بنو عامر
بنو سليم
سعد
فزارة
مرة
أشجع
أرض بني غطفان
بنو أسد
بنو عامر
بنو تميم
اليمامة
بنو حنيفة

واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه.

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عـــدده عشرة آلاف مقاتل . جيش ربما يزيد عدده على جميع من فى المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ

ولو بلغت هذه الأحزاب المحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس . ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة ،لم تزل واضعة أناملها على العـــروق النابضة ، تتجسس الظروف وتقدر ما يتمخض عن مجراها ،فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير .

وسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عقد مجلس استشارى أعلى ،تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة ، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى اتفقوا على قرار قدمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضى الله عنه . قال سلمان : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا — وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك .

وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تنفيذ هذه الخطة ، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعا .

وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحثهم ويساهمهم فى عملهم هذا . ففى البخارى عن سهل بن سعد ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخندق ، وهم يحفرون ، ونحن ننقل التراب على أكتادنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار(١)

وعن أنس : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرين

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة الخندق ٢ / ٥٨٨

والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم . فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا (١)

وفيه عن البراء بن عازب قال : رأيته صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل من التراب ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى رغبوا علينا   وإن أرادوا فتنة أبينا

قال : ثم يمد بها صوته بآخرها ، وفي رواية :

إن الأولى قد بغوا علينا   وإن أرادوا فتنة أبينا (٢)

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع ،ما يفتت الأكباد قال أنس : (كان أهل الخندق) يؤتون بملء كفي من الشعير فيصنع لهم بإهالة سخنة توضع بين يدى القوم ، والقوم جياع ، وهي لشعة في الحلق ولها ريح (٣) .

وقال أبو طلحة : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين (٤) .

وبهذه المناسبة وقع في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة ، رأى جابر بن عبد الله في النبي صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا فذبح بهيمة وطحنت امرأته صاعا من

---

(١) صحيح البخاري / ٣٩٧ ، ٢ / ٥٨٨
(٢) نفس المصدر ٢ / ٥٨٩
(٣) نفس المصدر ٢ / ٥٨٨
(٤) رواه الترمذي مشكاة المصابيح ٢ / ٤٤٨

شعير ثم التمس من رسول الله صلى الله عليه وسلم سرا أن يأتى فى نفر من أصحابه ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم بجميع أهل الخندق ، وهم ألف فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا ، وبقيت برمة اللحم تغط به كما هى ، وبقى العجين يخبز كما هـو [1] وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغدى أبوه وخاله ، فمرت برسول الله صلى الله عليه وسلم فطلب منها التمر وبدده فوق ثوب ، ثم دعا أهـل الخندق فجعلوا يأكلون منه . وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه يسقط من أطراف الثوب [2] .

وأعظم من هذين ما رواه البخارى عن جابر قال : إنا يوم خندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر — ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقا — فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول، فضرب فعاد كثيبا أهيل أو أهيم [3] أى صار رمـلا لا يتماسك .

وقال البراء : لما كان يوم الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء وأخذ المعول فقال : بسم الله ثم ضرب ضربة ، وقال : الله أكـبر أعطيت مفاتيح الشام والله إنـى لأنظر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية فقطع آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت فارس والله إنى لأبصر قصر المـدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى [4] .

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسى رضى الله عنه [5] .

---

(١) روى ذلك البخارى ٢ / ٥٨٨ ، ٥٨٩
(٢) ابن هشام ٢ / ٢١٨
(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥٨٨
(٤) سنن النسائى ٢ / ٥٦ ، وأحمد فى مسنده واللفظ ليس للنسائى ، وفيه عن رجل من الصحابة .
(٥) ابن هشام ٢ / ٢١٩

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم كخبير عسكرى حاذق أن زحف مثل هذا الجيش الكبير ، ومهاجمة المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال ، اتخذ الخندق فى هـذا الجانب .

وواصل المسلمون عملهم فى حفره ، فكانوا يحفرونه طول النهار ، ويرجعون إلى أهليهم فى المساء ، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة ، قبل أن يصل الجيش الوثنى العرمرم إلى أسوار المدينة [١] .

وأقبلت قريش فى أربعة آلاف ، حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزعابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد فى ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد .

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » . (٣٣ : ٢٢) .

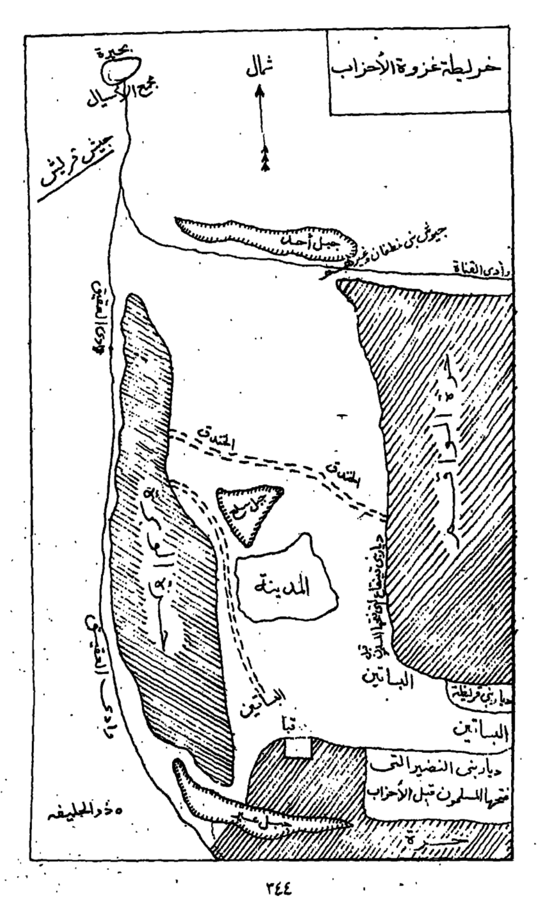
وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » (٣٣ : ١٢) .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به ، والخندق بينهم وبين الكفار . وكان شعارهم حم لا ينصرون ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر بالنساء والذرارى فجعلوا فى آطام المدينة .

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة ، وجدوا خندقا عريضا يحول بينهم وبينها ، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين ، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم ، إذ كانت هذه الخطة — كما قالوا — مكيدة ما عرفتها العرب . فلم يكونوا أدخلوها فى حسابهم رأسا .

---

(١) نفس المصدر ٣ / ٣٣٠ ، ٣٣١


خريطة غزوة الأحزاب
شمال
بحيرة
مجمع الأسيال
جيش قريش
جبل أحد
جيوش بني غطفان وغيرهم
وادي القناة
وادي العقيق
الخندق
الخندق
جبل سلع
المدينة
البساتين
ديار بني قريظة
البساتين
البساتين
قبا
ديار بني النضير التي
فتحها المسلمون قبل الأحزاب
جبل عير
ذو الحليفة
وادي العقيق
حرة

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابا، يتحسسون نقطة ضعيفة، لينحدروا منها ، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين ، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه ، ولا يستطيعوا أن يقتحموه ، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقا يمكنهم من العبور .

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى فى ترقب نتائج الحصار ، فإن ذلك لم يكن من شيمهم ، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم ، فتيمموا مكانا ضيقا من الخندق فاقتحموه ، وجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج على ابن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له على بن أبى طالب ،وقال كلمة حمى لأجلها—وكان من شجعان المشركين وأبطالهم — فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على على فتجاولا وتصاولا حتى قتله على رضى الله عنه ، وانهزم الباقون حتى اقتحموا من الخندق هاربين وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو .

وقد حاول المشركون فى بعض الأيام محاولة بليغة، لاقتحام الخندق، أو لبناء الطرق فيها ، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ، ورشقوهم بالنبل وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون فى محاولتهم .

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ـ ففى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه : أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، فجعل يسب كفار قريش . فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وأنا والله ما صليتها ، فنزلنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بطحان ، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب [1] .

وقد استاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لفوات هذه الصلاة حتى دعا على

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٩٠

المشركين ففى البخارى عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم الخندق : ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس [1]

وفى مسند أحمد والشافعى أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهن جميعا . قال النووى : وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياما فكان هذا فى بعض الأيام ، وهذا فى بعضها . انتهى [2] .

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين ، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياما ، إلا أن الخندق لما كان حائلا بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر وحرب دامية ، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة .

وفى هذه المراماة قتل رجال من الجيشين، يعدون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين ، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف .

وفى هذه المراماة رمى سعد بن معاذ رضى الله عنه بسهم فقطع منه الأكحل ، رماه رجل من قريش يقال له حبان بن العرقة فدعا سعد : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه ، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقى من حرب قريش شئ فأبقنى لهم حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتى فيهـا [3] وقال فى آخر دعائه ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة [4] .

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعى الدس والتآمر تتقلب فى جحورها ، تريد إيصال السم داخل أجسادهم . انطلق كبير مجرمى بنى النضير إلى ديار بنى قريظة فأتى كعب بن أسد القرظى ــ سيد بنى قريظة، وصاحب عقدهم وعهدهم ، وكان قد عاقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصره إذا

---

(١) نفس المصدر

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٨٧ ، وشرح مسلم للنووى ١ / ٢٢٧

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٥٩١

(٤) ابن هشام ٣ / ٢٣٧

أصابته حرب كما تقدم - فضرب عليه حيي الباب فأغلقه كعب دونه ، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ، فقال حيي : إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه .

فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ، ليس فيه شئ . ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء .

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب ، حتى سمح له على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقا : لئن رجعت قريش وغطفان ، ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين ، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين [1] .

وفعلا قد قامت يهود بني قريظة بعمليات الحرب . قال ابن إسحاق : كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان ، قالت صفية : فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في غور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا آت ، قالت : فقلت : يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . قال : والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قالت : فاحتجزت ثم أخذت عمودا ، ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، ثم رجعت إلى الحصن وقلت : يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل قال : ما لي بسلبه من حاجة [2] .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢٢٠ ، ٢٢١

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٢٨

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة الرسول صلى الله عليه وسلم أثر عميق في حفظ ذرارى المسلمين ونسائهم ، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون فى منعة من الجيش الإسلامى — مع أنها كانت خالية عنهم تماما — فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل ، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن كدليل عملى على انضمامهم إليهم ضد المسلمين ، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملا .

وانتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه ، حتى يستجلى موقف قريظة فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية ، وبعث لتحقيق الخبر السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ، وقال : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا لى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس . فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون ، فقد جاهروهم بالسب والعداوة ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ، ولا عقد فانصرفوا عنهم ، فلما أقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لحنوا له ، وقالوا : عضل وقارة ، أى أنهم على غدر ، كغدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع .

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تفطن الناس لجلية الأمر ، فتجسد أمامهم خطر رهيب .

وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون ، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شئ يمنعهم من ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه ، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين فى غير منعة وحفظ ، وصاروا كما يقول الله تعالى : «وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا» (٣٣ : ١٠ : ١١) ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى

وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وحتى قال بعض آخر في ملأ من رجال قومه: إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج المدينة ، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وفي هؤلاء أنزل الله تعالى: « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون : إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فرارا » . (٣٣ : ١٢ ، ١٣) .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقنع بثوبه حين أتاه غدر قريظة ، فاضطجع ومكث طويلا حتى اشتد على الناس البلاء ، ثم غلبته روح الأمل فنهض يقول : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة لئلا يؤتى الذراري والنساء على غرة ، ولكن كان لا بد من إقدام حاسم ، يفضي إلى تخاذل الأحزاب ، وتحقيقا لهذا الهدف أراد أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة حتى ينصرفا بقومهما، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة على قريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مرارا ، وجرت المراوضة على ذلك ، فاستشار السعدين في ذلك ، فقالا : يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعا وطاعة ، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ والله لا نعطيهم إلا السيف ، فصوب رأيهما وقال : إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة .

ثم إن الله عز وجل — وله الحمد — صنع أمرا من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم ، وفل حدهم ، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلا من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي — رضي الله عنه — جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت

فإن الحرب خدعة ، فذهب من فوره إلى بنى قريظة — وكان عشيرا لهم فى الجاهلية — فدخل عليهم وقال : قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم ، قالوا : صدقت قال : فإن قريشا ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغوه فإن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم ، قالوا فما العمل يا نعيم ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش وقال لهم : تعلمون ودى لكم ونصحى لكم ؟ قالوا : نعم ، قال : إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم ، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم ، ثم ذهب إلى غطفان ، فقال لهم مثل ذلك .

فلما كان ليلة السبت من شوال — سنة ٥هـ — بعثوا إلى يهود : أنا لسنا بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف ، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدا ، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن . فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان صدقكم والله نعيم ، فبعثوا إلى يهود أنا والله لا نرسل إليكم أحدا ، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدا . فقالت قريظة : صدقكم والله نعيم . فتخاذل الفريقان ، ودبت الفرقة بين صفوفهم ، وخارت عزائمهم .

وكان المسلمون يدعون الله تعالى : « اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب ، فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » [1] .

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين فبعد أن دبت الفرقة فى صفوف المشركين

---

(١) صحيح البخارى كتاب الجهاد ١ / ٤١١ ، وكتاب المغازى ٢ / ٥٩٠

وسرى بينهم التخاذل أرسل الله عليهم جندا من الريح فجعلت تقوض خيامهم ، ولا تدع لهم قدرا إلا كفأتها ، ولا طنبا إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار ، وأرسل جندا من الملائكة يزلزلونهم ، ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف .

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال ،وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فأخبره برحيل القوم ،فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيرا وكفاه الله قتالهم ،فصدق وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فرجع إلى المدينة .

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة فى شوال على أصح القولين ، وأقام المشركون محاصرين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين شهرا أو نحـــو شهر ، ويبدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت فى شوال ،ونهايته فى ذى القعدة ، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة .

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل كانت معركة أعصاب ، لم يجر فيها قتال مرير إلا أنها كانت من أحسم المعارك فى تاريخ الإسلام تمخضت عن تخاذل المشركين ، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التى تنمو فى المدينة ، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتى بجمع أقوى مما أتت به فى الأحزاب ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجلى الله الأحزاب : « الآن نغزوهم لا يغزونا ، نحن نسير إليهم »[1] .

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٩٠

غـــزوة بني قريظة

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله إلى المدينة ، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر ، وهو يغتسل في بيت أم سلمة ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، فانهض بمن معك إلى بني قريظة ، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم ، وأقذف في قلوبهم الرعب ، فسار جبريل في موكبه من الملائكة .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنـــا فأذن في الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة واستعمل على المدينة ابن مكتوم ، وأعطى الراية على بن أبي طالب ، وقدمه إلى بني قريظة فسار على حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في موكبه من المهاجرين والأنصار حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها بئر أنا . وبادر المسلمون إلى امتثال أمره ، ونهضوا من فورهم ، وتحركوا نحو قريظة ، وأدركتهم العصر في الطريق فقال بعضهم : لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا حتى أن رجالا منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة وقال بعضهم : لم يرد منا ذلك ، وإنما أراد سرعة الخروج ، فصلوها في الطريق ، فلم يعنف واحدة من الطائفتين .

هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بني قريظة أرسالا حتى تلاحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهم ثلاثة آلاف ، والخيل ثلاثون فرسا ، فنازلوا حصون بني قريظة وفرضوا عليهم الحصار .

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال : إما أن يسلموا ، ويدخلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم في دينه فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم — وقد قال لهم : والله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ، وأنه الذي تجدونه في كتابكم — وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم ، بأيديهم ويخرجوا إلى النبي صلى

الله عليه وسلم بالسيوف مصلتين، يناجزونه حتى يظفروا بهم ، أو يقتلوا عن آخرهم وإما أن يهجموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ويكبسوهم يوم السبت لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه ، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث ، وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد (فى انزعاج وغضب) مابات رجـل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين ، لعلهـم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشيره وكان حليفا لهم ، وكانت أمواله وولده فـى منطقتهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فرق لهم ، وقالوا : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ! وأشار بيده إلى حلقه يقول إنه الذبح ، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه ، ولم يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة ، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وأنه لايدخل أرض بنى قريظة أبدا . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره — وكان قد استبطأه — قال : أما إنه لو جاء نى لاستغفرت له ، أما إذ قد فعل مافعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله إليه .

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون ، ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم فى العراء مع شدة التعب الذى اعتراهم؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب.. إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب ، فقد قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وأخذت معنوياتهم تنهار ، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم على

ابن أبى طالب ، والزبير بن العوام وصاح على : ياكتيبة الإيمان،والله لأذوقن ماذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم .

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمـــر رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتقال الرجال،فوضعت القيود فى أيديهم تحت إشراف محمد بن سلمة الأنصارى ، وجعلت النساء والذرارى بمعزل عن الرجال فى ناحية ، وقامت الأوس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله قد فعلت فى بنى قينقاع ماقد علمت وهم حلفاء إخواننا الخزرج ، وهؤلاء موالينا ، فأحسن فيهم ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال : فذاك إلى سعد ابن معاذ . قالوا : قد رضينا .

فأرسل إلى سعد بن معاذ ، وكان فى المدينة ، لم يخرج معهم للجرح الذى كان أصاب أكحله فى معركة الأحزاب . فأركب حمارا،وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،فجعلوا يقولون وهم كنفيه : ياسعد أجمل فى مواليك فأحسن فيهم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكمك لتحسن فيهم ، وهو ساكت لايرجع إليهم شيئا ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لاتأخذه فى الله لومة لائم ، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم .

ولما انتهى سعد إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال للصحابة : قوموا إلى سيدكم فلما أنزلوه قالوا : ياسعد إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك . قال : وحكمى نافذ عليهم ؟ قالوا : نعم . وقال : وعلى المسلمين ؟ قالوا نعم . قال : وعلى من ههنا ؟ — وأعـــرض بوجهه ، وأشار إلى ناحية رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له وتعظيما — قال : نعم وعلى . قال : فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال ، وتسبى الذرية ، وتقسم الأموال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات .

وكان حكم سعد فى غاية العدل والإنصاف، فإن بنى قريظة بالإضافة إلى ماارتكبوا

من الغدر الشنيع كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفا وخمسمائة سيف ، وألفين من الرماح وثلاثمائة درع وخمسمائة ترس وجحفة ، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبست بنو قريظة فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار ، وحفرت لهم خنادق فى سوق المدينة . ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالا أرسالا ، وتضرب فى تلك الخنادق أعناقهم . فقال من كان بعد فى الحبس لرئيسهم كعب بن أسد : ماتراه يصنع بنا ؟ فقال : أفى كل موطن لاتعقلون أما ترون الداعى لاينزع ؟ والذاهب منكم لايرجع ؟ هو والله القتل – وكانوا مابين الستمائة الى السبعمائة فضربت أعناقهم .

وهكذا تم استئصال أفاعى الغدر والخيانة ، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد ، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين فى أحرج ساعة كانوا يمرون بها فى حياتهم – وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمى الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام

وقتل مع هؤلاء شيطان بنى النضير ، وأحد أكابر مجرمى معركة الأحزاب حيى بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضى الله عنها ، كان قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب ، فلما أتى به – وعليه حلة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يسلبها – مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله مالمت نفسى فى معاداتك ، ولكن من يغالب الله يغلب . ثم قال : أيها الناس ، لابأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ثم جلس ، فضربت عنقه .

وقتل من نسائهم امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته ، فقتلت لأجل ذلك .

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنبت ، وترك من لم ينبت ، فكان ممن لم ينبت عطية القرظى ، فترك حيا ، فأسلم وله صحبة .

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله — وكانت للزبير يد عند ثابت فوهبهم له فقال له ثابت بن قيس قد وهبك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ، ووهب لى مالك وأهلك فهم لك . فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه : سألتك بيدى عندك ياثابت إلا ألحقتنى بالأحبة ، فضرب عنقه ، وألحقه بالأحبة من اليهود ، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير ، فأسلم وله صحبة واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموأل القرظى فوهبه لها فاستحيته فأسلم وله صحبة

وأسلم منهم تلك الليلة نفسر قبل النزول فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم وخرج تلك الليلة عمرو — وكان رجلا لم يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم — فرآه محمد بن سلمة قائد الحرس النبوى ، فخلى سبيله حين عرفه فلم يعلم أين ذهب .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بنى قريظة بعد أن أخرج منها الخمس فأسهم للفارس ثلاثة أسهم ، سهمان للفـــرس وسهم للفارس ، وأسهم للراجل سهما واحداً ، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصارى . فابتاع بها خيلا وسلاحاً .

واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو ابن خناقة فكانت عنده حتى توفى عنها وهى فى ملكه ، هذا ماقاله ابن إسحاق [١] وقال الكلبى : إنه صلى الله عليه وسلم أعتقها ، وتزوجها سنة ٦هـ ، وماتت مرجعه مـــن حجة الوداع فدفنها بالبقيع [٢] .

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضى الله عنه — التى قدمنا ذكرها فى غزوة الأحزاب — وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد ضرب له خيمة فى المسجد ليعوده من قريب ، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته : قالت عائشة : فانفجرت من لبته فلم يرعهم — وفى المسجد خيمة من بنى غفار — إلا والدم يسيل

---

(١) انظر ابن هشام ٢ / ٢٤٥

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٢

إليهم ، فقالوا : ياأهل الخيمة ، ماهذا يأتينا من قبلكم ، فإذا سعد يغذو جرحه دما فمات منهـــا [1] .

وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ [2] . وصحح الترمذي من حديث أنس :قال : لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخف جنازته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة كانت تحمله » [3] .

قتل في حصار بني قريظة رجل واحد من المسلمين ، وهو خلاد بن سويد ، الذي طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة . ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخـــو عكاشة .

أما أبو لبابة ، فأقام مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع ، ثم نزلت توبته على رسول الله صلى الله عليه وسلم سحرا ، وهو في بيت أم سلمة ، فقامت على باب حجرتها وقالت لي : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، فثار الناس ليطلقوه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مر النبي صلى الله عليه وسلم خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

وقعت هذه الغزوة في ذي القعدة سنة ٥هـ ، ودام الحصار خمسا وعشرين ليلة [4]

وأنزل الله تعالى في غزوة الأحزاب وبني قريظة آيات من سورة الأحزاب ، علق فيها على أهم جزئيات الوقعة بين حال المؤمنين والمنافقين ، ثم تخذيل الأحزاب ، ونتائج الغدر من أهل الكتاب .

---

(١) صحيح البخاري ٢ / ٥٩١

(٢) صحيح البخاري ١ / ٥٣٦ ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٩٤ ، وجامع الترمذي ٢ / ٢٢٥

(٣) جامع الترمذي ٢ / ٢٢٥

(٤) ابن هشام ٢ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، وانظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢ / ٢٣٣ إلى ٢٧٣ وصحيح البخاري ٢ / ٥٩٠ ، ٥٩١ ، زاد المعاد ٢ / ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠

النشاط العسكرى بعد هذه الغزوة

مقتل سلام بن أبى الحقيق

كان سلام بن أبى الحقيق – وكنيته أبو رافع – من أكابر مجرمى اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة [1]، وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله – وكان قتل كعب بن الأشرف على أيدى رجال من الأوس، فرغبت الخزرج فى إحراز فضيلة مثل فضيلتهم فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان .

وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله، ونهى عن قتل النساء والصبيان، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال، كلهم من بنى سلمة من الخزرج، قائدهم عبد الله بن عتيك .

خرجت هذه المفرزة، واتجهت نحو خيبر، إذ كان هناك حصن أبى رافع، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم قال عبد الله بن عتيك لأصحابه اجلسوا مكانكم، فإنى منطلق ومتلطف للبواب، لعلى أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب : يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإنى أريد أن أغلق الباب .

قال عبد الله بن عتيك : فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على ود [2] قال : فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان فى علالى له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل. قلت: إن القوم لو نذروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله، لا أدرى أين هو من

---

(١) انظر فتح البارى ٧ / ٣٤٣

(٢) أى المفاتيح على وتد

البيت . قلت : أبا رافع ، قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش ، فما أغنيت شيئاً ، وصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ، ثم دخلت إليه ، فقلت : وما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال : لأمك الويل ، إن رجلا في البيت ضربني قبل بالسيف ، قال : فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله . ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره ، فعرفت أني قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا ، حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلي،وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض ،فوقعت في ليلة مقمرة،فانكسرت ساقي ، فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتى جلست على الباب . فقلت : لاأخرج الليلة حتى أعلم أقتلته ؟ فلما صاح الديك صاح الناعي على السور فقال : أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاء فقد قتل الله أبا رافع . فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فحدثته فقال : ابسط رجلك ، فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم أشتكها [١] .

هذه رواية البخاري ، وعند ابن إسحاق أن جميع النفر دخلوا على أبي رافع واشتركوا في قتله،وأن الذي تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس ، وفيه أنهم لما قتلوه ليلا،وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه،وأتوا منهرا من عيونهم، فدخلوا فيه ، وأوقد اليهود النيران ، واشتدوا في كل وجه حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم ، وأنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] .

كان مبعث هذه السرية فيذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٥هـ [٣] .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحزاب وقريظة واقتص من مجرمي

---

(١) صحيح البخاري ٢ / ٥٧٧

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٣) رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٣ مع مايؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة في غزوة الأحزاب وقريظة .

الحروب أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب ، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة .

سرية محمد بن مسلمة :

كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة ، وكان عدد قوات هــذه السرية ثلاثين راكبا .

تحركت هذه السرية إلى القرطاء بناحية ضرية بالبكرات من أرض نجد وبين ضرية والمدينة سبع ليال ، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦هـ إلى بطن بنى بكر ابن كلاب . فلما أغارت عليهم هرب سائرهم فاستاق المسلمون نعما وشاء ، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثمامة بن أثال الحنفى سيد بنى حنيفة ، كان قد خرج متنكرا لاغتيال النبى صلى الله عليه وسلم بأمــر مسيلمة الكذاب (١) فأخــذه المسلمون ، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ماعندك ياثمامة ؟ فقال : عندى خير يامحمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ماشئت ، فتركه ، ثم مرّ به مرة أخرى ، فقال له مثل ذلك ، فرد عليه كما رد عليه أولا ، ثم مر مرة ثالثة فقال :ــ بعد مادار بينهما الكلام السابق ــ أطلقوا ثمامة ، فأطلقوه ، فذهب إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم وقال : والله ماكان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، ووالله ماكان على وجه الأرض دين أبغض على من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلى ، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة ، فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يعتمر فلما قدم على قريش قالوا : صبأت ياثمامة ، قال : لا والله ولكنى أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا والله لايأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت يمامة ريف مكة ، فانصرف إلى بلاده ، ومنع الحمل إلى

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٢٩٧

مكة ، حتى جهدت قريش ، وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

غـــزوة بنى لحيـــان :

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجيع ، وتسببوا في إعدامهم ، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة . والثارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، لم يكن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر ، فلمـــا تخاذلت الأحزاب ، واستوهنت عزائمهم واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع ، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦هـ في مائتين من أصحابه ، واستخلف عـــلى المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام ، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران واد بين أمج وعسفان ، حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم ، وسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد . فأقام يومين بأرضهم ، وبعث السرايا ، فلم يقـــدروا عليهم ، فسار إلى عسفان ، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش ، ثم رجع إلى المدينة . وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة .

متابعة البعوث والسرايا :

ثم تابع رسول الله صلى الله عليه وسلم في إرسال البعوث والسرايا . وهـــاك صورة مصغرة منها :

١ ــ سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ . خرج عكاشة في أربعين رجلا إلى الغمر ، ماء لبني أسد ، ففر القوم ، وأصاب المسلمون مائتي بعير ساقوها إلى المدينة .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١١٩ ، مختصر سيرة الرسول الشيخ عبد الله النجدي ص ٢٩٢ ، ٢٩٣

٢ ـ سرية محمد بن مسلمة إلى ذى القصة فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ ، خرج ابن مسلمة فى عشرة رجال إلى القصة فى ديار بنى ثعلبة ، فكمن القوم لهم ـ وهم مائة ـ فلما ناموا قتلوهم إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحا .

٣ ـ سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى ذى القصة فى ربيع الآخر سنة ٦هـ وقد بعثه النبى صلى الله عليه وسلم على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة ، فخرج ومعه أربعون رجلا إلى مصارعهم ،فساروا ليلتهم مشاة ، ووافوا بنى ثعلبة مع الصبح فأغاروا عليهم ، فأعجزوهم هربا فى الجبال ، وأصابوا رجلا واحدا فأسلم . وغنموا نعمـا وشاء

٤ ـ سرية زيد بن حارثة إلى الجموم فى ربيع الآخر سنة ٦هـ . والجموم ماء لبنى سليم فى مر الظهران ، خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليمة ، فدلتهم على محلة من بنى سليم أصابوا فيها نعما وشاء وأسرى ، فلما قفل بما أصاب ، وهب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمزينية نفسها وزوجها .

٥ ـ سرية زيد أيضا إلى العيص فى جمادى الأولى سنة ٦هـ فى سبعين ومائة راكب ، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأفلت أبو العاص ، فأتى زينب فاستجار بها ، وسألها أن تطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم رد أموال العير عليه ، ففعلت ، وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم ، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير حتى رجع أبو العاص إلى مكة ، وأدى الودائع إلى أهلها ، ثم أسلم وهاجر فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف . كما ثبت فى الحديث الصحيح [١] ردها بالنكاح الأول لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك ، وأما ماورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى كما أنه ليس بصحيح سنداً [٢] والعجب

(١) انظر سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها .
(٢) انظر الكلام على الحديثين فى تحفة الأحوذى ٢ / ١٩٥ / ١٩٦

ممن يتمسكون بهذا الحديث الضعيف فإنهم يقولون : إن أبا العاص أسلم في أواخر سنة ثمان قبيل الفتح . ثم يناقضون أنفسهم ، فيقولون : إن زينب ماتت في أوائل سنة ثمان . وقد بسطنا الدلائل في تعليقنا على بلوغ المرام، وجنح موسى بن عقبة أن هذا الحادث وقع في سنة ٧ من قبل أبي بصير وأصحابه . ولكن ذلك لايطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف .

٦ - سرية زيد أيضا إلى الطرف أو الطرق في جمادى الآخرة سنة ٦هـ خرج زيد في خمسة عشر رجلا إلى بني ثعلبة فهربت الأعراب ، وخافوا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إليهم ، فأصاب من نعمهم عشرين بعيرا ، وغاب أربع ليال .

٧ - سرية زيد أيضا إلى وادي القرى في رجب سنة ٦هـ خرج زيد في اثني عشر رجلا إلى وادي القرى لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك ، فهجم عليهم سكان وادي القرى . فقتلوا تسعة وأفلتت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة [1] .

٨ - سرية الخبط - تذكر هذه السرية في رجب سنة ٨هـ . ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية ، قال جابر : بعثنا النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثمائة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح نرصد عيرا لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط ، فسمي جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه ، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها : العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر . وادهنا منه حتى ثابت منه أجسامنا ، وصلحت ، وأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه ، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل ، فحمل عليه ، ومر تحته، وتزودنا من لحمه وشائق ، فلما قدمنا

---

(١) رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٦ ، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، وحواشي تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٨ ، ٢٩

المدينة ، أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا له ذلك فقال : هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمــه شئ ، تطعمونا فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منــه [1] .

وإنما قلنا : إن سياق هذه السرية يدل على أنها كانت قبل الحديبية لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلح الحديبية .

• • •

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، صحيح مسلم ٢ / ١٤٥ ، ١٤٦

غزوة بنى المصطلق أو غزوة المريسيع

(فى شعبان سنة ٦هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف ، من حيث الوجهة العسكرية إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب فى المجتمع الإسلامى وتمخضت عن افتضاح المنافقين والتشريعات التعزيرية التى أعطت المجتمع الإسلامى صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس . ونسرد الغزوة أولا ، ثم نذكر تلك الوقائع .

كانت هذه الغزوة فى شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال [1] وسببها أنه بلغه صلى الله عليه وسلم أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضرار سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمى؛لتحقيق الخبر ، فأتاهم ولقى الحارث بن أبى ضرار وكلمه ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر .

وبعد أن تأكد لديه صلى الله عليه وسلم صحة الخبر ندب الصحابة،وأسرع فى الخروج ، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان ، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قبلها ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وقيل أبا

---

(١) والدليل على ذلك ماثبت فى حديث الإفك من أن القضية كانت بعد ماأنزل الحجاب،وآية الحجاب نزلت فى شأن زينب ، وزينب إذ ذاك كانت تحته ، فإنه صلى الله عليه وسلم سألها عن عائشة فقالت : أحمى سمعى وبصرى ، قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما ما وقع فى حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة تنازعا فى أصحاب الإفك ، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات عقب غزوة بنى قريظة ، فالظاهر أن هذا وهم الراوى فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة ، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ بل ذكر أسيد بن حضير ، قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذى لاشك فيه ، وذكر سعد بن معاذ وهم (وانظر زاد المعاد ٢ / ١١٥) والعجب من محمد الغزالى أنه نسب إلى ابن القيم أنه يعتبر هذه الغزوة من حوادث السنة الخامسة (فقه السيرة ص ٢٢٣) مع أن كلامه فى الهدى (٢ / ١١٥) يأبى عن ذلك .

ذر ، وقيل نميلة بن عبد الله الليثى ، وكان الحارث بن ضرار قد وجه عينا؛ ليأتيه بخبر الجيش الإسلامى ، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه .

ولما بلغ الحارث بن أبى ضرار ومن معه مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله عينه،خافوا خوفا شديدا ، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب ، وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المريسيع – بالضم فالفتح مصغرا اسم لماء من مياههم فى ناحية قديد إلى الساحل – فتهيؤوا للقتال ، وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وراية المسلمين مع أبى بكر الصديق ، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فتراموا بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحملوا حملة رجل واحد ، فكانت النصرة ، وانهزم المشركون ، وقتل من قتل ، وسبى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء والذرارى والنعم والشاء ، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد ، قتله رجل من الأنصار ظنا منه أنه من العدو .

كذا قال أهل المغازى والسير ، قال ابن القيم : وهو وهم ، فإنه لم يكن بينهم قتال ، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم كما فى الصحيح . أغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنى المصطلق وهم غارون،وذكر الحديث(١) انتهى .

وكان من جملة السبى جويرية بنت الحارث سيد القوم،وقعت فى سهم ثابت ابن قيس فكاتبها ، فأدى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها ، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بنى المصطلق قد أسلموا ، وقالوا : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وأما الوقائع التى حدثت فى هذه الغزوة فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبى وأصحابه نرى أن نورد أولا شيئاً من أفعالهم فى المجتمع الإسلامى .

---

(١) وانظر صحيح البخارى كتاب العتق ١ / ٣٤٥ ، وانظر أيضا فتح البارى ٧ / ٤٣١

(٢) زاد المعاد ٢ / ١١٢ ، ١١٣ ، ابن هشام ٢ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥

دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق :

قدمنا مرارا أن عبد الله بن أبى كان يحنق على الإسلام والمسلمين ، ولا سيما على رسول الله صلى الله عليه وسلم حنقا شديدا ، لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته ، وكانوا ينظمون له الخرز ؛ ليتوجوه إذ دخل فيهم الإسلام ، فصرفهم عن أبى ، فكان يرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى استلبه ملكـــه .

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام ، وبعد أن تظاهر به . ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة على حمار ليعود سعد بن عبادة فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبى فخمر ابن أبى أنفه وقال : لاتغبروا علينا ، ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المجلس القرآن ، قال : اجلس فى بيتك ، ولا تغشنا فى مجلسنا (1) .

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام ، ولما تظاهر به بعد بدر لم يزل إلا عدوا لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يكن يفكـــر إلا فى تشتيت المجتمع الإسلامى ، وتوهين كلمة الإسلام ، وكان يوالى أعداءه ، وقد تدخل فى أمر بنى قينقاع كما ذكرنا ، وكذلك جاء فى غزوة أحد من الشر والغـــدر والتفريق بين المسلمين ، وإثـــارة الارتباك والفوضى فى صفوفهم بما مضى .

وكان من شدة مكر هـــذا المنافق وخداعه بالمؤمنين ، أنه كان بعد التظاهر بالإسلام ، يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم للخطبة ، فيقول : هـــذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعـــزكم به فانصروه ، وعـــزروه ، واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، فيقوم رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ويخطب ، وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام فى يوم الجمعة التى بعد أحد ــ مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع ــ قام ليقول ماكان يقوله من قبل ،

---

(1) ابن هشام 1 / 584 ، 587 ، صحيح البخارى 2 / 924 ، وصحيح مسلم 2 / 109

فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا له : اجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعت ماصنعت ، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره ، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : والله ماأبتغى أن يستغفر لى [1]

وكانت له اتصالات ببنى النضير يؤامر معهم ضد المسلمين حتى قال لهم : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولئن قوتلتم لننصرنكم .

وكذلك فعل هو وأصحابه فى غزوة الأحزاب من: إثارة القلق والاضطراب وإلقاء الرعب والدهشة فى قلوب المؤمنين ماقد قص الله تعالى فى سورة الأحـزاب « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا » إلى قوله « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحـزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » .

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعـرفون جيدا أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادى، وكثرة السلاح والجيوش والعدد وإنما السبب هى القيم والأخلاق والمثل، التى يتمتع بها المجتمع الإسلامى، وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين ، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى هو المثل الأعلى — إلى حد الإعجاز — لهذه القيم .

كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين، أن القضاء على هذا الدين وأهله لايمكن بطريق استخدام السلاح ، فقرروا أن يشنوا حربا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد ، وأن يجعلوا شخصية الرسول أول هدف لهذه الدعاية . ولما كان المنافقون هم الطابور الخـامس فى صفوف المسلمين ، ولكونهم سكان المدينة، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين ، تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون ، وعلى رأسهم ابن أبى .

---

(١) ابن هشام ٢ / ١٠٥

وقد ظهرت خطتهم هذه جلية بعد غزوة الأحزاب، حينما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين زينب بنت جحش، بعد أن طلقها زيد بن حارثة، كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلبى، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذى تبناه، فلما تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بزينب وجد المنافقون ثلمتين - حسب زعمهم - لإثارة المشاغب ضد النبى صلى الله عليه وسلم .

الأولى : أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة ، والقرآن لم يكن أذن فى الزواج بأكثر من من أربع نسوة ، فكيف صح له هذا الزواج ؟

الثانية : أن زينب كانت زوجة ابنه - متبناه - فالزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب - وأكثروا من الدعاية فى هذا السبيل ، واختلقوا قصصا وأساطير ، قالوا : إن محمدا رآها بغتة ، فتأثر بحسنها فشغفه حبا ، وعلقت بقلبه، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد ، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشرا بقيت آثاره فى كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان ، وقد أثرت تلك الدعاية أثرا قويا فى صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات فيها شفاء لما فى الصدور ، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله : « يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما » (٣٣ : ١) .

وهذه إشارات عابرة، وصورة مصغرة مما اقترفه المنافقون قبل غزوة بنى المصطلق ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرهم، أو يتحملونه بالصبر إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى حسب قوله تعالى : « أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون » (٩ : ١٢٦) .

دور المنافقين فى غزوة بنى المصطلق :

ولما كانت غزوة بنى المصطلق، وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة » فقد وجدوا

متنفسين للتنفس بالشر فأثاروا الارتباك الشديـــد فى صفوف المسلمين ، والدعاية الشنيعة ضد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهاك بعض التفصيل عنها :

١ ـ قول المنافقين : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الغزو مقيما على المريسيع ووردت واردة الناس ، ومع عمـــر بن الخطاب أجير يقال له جهجاه الغفارى ، فازدحم هو وسنان بن وبر الجهنى على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهنى يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ دعوها فإنها منتنة . وبلـــغ ذلك عبد الله بن أبى ابن سلول فغضب ـ وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث ـ وقال : أو قـــد فعلوها ، قد نافـــرونا وكاثرونا فى بـــلادنا ، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر ، فأخبر عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر ، فقال عمر : مر عباد بن بشر فليقتله . فقال : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذن بالرحيل . وذلك فى ساعة لم يكـــن يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، فلقيه أسيد بن حضير فحياه ، وقال : لقد رحت فى ساعة منكرة ؟ فقال له : أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ يريد ابن أبى ، فقال وما قال؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يا رسول الله ، تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك استلبته ملكا .

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث .

أما ابن أبى فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحلف بالله ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ، وقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل . فصدقه ، قال زيد : فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط ، فجلست فى بيتى ، فأنزل الله « إذا جاءك المنافقون » إلى قوله « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » إلى « ليخرجن الأعز منها الأذل » ، فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها على . ثم قال : إن الله قد صدقك [1] .

وكان ابن هذا المنافق — وهو عبد الله بن عبد الله بن أبى — رجلا صالحا من الصحابة الأخيار ، فتبرأ من أبيه ، ووقف له على باب المدينة ، واستل سيفه ، فلما جاء ابن أبى قال له : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه العزيز وأنت الذليل . فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم أذن له فخلى سبيله ، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبى : يا رسول الله إن أردت قتله فمرنى بذلك فأنا والله أحمل إليك رأسه [2] .

---

(١) انظر صحيح البخارى ١ / ٤٩٩ ، ٢ / ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، وابن هشام ٢ / ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

(٢) نفس المصدر الأخير ، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٧٧

٢ — حديث الإفك :

وفى هذه الغزوة كانت قصة الإفك ، وملخصها أن عائشة رضى الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه فى هذه الغزوة بقرعة أصابتها وكانت تلك عادته مع نسائه ، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا فى بعض المنازل ، فخرجت عائشة لحاجتها ففقدت عقدا لأختها كانت أعارتها إياه ، فرجعت تلتمسه فى الموضع الذى فقدته فيه فى وقتها ، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج ، ولاينكرون خفته؛لأنها رضى الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذى كان يثقلها ، وأيضا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ولو كان الذى حمله واحدا أو اثنين لم يخف عليهما الحال ، فرجعت عائشة إلى منازلهم ، وقد أصابت العقد ، فإذا ليس به داع ولا مجيب ، فقعدت فى المنزل ، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون فى طلبها ، والله غالب على أمره ، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء ، فغلبتها عيناها ، فنامت ، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ — وكان صفوان قد عرس فى أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم ، فلما رآها عرفها،وكان يراها قبل نزول الحجاب ، فاسترجع وأناخ راحلته ، فقربها إليه ، فركبتها ، وما كلمها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه إلا استرجاعه ، ثم سار بها يقودها ، حتى قدم بها ، وقد نزل الجيش فى نحر الظهيرة ، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته ، وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبى متنفسا ، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذى بين ضلوعه ، فجعل يستحكى الإفك ، ويستوشيه ، ويشيعه ، ويذيعه ، ويجمعه ، ويفرقه ، وكان أصحابه يتقربون به إليه،فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك فى الحديث ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لايتكلم ، ثم استشار أصحابه — لما استلبث الوحى طويلا — فى فراقها ، فأشار عليه على رضى الله عنه أن يفارقها ، ويأخذ غيرها ، تلويحا لا تصريحا ،وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها ، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء .

فقام على المنبر يستعذ من عبد الله بن أبى، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتله، فأخذت سعد بن عبادة — سيد الخزرج وهى قبيلة ابن أبى — الحمية القبلية فجرى بينهما كلام تثاور له الحيان ، فخفضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا وسكت .

أما عائشة فلما رجعت مرضت شهرا ، وهى لا تعلم عن حديث الإفك شيئا سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كانت تعرفه حين تشتكى ، فلما نقهت خرجت مع أم مسطح إلى البراز ليلا ، فعثرت أم مسطح في مرطها فدعت على ابنها، فاستنكرت ذلك عائشة منها فأخبرتها الخبر ، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لتأتى أبويها وتستيقن الخبر ، ثم أتتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر ، فجعلت تبكى ، فبكت ليلتين ويوما . لم تكن تكتحل بنوم ، ولا يرقأ لها دمع ، حتى ظنت أن البكاء فاتق كبدها . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فتشهد وقال : أما بعد ياعائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه .

وحينئذ قلص دمعها ، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا ، فلم يدريا ما يقولان فقالت : والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم ، وصدقتم به فلئن قلت لكم : إنى بريئة — والله يعلم أنى بريئة — لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر — والله يعلم أنى منه بريئة — لتصدقنى ، والله ما اجد لي ولكم مثلا إلا قول أبى يوسف . قال : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

ثم تحولت واضطجعت ، ونزل الوحى ساعته ، فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك . فكانت أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ، أما الله فقد برأك ، فقالت لها أمها : قومى إليه .. فقالت عائشة — إدلالا ببراءة ساحتها ، وثقة بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم — : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله .

والذى أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم » . العشر الآيات .

وجلد من أهل الإفك مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، جلدوا ثمانين ، ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبى مع أنه رأس أهل الإفك ، والذى تولى كبره . إما لأن الحدود تخفيف لأهلها ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة ، وإما للمصلحة التى ترك لأجلها قتله [1] .

وهكذا وبعد شهر أقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطراب عن جو المدينة ، وافتضح رأس المنافقين افتضاحا لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك ، قال ابن إسحاق : وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف ، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى [2]

(١) صحيح البخارى ١ / ٣٦٤ و ٢ / ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، زاد المعاد ٢ / ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، وابن هشام ٢ / ٢٩٧ إلى ٣٠٧

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٩٣

البعوث والسرايا بعد غــزوة المريسيع

١ — سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بنى كلب بدومة الجندل ، فى شعبان سنة ٦هـ . أقعده رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ، وعممه بيده ، وأوصاه بأحسن الأمور فى الحرب ، وقال له : إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبغ ، وهى أم أبى سلمة ، وكان أبوها رأسهم وملكهم .

٢ — سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بفدك فى شعبان سنة ٦هـ وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بها جمعا يريدون أن يمدوا اليهود . فبعث إليهم عليا فى مائتى رجل ، وكان يسير الليل ويكمن النهار ، فأصاب عينا لهم فأقر أنهم بعثوه إلى خيبر يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر . ودل العين على موضع تجمع بنى سعد ، فأغار عليهم على ، فأخذ خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد بالظعن ، وكان رئيسهم وبر بن عليم .

٣ — سرية أبى بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادى القرى فى رمضان سنة ٦هـ . كان بطن فزارة يريــد اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق . قال سلمة بن الأكوع : وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة ، فوردنا الماء ، فقتل أبو بكر من قتل ورأيت طائفة وفيهم الذرارى ، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل فأدركتهم ، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا فيهم امرأة هى أم قرفة عليها قشع من أديم ، معها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر ، فنفلنى أبو بكر ابنتها ، فلم أكشف لها ثوبا ، وقد سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أم قرفة ، فبعث بها إلى مكة ، وفدى بها أسرى من المسلمين هناك [1] .

---

(١) انظر صحيح مسلم ٢ / ٨٩ ويقال : إن هذه السرية كانت سنة سبع .

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم ، وجهزت ثلاثين فارسا من أهل بيتها لذلك ، فلاقت جزاءها وقتل الثلاثون .

٤ — سرية كرز بن جابر الفهرى [1] إلى العرنيين فى شوال سنة ٦هـ وذلك أن رهطا من عكل وعرينة أظهروا الإسلام،وأقاموا بالمدينة فاستوخموها ، فبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذود في المرعى ، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ، فلما صحوا قتلوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم،فبعث في طلبهم كرزا الفهرى فى عشرين من الصحابة ، ودعا على العرنيين : اللهم اعم عليهم الطريق ، واجعلها عليهم أضيق من منسك فعمى الله عليهم السبيل فأدركوا ، فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم ، جزاء وقصاصا بما فعلوا ، ثم تركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا [2] وحديثهم فى الصحيح عن أنس [3] .

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمرى مع سلمة بن أبى سلمة فى شوال سنة ٦هـ أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبى سفيان ، لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابيا لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بيد أن المبعوثين لم ينجحا فى الاغتيال ، لاهذا ، ولا ذاك ، ويذكرون أن عمر قتل فى الطريق ثلاثة رجال ، ويقولون إن عمر أخذ جثة الشهيد خبيب فى هذا السفر . والمعروف أن خبيبا استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر ، ووقعة الرجيع كانت فى صفر سنة ٤هـ ، فلا أدرى هل اختلط السفران على أهل السير ، أو كان الأمران فى سفر واحد فى السنة الرابعة ، وقد أنكر العلامة المنصورفورى أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة . والله أعلم .

---

(١) هذا هو الذى كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر فى غزوة سفوان ثم أسلم وقتل شهيدا يوم فتح مكة .

(٢) زاد المعاد ٢ / ١٢٢

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٢

هذه هى السرايا والغزوات بعد الأحزاب ، وبنى قريظة ، لم يجر فى واحدة منها قتال مرير ، وإنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة ، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية ، أو تحركات تأديبية ؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد . ويظهر بعد التأمل فى الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ فى التطور بعد غزوة الأحزاب ، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم فى انهيار متواصل ، ولم يكن بقى لهم أمل فى نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخضد شوكتها ، إلا أن هذا التطور ظهر جليا بصلح الحديبية فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام والتسجيل على بقائها فى ربوع الجزيرة العربية .

* * *

وقعـــة الحديبيـــة

فى ذى القعدة سنة ٦هـ

سبب عمرة الحديبية :

ولما تقدم التطور فى الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين،أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئا فشيئا ، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين فى أداء عبادتهم فى المسجد الحرام،الذى كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام .

أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وهو بالمدينة ، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتمروا ، وحلق بعضهم وقصر بعضهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك ، .وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر .

استنفار المسلمين :

واستنفر العرب ومن حوله البوادى ليخرجوا معه ، فأبطأ كثير من الأعراب وغسل ثيابه،وركب ناقته القصواء ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نميلة الليثى . وخرج منها يوم الاثنين غرة ذى القعدة سنة ٦هـ ، ومعه زوجته أم سلمة ، فى ألف وأربعمائة ، ويقال ألف وخمسمائة ، ولم يخرج معه بسلاح ، إلا سلاح المسافر ، السيوف فى القرب .

المسلمون يتحركون إلى مكة :

وتحرك فى اتجاه مكة ، فلما كان بذى الحليفة قلد الهدى وأشعره ، وأحرم بالعمرة،ليأمن الناس من حربه. وبعث بين يديه عينا له من خزاعة يخبره عن قريش حتى إذا كان قريبا من عسفان أتاه عينه ، فقال : إنى تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعا وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت.

واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال : أترون نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين ، وإن نجوا يكن عنق قطعها الله ، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبوبكر : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجئ لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فروحوا ، فراحوا .

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت :

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبي صلى الله عليه وسلم عقدت مجلسا استشاريا قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن ، فبعد أن أعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأحابيش ،نقل إليه رجل من بنى كعب أن قريشا نازلة بذى طوى ، وأن مائتى فارس فى قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغميم فى الطريق الرئيسى الذى يوصل إلى مكة . وقد حاول خالد صد المسلمين ، فقام بفرسانه إزاءهم يتراآى الجيشان . ورأى خالد المسلمين فى صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال : لقد كانوا على غرة ، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم ، ثم قرر أن يميل على المسلمين — وهم فى صلاة العصر — ميلة واحدة ، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف ، ففاتت الفرصة خالدا .

تبديل الطريق ومحاولة الاجتناب عن اللقاء الدامى :

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقا وعرا بين شعاب ، وسلك بهم ذات اليمين بين ظهرى الحمش فى طريق على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة ، وترك الطريق الرئيسى الذى يفضى إلى الحرم مارا بالتنعيم ، تركه إلى اليسار فلما رأى خالد قترة الجيش الإسلامى قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيرا لقريش .

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بثنية المرار بركت راحلته فقال الناس : حل حل فألحت ، فقالوا خلأت القصواء خلأت القصواء ، فقال

النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ثمد قليل الماء ، إنما يتبرضه الناس تبرضا ، فلم يلبث أن نزحوه . فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهما من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فو الله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا .

بديل يتوسط بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش :

ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة ، وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة ، فقال : إنى تركت كعب بن لؤى ، نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ،وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم ،ويخلوا بينى وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا ، وإن أبوا إلا القتال فو الذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره .

قال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق حتى أتى قريشا فقال : إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولا ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشئ . وقال ذو الرأى منهم : هات ما سمعته . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فبعثت قريش مكرز بن حفص ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا رجل غادر ، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه ، فرجع إلى قريش وأخبرهم .

رسل قريش :

ثم قال رجل من كنانة — اسمه الحليس بن علقمة — : دعونى آته . فقالوا :

آته . فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك . قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا ، وجرى بينه وبين قريش كلام أحفظه .

فقال عروة بن مسعود الثقفى : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آته فقالوا : آته ، فأتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم نحوا من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك : أى محمد أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى فوالله إنى لأرى وجوها ، وأرى أوباشا من الناس خلقا أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر : أمصص بظر اللات ، أنحن نفرعنه ، ؟ قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت عندى لم أجزك بها لأجبتك . وجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قالوا : المغيرة ابن شعبة ، فقال : أى غدر ، أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شئ (وكان المغيرة ابن أخى عروة) .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلاقتهم به ، فرجع إلى أصحابه ، فقال : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد

محمدا ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

هو الذى كف أيديهم عنكم :

ولما رأى شباب قريش الطائشون ، الطامحون إلى الحرب رغبة زعمائهم فى الصلح فكروا فى خطة تحول بينهم وبين الصلح ، فقرروا أن يخرجوا ليلا ويتسللوا إلى معسكر المسلمين ، ويحدثوا أحداثا تشعل نار الحرب ، وفعلا قد قاموا بتنفيذ هذا القرار ، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلا فهبطوا من جبل التنعيم ، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين ، غير أن محمد بن سلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعا . ورغبة فى الصلح أطلق سراحهم النبى صلى الله عليه وسلم وعفا عنهم ، وفى ذلك أنزل الله « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » (٤٨ : ٢٤) .

عثمان بن عفان سفيرا إلى قريش :

وحينئذ أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث سفيرا يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر ، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم ، فاعتذر قائلا : يا رسول الله ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت ، فدعاه ، وأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمارا ، وادعهم إلى الإسلام وأمره أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لايستخفى فيها أحد بالإيمان .

فانطلق عثمان حتى مر على قريش ببلدح ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ، قالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ

لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ثم أسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس ، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة ، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش . فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت ، لكنه رفض هذا العرض، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان :

واحتبسته قريش عندها — ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم فى الوضع الراهن، ويبرموا أمرهم ، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة — وطال الاحتباس ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغته تلك الإشاعة لا نبرح حتى نناجز القوم ، ثم دعا أصحابه إلى البيعة ، فثاروا إليه يبايعونه على أن لايفروا ، وبايعته جماعة على الموت ، وأول من بايعه أبو سنان الأسدى ، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات ، فى أول الناس ووسطهم وآخرهم ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان . ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه ، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له جد بن قيس .

أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه البيعة تحت شجرة ، وكان عمر آخذ بيده ، ومعقل بن يسار آخذا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه هى بيعة الرضوان التى أنزل الله فيها « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » الآية (٤٨ : ١٨) .

إبرام الصلح وبنوده :

وعرفت قريش حراجة الموقف ، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح ، وأكدت له أن لا يكون فى الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا . لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام

قال : قد سهل لكم أمركم ، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فجاء سهيل فتكلم طويلا ثم اتفقا على قواعد الصلح وهى هذه :

١ — الرسول — صلى الله عليه وسلم — يرجع من عامه ، فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثا ، معهم سلاح الراكب ، السيوف فى القرب ، ولا تتعرض لهم بأى نوع من أنواع التعرض .

٢ — وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .

٣ — من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وتعتبر القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين جزءا من ذلك الفريق ، فأى عدوان تتعرض له أى من هذه القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق .

٤ — من أتى محمدا من قريش من غير إذن وليه — أى هاربا منهم — رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد — أى هاربا منه — لم يرد عليه .

ثم دعا عليا ليكتب الكتاب فأملى عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أما الرحمن فو الله لا ندرى ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم عليا بذلك . ثم أملى (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال : إنى رسول الله وإن كذبتمونى ، وأمر عليا أن يكتب محمد بن عبد الله ، ويمحو لفظ رسول الله ، فأبى على أن يمحو هذا اللفظ . فمحاه صلى الله عليه وسلم بيده ، ثم تمت كتابة الصحيفة ، ولما تم الصلح دخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكانوا حليف بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب كما قدمنا فى أوائل المقالة ، فكان دخولهم فى هذا العهد ؛ تأكيدا لذلك الحلف القديم — ودخلت بنو بكر فى عهد قريش .

رد أبي جندل :

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده . فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد . فقال : فوالله إذا لا أقاضيك على شئ أبدا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأجزه لي . قال : ماأنا بمجيزه لك . قال : بلى فافعل ، قال :ما أنا بفاعل . وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه، وأخذ بتلابيبه وجره ، ليرده إلى المشركين ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جنـــدل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم .

فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدني قائم السيف منه يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية .

النحر والحلق للحل عن العمرة :

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضية الكتاب قال : قوموا ، فانحروا ، فو الله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت : يارسول الله أتحب ذلك؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، ونحر رسول

الله صلى الله عليه وسلم جملاً كان لأبى جهل ، كان فى أنفه برة من فضة ، ليغيظ به المشركين ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثا بالمغفرة وللمقصرين مرة . وفى هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك فى شأن كعب بن عجرة .

الإباء عن رد المهاجرات :

ثم جاء نسوة مؤمنات فسأل أولياؤهن أن يردهن عليهم بالعهد الذى تم فى الحديبية ، فرفض طلبهم هذا، بدليل أن الكلمة التى كتبت فى المعاهدة بصدد هذا البند هى : (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا)[1] فلم تدخل النساء فى العقد رأسا . وأنزل الله فى ذلك « يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن » حتى بلغ « بعصم الكوافر » فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحنهن بقوله تعالى « إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا » إلخ ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها : قد بايعتك . ثم لم يكن يردهن .

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك . تزوج بإحداهما معاوية ، وبالأخرى صفوان بن أمية .

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة :

هذه هى هدنة الحديبية ، ومن رسب أغوار بنودها مع خلفياتها لايشك أنها فتح عظيم للمسلمين ، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أى اعتراف ، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم ، وتنتظر أن تشهد يوما ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية، وبين الناس ، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية فى جزيرة العرب ، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين ، وأن قريشا لاتقدر على مقاومتهم ، ثم البند الثالث يدل لفحواه على أن

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٣٨٠

قريشا نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينيـــة ، وأنها لاتهمها الآن إلا نفسها ، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت فى الإسلام بأجمعها ، فلا يهم ذلك قريشا ، ولا تتدخل فى ذلك بأى نوع من أنواع التدخل. أليس هذا فشلا ذريعا بالنسبة إلى قريش ؟ وفتحا مبينا بالنسبة إلى المسلمين ؟ إن الحروب الدامية التى جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها – بالنسبة إلى المسلمين – مصادرة الأموال وإبادة الأرواح ، وإفناء الناس ، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام ، وإنما كان الهدف الوحيد الذى يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس فى العقيدة والدين « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . لايحول بينهم وبين مايريـــدون أى قوة من القوات ، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه ، وبطريق ربما لايحصل بمثله فى الحروب مع الفتح المبين ، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحا كبيرا فى الدعوة ، فبينما كان عدد المسلمين لايزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة صار عدد الجيش الإسلامى فى سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف .

أما البند الثانى فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين ، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب ، وإنما بدأتها قريش ، يقول الله تعالى « وهم بدأوكم أول مرة » أمـــا المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها وصدها عن سبيل الله ، وتعمل معهم بالمساواة ، كل من الفريقين يعمل على شاكلته فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد ، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانهياره .

أما البند الأول فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام ، فهـــو أيضا فشل لقريش ، وليس فيه مايشفى قريشا سوى أنها نجحت فى الصد للملك العام الواحد فقـــط .

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين ، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط ، وهى مافى البند الرابع ، ولكن تلك الخلة تافهة جدا ، ليس فيها شئ يضر

بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم مادام مسلما لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهرا أو باطنا ، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقائه فيه ، وهذا الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : إنه منْ ذهب منا إليهم فأبعده الله [١] . وأما من أسلم من أهل مكة فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئا ؟ وهذا الذى أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا » [٢] .

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش، لكنه فى الحقيقة ينبئ عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخورهم . وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثنى . وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جرف هار . لا بد لـه من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ . وماسمح به النبي صلى الله عليه وسلم من أنه لايسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلا على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد ، ولايخاف عليه من مثل هذا الشرط .

حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي صلى الله عليه وسلم :

هذه هى حقيقة بنود هذه الهدنة ، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلهما المسلمين كآبة وحزن شديد ، الأولى : أنه كان قد أخبرهم أنا سنأتى البيت فنطوف به ، فماله برجع ولم يطف به ؟ الثانية : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الحق ، والله وعد إظهار دينه، فماله قبل ضغط قريش ، وأعطى الدنية فى الصلح ؟ كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون . وصارت مشاعـــر المسلمين لأجلهما جريحة، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير فى عواقب بنود الصلح . ولعل

(١) صحيح مسلم باب صلح الحديبية ٢ / ١٠٥
(٢) نفس المصدر

أعظمهم حزنا كان عمر بن الخطاب ، فقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يارسول الله ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : بلى - قال : ففيم نعطى الدنية فى ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : ياابن الخطاب إنى رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى ولن يضيعنى أبدا . قال : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال : بلى . فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به .

ثم انطلق عمر متغيظا فأتى أبا بكر ، فقال له كما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورد عليه أبو بكر ، كما رد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء . وزاد فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فو الله إنه لعلى الحق .

ثم نزلت « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » الخ فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه . فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال نعم . فطابت نفسه ورجع .

ثم ندم عمر على ما فرط منه ندما شديدا قال عمر : فعملت لذلك أعمالا ، مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا [1] .

انحلت أزمة المستضعفين :

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، واطمأن بها ، انفلت رجل من المسلمين ، ممن كان يعذب فى مكة ، وهو أبو بصير رجل من ثقيف حليف لقريش ، فأرسلوا فى طلبه رجلين وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم العهد الذى جعلت لنا . فدفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة والهدنة ، فتح البارى ٧ / ٤٣٩ إلى ٤٥٨ ، صحيح البخارى ١ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٢ / ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٧١٧ ، صحيح مسلم ٢/١٤٠ ١٠٥ ، ١٠٦ ، ابن هشام ٢ / ٣٠٨ إلى ٣٢٢ ، زاد المعاد ٢ / ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٠٧ إلى ٣٠٥ ، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٣٩ ، ٤٠ .

ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا يافلان جيدا . فاستله الآخر ، فقال : أجل . والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه فضربه حتى برد

وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه : لقد رأى هذا ذعرا ، فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قتل صاحبي ، وإنى لمقتول ، فجاء أبو بصير وقال : يانبي الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى إليهم ، ثم أنجانى الله منهم ، قال رسول الله : ويل أمه ، مسعر حرب لو كان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير ، فجعل لايخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة . فوالله مايسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها . فقتلوهم وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل . فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، فقدموا عليه المدينة [1] .

إسلام أبطال من قريش :

وفى أوائل سنة ٧ من الهجرة بعد هذه الهدنة أسلم عمرو بن العاص وخالد ابن الوليد وعثمان بن طلحة ، ولما حضروا عند النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها [2] .

---

(١) المصادر السابقة

(٢) اختلفوا كثيرا فى تعيين السنة التى أسلم فيها هؤلاء الصحابة ، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح أنها سنة ثمان ، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشى معروفة ، وأسلم خالد وعثمان بن طلحة حين رجع عمرو بن العاص من الحبشة فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه فى الطريق ، وحضر الثلاثة عند النبى صلى الله عليه وسلم وأسلموا وهذا يقتضى أنهم أسلموا فى أوائل سنة سبع . والله أعلم .

المرحلة الثانية

طور جديد

إن هدنة الحديبية كانت بداية طور جديد فى حياة الإسلام ،والمسلمين . فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها فى عداء الإسلام،وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة – قريش وغطفان واليهود – ولما كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها فى ربوع جزيرة العرب انخفضت حدة مشاعر الوثنيين،وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير ولذلك لانرى لغطفان استفزازا كبيرا بعد هذه الهدنة ، وجل ماجاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود .

أما اليهود فقد كانوا جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرا للدس والتآمر كانت شياطنيهم تبيض هناك وتفرخ ، وتوجج نار الفتنة ، وتغرى الأعراب الضاربة حول المدينة ، وتبيت للقضاء على النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم . ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبى صلى الله عليه وسلم بعد الهدنة هو شن الحرب الفآصلة على هذا الوكر .

ولكن هذه المرحلة التى بدأت بعد الهدنة أعطت للمسلمين فرصة كبيرة ، لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها ، وقد تضاعف نشاط المسلمين فى هذا المجال،وبرز نشاطهم فى هذا الوجه على نشاطهم العسكرى . ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة على قسمين :

(١) النشاط فى مجال الدعوة ، أو مكاتبة الملوك والأمراء .

(٢) النشاط العسكرى .

وقبل أن نتابع النشاط العسكرى فى هذه المرحلة،نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء إذ الدعوة الإسلامية هى المقدم طبعا ، بل ذلك هو الهدف الذى عاني له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام ، والحروب والفتن ، والقلاقل والاضطرابات .

مكاتبة الملوك والأمـــراء

فى أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لايقبلون إلا وعليه خاتم ، فاتخذ النبي صلى الله عليه وسلم خاتما من فضة ،نقشه: محمد رسول الله، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر ، رسول سطر ، والله سطر ، هكذا : الله رسول محمد (١)

واختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك،وقد جزم العلامة المنصورفورى أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام (٢) . وفيما يلى نصوص هـــذه الكتب، وبعض ما تمخضت عنه .

١ - الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة :

وهذا النجاشي اسمه أصحمة بن الأبجر، كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم مع عمرو بن أمية الضمري فى آخر سنة ست أو فى المجرم سنة سبع من الهجرة . وقد ذكر الطبرى نص الكتاب، ولكن النظر الدقيق فى ذلك النص، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذى كتبه صلى الله عليه وسلم بعد الحديبية ، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة فى العهد المكى ، فقد ورد فى آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ (وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر) .

وروى البيهقى عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي وهو هذا : هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحـــده

(١) صحيح البخارى ٢ / ٨٧٢ ، ٨٧٣
(٢) رحمة للعالمين ١ / ١٧١

لاشريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمدا عبده ورسوله ،وأدعوك بدعاية الإسلام ، فإنى أنا رسوله فأسلم تسلم ، ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ، فإن أبيت فإن عليك إثم النصارى من قومـــك .

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس) نص كتاب قد عثر عليه فى الماضى القريب — كما أورده ابن القيم مع الاختلاف فى كلمة فقط — وبذل الدكتور فى تحقيق ذلك النص جهدا بليغا واستعان فى ذلك كثيرا باكتشافات العصر الحديث ، وأورد صورته فى الكتاب وهو هكذا .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة ،سلام على من اتبع الهدى ،أما بعد فإنى أحمد إليك الله الذى لاإله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته . ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعو إلى الله وحده لاشريك له ،والموالاة على طاعته ،وأن تتبعنى ، وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عـــز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبل نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى [1] .

وأكد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذى كتبه النبى صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى بعد الحديبية ، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر فى الدلائل ، وأما أن هذا الكتاب هو الذى كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه ، والذى

(١) انظر رسول أكرم كى سياسى زندكى (بالأردو) ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، وفى زاد المعاد : أسلم أنت بدل والسلام على من اتبع الهدى . انظر زاد المعاد ٣ / ٦٠

أورده البيهقي عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية ، فإن فيه الآية الكريمة : «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة » الخ كما كان دأبه في تلك الكتب ، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحا ، وأما النص الذى أورده الدكتورحميد الله ، فالأغلب عندى أنه نص الكتاب الذى كتب النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت أصحمة إلى خليفته ، ولعل هذا هو السبب في ترك الاسم .

وهذا الترتيب ليس عندى عليه دليل قطعي سوى الشهادات الداخلية التي تؤديها نصوص هذه الكتب . والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم أن النص الذى أورده البيهقي عن ابن عباس هو نص الكتاب الذى كتبه النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت أصحمة إلى خليفته مع أن اسم أصحمة وارد في هذا النص صريحا والعلم عند الله (١) .

ولما بلغ عمرو بن أمية الضيمرى كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي أخذه النجاشي ، ووضعه على عينه ، ونزل عن سريره على الأرض ،وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب . وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وهاك نصه .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يانبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الله الذى لاإله إلا هو أما بعد :

فقد بلغني كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء ، والأرض إن عيسى لايزيد على ماذكرت تفروقا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين (٢) .

---

(١) انظر لهذه المباحث كتاب الدكتور حميد الله « رسول أكرم كى سياسى زندكى » ص. ١٠٨ ، إلى ١١٤ ومن ١٢١ إلى ١٣١

(٢) زاد المعاد ٣ / ٦١

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد طلب من النجاشى أن يرسل جعفرا ومن معه من مهاجرى الحبشة ، فأرسلهم فى سفينتين مع عمـــرو بن أمية الضمرى، فقدم بهم على النبى صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر [1] . توفى النجاشى هذا فى رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك ، ونعاه النبى صلى الله عليه وسلم يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب ، ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبى صلى الله عليه وسلم كتابا آخر ولايدرى هل أسلم أم لا ؟ [2] .

٢ ـ الكتاب إلى المقوقس ملك مصر :

وكتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى جريج بن متى [3] الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية : « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمـــد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ، « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لانعبد إلا الله ، ولانشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » [4] .

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبى بلتعة . فلما دخل حاطب عـلى المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولايعتبر غيرك بك .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣٥٩

(٢) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٢ / ٩٩

(٣) هذا على رأى العلامة المنصورفورى فى كتابه رحمة للعالمين ١ / ١٧٨؛ وقال الدكتور حميد الله « إن اسمه بنيامين » انظر : رسول أكرم كى سياسى زندكى ص ١٤١

(٤) هذا النص أورده ابن القيم فى زاد المعاد ٣ / ٦١ والذى أورده الدكتور حميد الله أخذا من صورة الكتاب الذى عثر عليه فى الماضى القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص ، ففيه « فأسلم تسلم يؤتك الله » الخ ، وفيه « إثم القبط » بدل قوله « إثم أهل القبط » انظر : رسول أكرم كى سياسى زندكى ص ١٣٦ ، ١٣٧

فقال المقوقس : إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فقد ماسواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى . ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكل نبي أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبي ، فوجدته لايأمر بمزهود فيه ، ولاينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر .

وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعله فى حق من عاج ، وختم عليه ودفع إلى جارية له ، ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم » لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت ماذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين ، لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك .

ولم يزد على هذا ولم يسلم ، والجاريتان مارية ، وسيرين ، والبغلة ولدل بقيت إلى زمن معاوية [1] ، واتخذ النبي صلى الله عليه وسلم مارية سرية له ، وهى التى ولدت له إبراهيم . وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصارى .

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١

٣ ـ الكتاب إلى كسرى ملك فارس :

وكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك فارس « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمى ، فدفعه السهمى إلى عظيم البحرين ، ولا ندرى هل بعث عظيم البحرين رجلا من رجالاته ، أم بعث عبدالله السهمى ، وأيا ما كان فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه ، وقال فى غطرسة : عبد حقير من رعيتى يكتب اسمه قبلى ، ولما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مزق الله ملكه ، وقد كان كما قال ، فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فليأتيانى به فاختار باذان رجلين ممن عنده ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدما المدينة ، وقابلا النبي صلى الله عليه وسلم قال أحدهما : إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وبعثنى إليك لتنطلق معى ، وقال قولا تهديديا ، فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم أن يلاقياه غدا .

وفى ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر ، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله ، وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع [١] . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الوحى ، فلما غدا عليه أخبرهما بذلك . فقالا : هل تدرى ماتقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ماهو

---

(١) فتح البارى ٨ / ١٢٧

أيسر ، أفنكتب هذا عنك ، ونخبره الملك . قال : نعم أخبراه ذلك عني ، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ مابلغ كسرى ! وينتهي إلى منتهى الخف والحافر . وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ماتحت يدك ، وملكتك على قومك من الأبناء فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه وقال له شيرويه في كتابه : انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك ، فلا تهجه حتى يأتيك أمري .

وكان ذلك سببا في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن (١) .

٤ — الكتاب إلى قيصر ملك الروم :

وروى البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملك الروم هرقل ، وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٢) .

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ، ليدفعه إلى قيصر ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجارا بالشام ، في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش ،

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١ / ١٤٧ ، فتح الباري ٨ / ١٢٧ ، ١٢٨ وانظر رحمة للعالمين أيضا ج١

(٢) صحيح البخاري ١ / ٤ ، ٥

فأتوه وهم بإيلياء [1] فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا، فقال : ادنوه منى ،وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره ،ثم قال لترجمانه : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه ، فو الله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه .

ثم قال : أول ماسألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ فقلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؛ قلت : لا . قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت لا ، ونحن منه فى مدة لاندرى ماهو فاعل فيها — قال : ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة — قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولاتشركوا به شيئا،واتركوا مايقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها ،وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا . قلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان

---

(١) كان قيصر جاء إذ ذاك فى إيلياء — بيت المقدس — من حمص ، شكراً لما من الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٢ / ٩٩)، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز ، وصالحوا الروم على رد ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر وردوا إليه الصليب الذى تزعم النصارى ان المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه ، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩ م (أى سنة ٧ هـ)يضع الصليب فى موضعه ويشكر الله على هذا الفتح المبين .

من آبائه من ملك فذكرت أن لا . فقلت فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقـــول ماقال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لاتغدر . وسألتك بما ذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركـــم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ماتقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقـــد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليـــه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه،فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثر اللغط ، وأمر بنا فأخرجنا ، قال : فقلت لأصحابه حين أخرجنا ، لقد أمر أمرا ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملك بني الأصفر ، فما زلت موقنا بأمـــر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام [1] .

هذا ما رآه أبوسفيان من أثر هذا الكتاب على قيصر ، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة بن الكلبي ،حامل كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم بمال وكسوة ، ولما كان دحية بحسمى في الطريق لقيه ناس من جذام ، فقطعوها عليه ، فلم يتركوا معه شيئا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل بيته ، فأخبره ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى حسمى ، وهي وراء وادي القرى في خمسمائة رجل ، فشن زيد الغارة على جذام ، فقتل فيهم

(١) صحيح البخاري ١ / ٤ ، صحيح مسلم ٢ / ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩

قتلا ذريعا ، واستاق نعمهم ونساءهم ، فأخذ من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف ، والسبي مائة من النساء والصبيان .

وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قبيلة جذام موادعة ، فأسرع زيد ابن رفاعة الجذامى أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق فقبل النبي صلى الله عليه وسلم احتجاجه وأمر برد الغنائم والسبي .

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه السرية قبل الحديبية ، وهو خطأ واضح ، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية . ولذا قال ابن القيم : هذا بعد الحديبية بلا شك (١) .

٥ ــ الكتاب إلى المنذر بن ساوى :

وكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث إليه العلاء بن الحضرمى بذلك الكتاب ، فكتب المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بعد يا رسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث إلى فى ذلك أمرك، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطيع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن

---

(١) انظر زاد المعاد ٢ / ١٢٢ ، وحاشية تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٩

أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك . ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » (١) .

٦ - الكتاب إلى هوذة بن على صاحب اليمامة :

وكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هوذة بن على صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوذة بن على ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك » .

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامرى ، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختوما أنزله وحياه وقرأ عليه الكتاب ، فرد عليه ردا دون رد ، وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليطا بجائزة ، وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم كتابه فقال : لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، باد ، وباد ما في يديه . فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى ، يقتل بعدى ، فقال قائل : يا رسول الله من يقتله ؟ فقال : أنت وأصحابك ، فكان كذلك (٢) .

٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق :

كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدق

(١) زاد المعاد ٣ / ٦١ ، ٦٢ ، والنص الذى أورده الدكتور حميد الله آخذا من صورة الكتاب الذى عثر عليه فى الماضى القريب يختلف فى كلمة واحدة،ففيه « لاإله غيره » بدل قوله « لاإله إلا هو » .

(٢) زاد المعاد ٣ / ٦٣

وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » .

واختار لحمل هـذا الكتاب شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة ، ولما أبلغه الكتاب قال : من ينزع ملكى منى ؟ أنا سائر إليه ، ولم يسلم [1] .

٨ — الكتاب إلى ملك عمان :

وكتب النبى صلى الله عليه وسلم كتابا إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبدا بنى الجلندى ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبدا بنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما ، فإنى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس كافـة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل ، وخيل تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما » .

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضى الله عنه . قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبـد — وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقا — فقلت : إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك ، فقال : أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعو إلى الله وحده لاشريك له ، وتخلع ماعبد من دونه ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال : يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة قلت : مات ولم يؤمـن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريبا . فسألنى أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشى ، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم ، قال : وكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت :

(١) نفس المصدر ٣ / ٦٣ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٤٦ .

نعم . قال : انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب . قلت : ماكذبت وما نستحله فى ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي . قلت : بلى، قال : فبأى شئ علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجا ، فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قال : لا والله لو سألني درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أتدع عبدك لايخرج لك خرجا ، ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل : رجل رغب فى دين ، فاختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع قال : أنظر ما تقول يا عمرو؟ قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل و ينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا ، وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال :ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ، لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا . قلت انه ان اسلم ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه . فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم، قال : إن هذا لخلق حسن . وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل . قال : يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت: نعم، فقال : والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا . قال : فمكثت ببابه أياما . وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي فقال : دعوه ، فأرسلت فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعونى أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوما ، ففض خاتمه ، وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قرأته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه .. إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على

غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الحرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال : دعنى يومى هذا ، وارجع إلى غدا .

فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو ، إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لى . فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه . فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ههنا ، وإن بلغت خيله لقت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت : أنا خارج غدا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلى ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا النبى صلى الله عليه وسلم ، وخليا بينى وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونا على من خالفنى[1]

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيرا عن كتب بقية الملوك ، والأغلب أنه كان بعد الفتح .

وبهذه الكتب كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض . فمنهم من آمن به ومنهم من كفر . ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين ، وعرف لديهم باسمه ودينه .

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٦٢ ، ٦٣

غزوة الغابة أو غزوة ذى قرد :

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بنى فزارة قامت بعمل القرصنة فى لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهى أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الحديبية ، وقبل خيبر ذكر البخارى فى ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث ، وروى ذلك مسلم مسندا من حديث سلمة بن الأكوع . وذكر الجمهور من أهل المغازى أنها كانت قبل الحديبية وما فى الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازى [1] .

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره مع غلامه رباح ، وأنا معه بفرس أبى طلحة ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزارى قد أغار على الظهر ، فاستاقه أجمع وقتل راعيه فقلت : يا رباح خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قمت على أكمة ، واستقبلت المدينة ، فناديت ثلاثا : يا صباحاه ، ثم خرجت فى آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز ، أقول :

أنا ابن الأكوع والبوم يوم الرضع

فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم ، فإذا رجع إلى فارس جلست فى أصل الشجرة ، ثم رميته فتعفرت به ، حتى إذا دخلوا فى تضايق الجبل علوته ، فجعلت أرديهم بالحجارة ، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهرى ، وخلوا بينى وبينه ، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة ، وثلاثين رمحا يستخفون ،

---

(١) انظر صحيح البخارى باب غزوة ذات قرد ٢ / ٦٠٣ ، وصحيح مسلم باب غزوة ذى قرد وغيرها ٢ / ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، وفتح البارى ٧ / ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، زاد المعاد ٢ / ١٢٠

ولا يطرحون شيئا إلا جعلت عليه آراما من الحجارة، يعرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . حتى أتوا متضايقا من ثنية فجلسوا يتغدون ، وجلست على رأس قرن ، فصعد إلى منهم أربعة فى الجبل ، قلت : هل تعرفوننى؟ أنا سلمة بن الأكوع لا أطلب رجلا منكم إلا أدركته ، ولا يطلبنى فيدركنى ، فرجعوا . فما برحت مكانى حتى رأيت فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخللون الشجر . فإذا أولهم أخرم ، وعلى أثره أبو قتادة ، وعلى أثره المقداد بن الأسود ، فالتقى عبد الرحمن وأخرم ، فعقر بعبد الرحمن فرسه ، وطعنه عبد الرحمن فقتله ، وتحول على فرسه ولحق قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله ، وولى القوم مدبرين ، نتبعهم أعدو على رجلى ، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذا قرد ، ليشربوا منه ، وهم عطاش ، فأجليتهم عنه ، فما ذاقوا قطرة منه ، ولحقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم والخيل عشاء ، فقلت : يا رسول الله إن القوم عطاش ، فلو بعثنى فى مائة رجل استنقذت ما عندهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم ، فقال : يا ابن الأكوع . ملكت فاسجح ، ثم قال : إنهم ليقرون الآن فى غطفان .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة . وأعطانى سهمين ، سهم الراجل وسهم الفارس ، وأردفنى وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة .

استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة فى هـذه الغزوة ابن أم مكتوم ، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو [1] .

---

(١) انظر المصدرين السابقين ، وزاد المعاد ٢ / ١٢٠

غـــزوة خيبر ووادى القرى (فى المحرم سنة ٧ هـ)

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلا من المدينة فى جهة الشمال ، وهى الآن قرية فى مناخها بعض الوخامة .

سبب الغـــزوة :

ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة ، وأمن منه أمنا باتا بعد الهدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين — اليهود وقبائل نجد حتى يتم الأمن والسلام ، ويسود الهدوء فى المنطقة ، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هى وكرة الدس والتآمر ، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هى الجديرة بالتفات المسلمين أولا .

أما كون خيبر بهذه الصفة ، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا فى الاتصالات بالمنافقين — الطابور الخامس فى المجتمع الإسلامى — وبغطفان وأعراب البادية — الجناح الثالث من الأحزاب — وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال ، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه فى محن متواصلة ، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبى صلى الله عليه وسلم ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية ، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين ، مثل سلام بن أبى الحقيق ، وأسير بن زارم ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك . وإنما أبطأوا فى القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم — وهى قريش — كانت مجابهة للمسلمين ، فلمـــا انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين ، واقترب لهم يوم الحساب .

الخروج إلى خيبر :

قال ابن إسحاق : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر .

قال المفسرون : إن خيبر كانت وعدا وعدها الله تعالى بقوله : «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه » (٤٨ : ٢٠) يعنى صلح الحديبية ، وبالمغانم الكثيرة خيبر .

عدد الجيش الإسلامى :

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الحديبية أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فيهم قائلا : « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل ، فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لايفقهون إلا قليلا » (٤٨ : ١٥) .

فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج إلى خيبر ، أعلن أن لايخرج معه إلا راغب فى الجهاد ، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة .

واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وقال ابن إسحاق : نميلة ابن عبد الله الليثى ، والأول أصح عند المحققين [1] .

وحينئذ قدم أبو هريرة المدينة مسلما ، فوافى سباع بن عرفطة فى صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعا فزوده ، حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه فى سهماتهم .

اتصال المنافقين باليهود :

وقد قام المنافقون يعملون لليهود ، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبى إلى يهود خيبر : أن محمدا قصد قصدكم وتوجه إليكم ، فخذوا حذركم ، ولا تخافوا منه ، فإن عدتكم وعدتكم كثيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزل لا سلاح معهم إلا قليل . فلما علم ذلك أهل خيبر ، أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق

(١) انظر فتح البارى ٧ / ٤٦٥ ، زاد المعاد ٢ / ١٣٣

وهوذة بن قيس إلى غطفان . يستمدونهم، لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر ، ومظاهرين لهم على المسلمين . وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين .

الطريق إلى خيبر :

وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اتجاهه نحو خيبر جبل عصر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم على الصهباء ، ثم نزل على واد يقال له الرجيع ، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة ، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر ، لإمداد اليهود ، فلما كانـــوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حسا ولغطا ، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا ، وخلوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين خيبر .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش — وكان اسم أحدهما حسيل — ليدلاه على الطريق الأحسن ، حتى يدخل خيبر مـــن جهة الشمال — أى جهة الشام — فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطفان .

قال أحدهما : أنا أدلك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال : يا رسول الله هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد ، فأمر أن يسميها له واحدا واحدا . قال : اسم واحد منها حزن فأبى النبي صلى الله عليه وسلم من سلوكه ، وقال : اسم الآخر شاش ، فامتنع منه أيضا وقال : اسم آخر حاطب . فامتنع منه أيضا ، وقال حسيل : فما بقى إلا واحد قال عمر : ما اسمه قال : مرحب ، فاختار النبي صلى الله عليه وسلم سلوكه .

بعض ما وقع فى الطريق :

١ — عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر فسرنا ليلا ، فقال ، رجل من القوم لعامر : يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ — وكان عامر رجلا شاعرا — فنزل يحدو بالقوم . يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينـــا ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداء لك ما اتقينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا إنا إذا صح بنا أبينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر بن الأكوع . قال : يرحمه الله . قال رجل من القوم : وجبت يانبى الله ، لولا أمتعتنا به [1] .

وكانوا يعرفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد [2] وقد وقع فى حرب خيبر .

٢ - وفى الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير « الله أكبر الله أكبر لا إله الله » فقال رسول الله صلى الله وسلم : أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا [3] .

٣ - وبالصهباء من أدنى خيبر صلى العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثرى ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب ، فمضمض ، ومضمض الناس ، ثم صلى ولم يتوضأ [3] ثم صلى العشاء [4] .

الجيش الإسلامى إلى أسوار خيبر :

بات المسلمون الليلة الأخيرة التى بدأ فى صباحها القتال قريبا من خيبر ، ولا تشعر بهم اليهود ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتى قوما بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صلى الفجر بغلس ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم

(١) صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣ ، صحيح مسلم باب غزوة ذى قرد وغيرها ٢ / ١١٥ .

(٢) نفس المصدر الأخير .

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٥ .

(٤) نفس المصدر ٢ / ٦٠٣ .

(٥) مغازى الواقدى (غزوة خيبر ص ١١٢) .

ومكاتلهم ، ولا يشعرون ، بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخميس ، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (١) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم اختار لمعسكره منزلا ، فأتاه حباب بن المنذر فقال : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى فى الحرب ؟ قال بل هو الرأى ، فقال : يا رسول الله إن هذا المنزل قريب جدا من حصن نطاة ، وجميع مقاتلى خيبر فيها ، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندرى أحوالهم ، وسهامهم تصل إلينا، وسهامنا لا تصل إليهم ، ولا نأمن من بياتهم ، وأيضا هذا بين النخلات، ومكان غائر ، وأرض وخيمة ، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكرا قال صلى الله عليه وسلم : الرأى ما أشرت ، ثم تحول إلى مكان آخر .

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال : قفوا . فوقف الجيش فقال : اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإنا لنسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر هذه القرية ، وشر أهلها ، وشر ما فيها ، اقدموا بسم الله (٢) .

التهيؤ للقتال وحصون خيبر :

ولما كانت ليلة الدخول قال : لأعطين الراية غـدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يعطاها فقال : أين على بن أبى طالب ، فقالوا : يا رسول الله هو يشتكى عينيه (٣) قال : فأرسلوا إليه فأتى به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣ ، ٦٠٤

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٢٩

(٣) وكان لأجل هذه الشكوى تخلف فى أول المسير ، ثم لحق بالجيش .

وسلم فى عينيه ودعا له فبرئ ، كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونـوا مثلنا ، قال : انفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم [1] .

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون :

١ ـ حصن ناعم
٢ ـ حصن الصعب بن معاذ
٣ ـ حصن قلعة الزبير
٤ ـ حصن أبى
٥ ـ حصن النزار

والحصون الثلاثة الأولى تقع فى منطقـة يقال لها (النطاة) ، وأما الحصنان الآخران فيقعان فى منطقة تسمى بالشق .

أما الشطر الثانى ، ويعرف بالكتيبة ، ففيه ثلاثة حصون فقط :

١ ـ حصن القموص (كان حصن بنى أبى الحقيق من بنى النضير) .
٢ ـ حصن الوطيح .
٣ ـ حصن السلالم .

وفى خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع فى مناعتها وقوتها .

والقتال المرير إنما دار فى الشطر الأول منها ، أما الشطـر الثانى فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال .

بدء المعركة وفتح حصن ناعم :

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانيـة هـو حصن ناعم

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٥٠٥ ، ٦٠٦ ، ويؤخذ من بعض الروايات أن إعطاء الراية لعلى كان بعد فشل عدة محاولات لفتح حصن من حصونهـم . والراجح عنـد المحققين هو ما ذكرنا .

وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجى ، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودى الذى كان يعد بالألف .

خرج على بن أبى طالب رضى الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن ، ودعا اليهود إلى الإسلام ، فرفضوا هذه الدعوة ، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب ، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة . قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عمى عامر فقال :

قد علمت خيبر أنى عامر   شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب فى ترس عمى عامر ، وذهب عامر يسفل له ، وكان سيفه قصيرا ، فتناول به ساق اليهودى ليضربه فيرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه، وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : إن له لأجرين وجمع بين إصبعيه ، إنه لجاهد مجاهد قل عربى شى بها مثله [1] .

ويبدو أن مرحبا دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى ، وجعل يرتجز بقوله : قد علمت خيبر أنى مرحب . . إلخ ، فبرز له على بن أبى طالب . قال سلمة بن الأكوع : فقال على :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة   كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيــل السندره

فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه [2] .

---

(١) صحيح مسلم باب غزوة خيبر ٢ / ١٢٢ ، باب غزوة ذى قرد وغيرها ٢ / ١١٥ ، صحيح البخارى باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٣

(٢) بين المصادر اختلاف كبير فى الرجل الذى قتل مرحبا ، وفى اليوم الذى قتل فيه وفتح هذا الحصن وبعض هذا الاختلاف موجود فى سياق روايات الصحيحين أيضا ، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح سياق رواية البخارى .

ولما دنا على رضى الله عنه من حصونهم اطلع يهودى من رأس الحصن، وقال: من أنت، فقال: أنا على بن أبي طالب ، فقال اليهودى : علوتم وما أنزل على موسى.

ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو، يقول من يبارز ؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفية أمه : يا رسول الله ، يقتل ابنى ؟ قال : بل ابنك يقتله فقتله الزبير .

ودار القتال المرير حول حصن ناعم ، قتل فيه عدة سراة من اليهود ، انهارت لأجله مقاومة اليهود ، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أياما لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين ، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتحم المسلمون حصن ناعم .

فتح حصن الصعب بن معاذ :

وكان حصن الصعب الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصارى، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح هذا الحصن دعوة خاصة .

وروى ابن إسحاق : أن بنى سهم من أسلم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : لقد جهدنا وما بأيدينا من شئ ، فقال : اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدى شئ أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء ، وأكثرها طعاما وودكا . فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاما وودكا منه [1] .

ولما ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم فى المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن . ثم فتح

(١) ابن هشام ملخصا ٢ / ٣٣٢

الحصن فى ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات .

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التى ورد ذكرها فى رواية ابن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية .

فتح قلعة الزبير :

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطاة إلى قلعة الزبير ، وهو حصن منيع فى رأس قلة ، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه ، ففرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الحصار ، وأقام محاصرا ثلاثة أيام . فجاء رجل من اليهود ، وقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرا ما بالوا إن لهم شرابا وعيونا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك . فقطع ماءهم عليهم ، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فتح قلعة أبى :

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبى وتحصنوا فيه ، وفرض المسلمون عليهم الحصار ،وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة ، وقد قتلهما أبطال المسلمين ، وكان الذى قتل المبارز الثانى هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى صاحب العصابة الحمراء . وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة ، واقتحم معه الجيش الإسلامى ،وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن ، ثم تسلل اليهود من القلعة ، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن فى الشطر الأول .

فتح حصن النزار :

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لايستطيعون اقتحام هذه القلعة ، وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل ولذلك أقاموا فى هذه القلعة مع الذرارى والنساء ، بينما كانوا قد أخلوا منها القلاع الأربعة السابقة .

وفرض المسلمون على هـــذا الحصن أشد الحصار ،وصاروا يضغطون عليهم بعنف ،ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلا للاقتحام فيه . أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين ،لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال ، وبإلقاء الحجارة .

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين ، أمر النبى صلى الله عليه وسلم بنصب آلات المنجنيق ، ويبدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف ،فأوقعوا الخلل فى جدران الحصن ، واقتحموه ،ودار قتال مرير فى داخل الحصن انهزم أمامـــه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى ، بل فروا ـ من فروا ـ من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم .

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر ،وهى ناحية النطاة والشق ، وكانت فى هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أخلوا هذه الحصون ،وهربوا إلى الشطر الثانى من بلدة خيبر .

فتح الشطر الثانى من خيبر :

ولما فتح ناحية النطاة والشق ،تحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلالم حصن أبى الحقيق من بنى النضير ، وجاءهم كل فل كان انهزم من النطاة والشق ، وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازى هل جرى هناك قتال فى أى حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن إسحاق صريح فى جريان القتال لفتح حصن القموص . بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام [1] .

أما الواقدى، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة ، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال . وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال .

ومهما كان فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الناحية — الكتيبة — فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوما ، واليهود لايخرجون من حصونهم حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح .

المفاوضة :

وأرسل ابن أبى الحقيق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : انزل فأكلمك؟ قال : نعم فنزل، وصالح على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ماكان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء — أى الذهب والفضة — والكراع والحلقة إلا ثوبا على ظهر إنسان [2] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئا ، فصالحوه على ذلك [3] وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين وبذلك تم فتح خيبر .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧

(٢) ولكن صرح فى رواية أبى داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون اليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم (انظر سنن أبى داود ، باب ما جاء فى حكم أرض خيبر ٢ / ٧٦)

(٣) زاد المعاد ٢ / ١٣٦

قتل ابني أبي الحقيق لنقض العهد :

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبي الحقيق مالا كثيرا ، غيبا مسكا فيه مال وحلى لحيي بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

قال ابن إسحاق : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة الربيع ، وكان عنده كنز بني النضير ، فسأله عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رجل من اليهود فقال : إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك ؟ قال : نعم ! فأمر بالخربة ، فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ،ثم سأله عما بقي ،فأبى أن يؤديه. فدفعه إلى الزبير ، وقال : عذبه حتى نستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن سلمة ، فضرب عنقه بمحمود بن سلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم ألقى عليه الرحى ، وهو يستظل بالجدار فمات)

وذكر ابن القيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل ابني أبي الحقيق وكان الذي اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة .

وسبي رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيي بن أخطب ، وكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق ، وكانت عروسا حديثة عهد بالدخول .

قسمة الغنائم :

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلي اليهود من خيبر ، فقالوا : يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لايفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ،ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرهم . وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم .

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهما ، وجمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم، سهم لنوائبه وما يتنزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم ، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفا وأربعمائة وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، فصار للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم واحد(١) .

ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخارى عن ابن عمر قال : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر ، وما رواه عن عائشة قالت : لما فتحت خيبر قلنا : الآن نشبع من التمر (٢) ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل (٣) .

قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعريين :

وفى هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه .

قال أبو موسى بلغنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه — أنا وأخوان لى — فى بضع وخمسين رجلا من قومى ، فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفرا وأصحابه عنده ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٣٧ ، ١٣٨
(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٠٩
(٣) زاد المعاد ٢ / ١٤٨ ، صحيح مسلم ٢ / ٩٦

حتى قدمنا فوافقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئا إلا لمن شهد معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم (١) .

ولما قدم جعفر على النبي صلى الله عليه وسلم تلقاه وقبله ، وقال : والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر (٢) .

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشى على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلا ، معهم من بقى من نسائهم وأولادهم ، وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك (٣) .

الزواج بصفية :

ذكرنا أن صفية جعلت فى السبايا حين قتل زوجها كنانة بن أبى الحقيق لغدره ، ولما جمع السبى جاء دحية بن خليفة الكلبى ، فقال : يا نبى الله أعطنى جارية من السبى ، فقال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية بنت حيى ، فجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يانبى الله أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة وبنى النضير ، لاتصلح إلا لك ، قال : ادعوه بها . فجاء بها ، فلما نظر إليها النبى صلى الله عليه وسلم قال : خذ جارية من السبى غيرها ، وعرض عليها النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، حتى إذا كان بسد الصهباء راجعا إلى المدينة حلت ، فجهزتها له أم سليم ، فأهدتها له من الليل ، فأصبح عروسا بها ، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق ، وأقام عليها ثلاثة أيام فى الطريق يبنى بها (٤) .

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٤٤٣ ، وانظر ايضا فتح البارى ٧ / ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧

(٢) زاد المعاد ٢ / ١٣٩

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١ / ١٢٨

(٤) صحيح البخارى ١ / ٥٤ ، ٢ / ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، زاد المعاد ٢ / ١٣٧

ورأى بوجهها خضرة ، فقال : ما هذا ؟ قالت : يا رسول الله رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه،وسقط فى حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا ، فقصصتها على زوجى ، فلطم وجهى . فقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينـــة [١] .

أمر الشاة المسمومة :

ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر بعـــد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية ، وقد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل لها : الذراع ،فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الذراع ، فلاك منها مضغة فلم يسغها ، ولفظها ، ثم قال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم،ثم دعا بها فاعترفت، فقال :ما حملك على ذلك ؟ قالت : قلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر ، فتجاوز عنها .

وكان معه بشر بن البراء بن معرور أخذ منها أكلة فأساغها فمات منها .

واختلفت الروايات فى التجاوز عن المرأة وقتلها ، وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولا . فلما مات بشر قتلها قصاصا [٢] .

قتلى الفريقين فى معارك خيبر :

وجملة من استشهد من المسلمين فى معارك خيبر ستة عشر رجلا ، أربعة من قريش وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر ، والباقون من الأنصار .

---

(١) نفس المصدر الأخير ، وابن هشام ٢ / ٣٣٦

(٢) انظر زاد المعاد ٢ / ١٣٩ ، ١٤٠ ، فتح البارى ٧ / ٤٩٧ ، وأصل القصة مروية فى البخارى مطولا ومختصرا ، ١ / ٤٤٩ ، ٢ / ٦١٠ ، ٨٦٠، وفى ابن هشام ٢ / ٣٣٧ ، ٣٣٨

ويقال : إن شهداء المسلمين في هذه المعارك ١٨ رجلا . وذكر العلامة المنصور فوري ١٩ رجلا ثم قال : إني وجدت بعد التفحص ٢٣ اسما ، واحد منها في الطبري فقط ، وواحد عند الواقدي فقط ، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة وواحد اختلفوا هل قتل في بدر أو خيبر ، والصحيح أنه قتل في بدر (١) .

أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلا .

فـــدك :

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر ، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود فدك ، ليدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه ، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصالحونه على النصف من فدك بمثل ما صالح عليه أهل خيبر فقبل ذلك منهم ، فكانت فدك لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة ، لأنه لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب (٢) .

وادى القرى :

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر ، انصرف إلى وادى القرى وكان بها جماعة من اليهود ، وانضاف إليهم جماعة من العرب .

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على تعبئة ، فقتل مدعم عبد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الناس : هنيئا له الجنة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كلا . والذى نفسى بيده إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم ، لم تصبها المقاسم ، لتشتعل عليه نارا . فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشراك أو شراكين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : شراك من نار أو شراكان من نار (٣) .

---

(١) رحمة للعالمين ٢ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٣٧ ، ٣٥٣

(٣) صحيح البخاري ٢ / ٦٠٨

ثم عبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ،وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عبادة بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلا ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقى إلى الإسلام .

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم ، فيصلى بأصحابه ، ثم يعود ، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم،وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادى القرى أربعة أيام . وقسم على أصحابه ما أصاب بها ، وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود، وعاملهم عليها [١] (كما عامل أهل خيبر) .

تيماء :

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فدك ووادى القرى لم يبدو أى مقاومة ضد المسلمين بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح ، فقبل ذلك منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقاموا بأموالهم [٢] . وكتب لهم بذلك كتابا وهاك نصه : هذا كتاب محمد رسول الله لبنى عاديا إن لهم الذمة . وعليهم الجزية ولاعداء ولاجلاء ، الليل مد ، والنهار شد ، وكتب خالد بن سعيد [٣] .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٤٦ ، ١٤٧

(٢) نفس المصدر ٢ / ١٤٧

(٣) ابن سعد

العود إلى المدينة :

ثم أخذ رسول الله في العودة إلى المدينة . وفي مرجعه ذلك سار ليلة ، ثم نام في آخر الليل ببعض الطريق، وقال لبلال : اكلأ لنا الليل فغلبت بلالا عيناه ، وهو مستند إلى راحلته ، فلم يستيقظ أحد ، حتى ضربتهم الشمس ، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من ذلك الوادي ، وتقدم ، ثم صلى الفجر بالناس ، وقيل : إن هذه القصة في غير هذا السفر [1] .

وبعد النظر في تفصيل معارك خيبر يبدو أن رجوع النبي صلى الله عليه وسلم كان في أواخر صفر أو في ربيع الأول سنة ٧ هـ .

سرية أبان بن سعيد :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف أكثر من كل قائد عسكري أن إخلاء المدينة تماما بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعا ، بينما الأعراب ضاربة حولها تطلب غـرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة ، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب . تحت قيادة أبان بن سعيد ، بينما كان هو إلى خيبر ، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبا عليه ، فوافى النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر ، وقد افتتحها .

والأغلب أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٧ . وورد ذكر هذه السرية في البخاري [2] قال ابن حجر : لم أعرف حال هذه السرية [3] .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣٤٠ ، والقصة معروفة مروية في عامة كتب الحديث؛ وانظر زاد المعاد ٢ / ١٤٧

(٢) انظر صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٢ / ٦٠٥ ، ٦٠٩

(٣) فتح الباري ٧ / ٤٩١

بقية السرايا والغزوات في السنة السابعة

غـــزوة ذات الرقاع :

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة تفـــرغ تماما للالتفات إلى الجناح الثالث ، أى إلى الأعراب القساة الضاربين فى فيافى نجد والذين مازالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى.

ولما كان هؤلاء البدو لاتجمعهم بلدة أو مدينة ، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع كانت الصعوبة فى فرض السيطرة عليهم وإخمـــاد نار شرهم تماما تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر ،ولذلك لم تكن تجدى فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب . وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى .

ولفرض الشوكة — أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة عـــلى أطراف المدينة — قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بحملة تأديبية عرفت بغـــزوة ذات الرقاع .

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه الغزوة فى السنة الرابعة ، ولكن مساهمة أبى موسى الأشعرى وأبى هريرة رضى الله عنهما فى هذه الغزوة تدل على وقوعها بعد خيبر ، والأغلب أنها وقعت فى شهر ربيع الأول سنة ٧هـ .

وملخص ماذكره أهل السير حول هذه الغزوة أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع باجتماع أنمار أوبنى ثعلبة وبنى محارب من غطفان ، فأسرع بالخروج إليهم فى أربعمائة أوسبعمائة من أصحابه،واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان ، وسارفتوغل فى بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له نخل على بعد يومين من المدينة ولقى جمعا من غطفان فتوافقوا ولم يكن بينهم قتال ، إلا أنه صلى بهم يومئـــذ صلاة الخوف .

وفى البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : خـــرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ،

ونقبت قدماى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت ذات الرقاع لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا (١) .

وفيه عن جابر : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وتفرق الناس فى العضاة ، يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق بها سيفه . قال جابر : فنمنا نومة ،فجاء رجل من المشركين . فاخترط سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتخافنى ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله . قال جابر : فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا ، فجئنا فإذا عنده أعرابى جالس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم ، فاستيقظت وهو فى يده صلتا . فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت : الله . فها هو ذا جالس ، ثم لم يعاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفى رواية : وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا ، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين ،وكان للنبى صلى الله عليه وسلم أربع ، وللقوم ركعتان (٢)

وفى رواية أبى عوانة : فسقط السيف من يده ،فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : من يمنعك منى ؟ قال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال الأعرابى أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، قال : فخلى سبيله ، فجاء إلى قومه ، فقال جئتكم من عند خير الناس (٣) .

وفى رواية البخارى قال مسدد عن أبى عوانة عن أبى بشر : اسم الرجل غورث بن الحارث (٤) قال ابن حجر : ووقع عند الواقدى فى سبب هذه القصة

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة ذات الرقاع ٢/ ٥٩٢ ، وصحيح مسلم باب غزوة ذات الرقاع ٢ / ١١٨

(٢) صحيح البخارى ١ / ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٢ / ٥٩٣

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٦٤ ، وانظر فتح البارى ٧ / ٤١٦

(٤) صحيح البخارى ٢ / ٥٩٣

أن اسم الأعرابي دعثور ، وأنه أسلم . لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان في غزوتين والله أعلم (١) .

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين ،فنذر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق دما في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاء ليلا ، وقد أرصد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين ربيئة للمسلمين من العدو ، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر ، فضرب عبادا وهو قائم يصلي بسهم فنزعه . ولم يبطل صلاته ، حتى رشقه بثلاثة أسهم ، فلم ينصرف منها حتى سلم ، فأيقظ صاحبه ، فقال : سبحان الله هلا نبهتني ، فقال : إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها (٢) .

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة ، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة ، بل استكانت شيئا فشيئا حتى استسلمت ، بل وأسلمت ، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة ، وتغزو حنينا وتأخذ من غنائمها ، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح ، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب ، وساد المنطقة الأمن والسلام . واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل ، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة ، لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين .

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شوال سنة ٧هـ . وبعث في خلال ذلك عدة سرايا وهاك بعض تفصيلها :

---

(١) فتح الباري ٧ / ٤٢٨ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ١١٢ ، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة ابن هشام ٢ / ٢٠٣ ، إلى ٢٠٩ ، زاد المعاد ٢ / ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، فتح الباري ٧ / ٤١٧ إلى ٤٢٨

١ – سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح بقديـــد ، فى صفر أو ربيع الأول سنة ٧هـ . كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد ، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر . فشنوا الغارة فى الليل فقتلوا من قتلوا ، وساقوا النعم ، وطاردهم جيش كبير من العدو حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر ، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين . ونجح المسلمون فى بقية الانسحاب .

٢ – سرية حسمى فى جمادى الثانيـــة سنة ٧ هـ ، وقد مضى ذكرها فى مكاتبة الملوك .

٣ – سرية عمر بن الخطاب إلى تربة فى شعبان سنة ٧هـ . ومعه ثلاثون رجلا. كانوا يسيرون الليل ويستخفون فى النهار ، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا ، وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق أحدا فانصرف راجعا إلى المدينة .

٤ – سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى بنى مرة بناحية فـــدك فى شعبان سنة ٧هـ فى ثلاثين رجلا . خـــرج إليهم واستاق الشاء والنعم ، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل ، فرموهم بالنبل حتى فنى نبل بشير وأصحابه ، فقتلوا جميعا إلا بشير فإنه ارتث إلى فدك ، فأقام عند يهود ، حتى برأت جراحه ، فرجع إلى المدينة .

٥ – سرية غالب بن عبد الله الليثى فى رمضان سنة ٧هـ إلى بنى عوال ، وبنى عبد بن ثعلبة بالميفعة ، وقيل إلى الحرقات من جهينة فى مائة وثلاثين رجلا ، فهجموا عليهم جميعا ، وقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا نعما وشاء ، وفى هذه السرية قتل أسامة بن زيد نهيك بن مرداس بعد أن قال : لاإله إلا الله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

٦ – سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر فى شوال سنة ٧هـ فى ثلاثين راكبا. وذلك أن أسير أو بشير بن زرام كان يجمع غطفان لغزو المسلمين ، فأخرجوا أسيرا فى ثلاثين من أصحابه ، وأطمعوه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستعمله على خيبر ، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين.

٧ ــ سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى يمن وجبار (بالفتح ، أرض لغطفان وقيل لفزارة وعذرة) فى شوال سنة ٧هـ فى ثلاثمائة من المسلمين، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة ، فساروا الليل وكمنوا النهار ، فلما بلغهم مسير بشير هربوا ، وأصاب بشير نعما كثيرة ، وأسر رجلين ، فقدم بهما إلى المدينة ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلما .

٨ ــ سرية أبى حدرد الأسلمى إلى الغابة ذكرها ابن القيم فى سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء ، وملخصها أن رجلا من جشم بن معاوية أقبل فى عدد كبير إلى الغابة ، يريد أن يجمع قيسا على محاربة المسلمين . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حدرد مع رجلين فاختار أبو حدرد خطة حربية حكيمة ، وهزم العدو هزيمة منكرة . واستاق الكثير من الإبل والغنم [1] .

. . .

(١) زاد المعاد ٢ / ١٤٩ ، ١٥٠ ،وانظر لتفصيل هذه السرايا رحمة للعالمين ٢ / ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، زاد المعاد ٢ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،تلقيح فهوم أهل الأثر مع حواشيها ص ٣١ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤

عمــرة القضــاء

قال الحاكم : تواترت الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم ، وأن لايتخلف منهم أحد شهد الحـديبية ، فخرجوا إلا من استشهد ، وخرج معه آخرون معتمرين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان . أ هـ [1] .

واستخلف على المدينة عويف أبا رهم الغفارى ، وساق ستين بدنة ، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمى ، وأحرم للعمرة من ذى الحليفة ، ولبى ، ولبى المسلمون معه ، وخرج مستعدا بالسلاح والمقاتلة ،خشية أن يقع من قريش غدر ، فلما بلغ يأجج وضع الأداة كلها الحجف والمجان والنبل والرماح ، وخلف عليها أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل ، ودخل بسلاح الراكب والسيوف فى القرب [2]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الدخول راكبا على ناقته القصواء ، والمسلمون متوشحون السيوف ، محدقون برسول الله صلى الله عليه وسلم يلبون .

وخرج المشركون إلى جبل قعيقعان ـ الجبل الذى فى شمال الكعبة ـ ليروا المسلمين ، وقد قالوا فيما بينهم : إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين . ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرسلوا الأشواط كلها إلا الإبقاء ، وإنما أمرهم بذلك ليرى المشركين قوته [3] كما أمرهم بالاصطباغ أى أن يكشفوا المناكب اليمنى ويضعوا طرفى الرداء على اليسرى .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من الثنية التى تطلعه على الحجون ـ وقد صف المشركون ينظرون إليه ـ فلم يزل يلبى حتى استلم الركن بمحجنة ،

---

(١) فتح البارى ٧ / ٧٠٠

(٢) نفس المصدر وزاد المعاد ٢ / ١٥١

(٣) صحيح البخارى ١ / ٢١٨ ، ٢ / ٦١٠ ، ٦١١ ، صحيح مسلم ١ / ٤١٢

ثم طاف ، وطاف المسلمون ، وعبد الله بن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتجز متوشحا بالسيف :

خلوا بنى الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير فى رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله	فى صحف تتلى على رسوله
يا رب إنى مؤمن بقيلــه	إنى رأيت الحق فى قبوله
بأن خــير القتل فى سبيله	اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيلة	ويذهل الخليل عن خليله [1]

وفى حديث أنس فقال عمر : يا ابن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وفى حرم الله تقول الشعر ؟ . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : خل عنه ياعمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل [2] .

ورمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ثلاثة أشواط ، فلما رآهم المشركون قالوا : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ، هؤلاء أجلد مــن كذا وكذا [3] .

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة ، فلما فرغ من السعى . وقد وقف الهدى عند المروة قال : هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر ، فنحر عند المروة وحلق هناك،وكذلك فعل المسلمون . ثم بعث ناسا إلى يأجج ، فيقيموا على السلاح ، ويأتى الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثا،فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليا فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، ونزل بسرف فأقام بها .

---

(١) اضطربت الأشعار وترتيبها فى الروايات فجمعنا بين شتيتها .

(٢) رواه الترمذى ، أبواب الاستئذان والأدب ، باب ما جاء فى إنشاد الشعر ٢ / ١٠٧

(٣) صحيح مسلم ١ / ٤١٢

ولما أراد الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة ، تنادى ، ياعم ياعم ، فتناولها علي واختصم فيها علي وجعفر وزيد فقضى النبي صلى الله عليه وسلم لجعفر لأن خالتها كانت تحته .

وفى هذه العمرة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بميمونة بنت الحارث العامرية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الدخول فى مكة بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة فجعلت أمرها إلى العباس ، وكانت أختها أم الفضل تحته . فزوجها إياه ، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشى فبنى بها بسرف [1] .

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ، إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أى المصالحة التى وقعت فى الحديبية ، والوجه الثانى رجحه المحققون [2] وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء : القضاء ، والقضية ، والقصاص ، والصلح [3] .

١ ـ سرية ابن أبى العوجاء، فى ذى الحجة سنة ٧هـ فى خمسين رجلا بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى سليم، ليدعوهم إلى الإسلام ، فقالوا : لاحاجة لنا إلى ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالا شديدا. جرح فيه أبو العوجاء، وأسر رجلان من العدو

٢ ـ سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك فى صفر سنة ٨هـ بعث فى مائتى رجل، فأصابوا من العدو نعما ، وقتلوا منهم قتلى .

٣ ـ سرية ذات أطلح فى ربيع الأول سنة ٨هـ كانت بنو قضاعة قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب ابن عمير الأنصارى فى خمسة عشر رجلا ، فلقوا العدو ، فدعوهم إلى الإسلام

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٥٢
(٢) انظر زاد المعاد ١ / ١٧٢ ، فتح البارى ٧ / ٥٠٠
(٣) انظر نفس المصدر الأخير

فلم يستجيبوا لهم ، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهد كلهم إلا رجل واحد، فقد ارتث من بين القتلى [1] .

٤ – سرية ذات عرق إلى بنى هوازن فى ربيع الأول سنة ٨ هـ . كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسدى فى خمس وعشرين رجلا ، فاستاقوا نعما من العدو ولم يلقوا كيدا [2] .

• • •

---

(١) رحمة للعالمين ٢ / ٢٣٩

(٢) نفس المصدر وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ص ٣٣ حاشية

معركة مؤتـــة

وهذه المعركة أكبر لقاء مثخن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى مقدمة وتمهيد لفتوح بلـــدان النصارى ، وقعت فى جمادى الأولى سنة ٨هـ ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩م.

ومؤتـــة (بالضم فالسكون) هى قرية بأدنى بلقـــاء الشام ، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان .

سبب المعركة :

وسبب هذه المعركة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه إلى عظيم بصرى . فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى – وكان عاملا على البلقاء من أرض الشام من قبـــل قيصر – فأوثقه رباطا ، ثم قـــدمه ، فضرب عنقه .

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم ، يساوى بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نقلت إليه الأخبار ، فجهز إليهم جيشا قوامـــه ثلاثة آلا ف مقاتل [١] ، وهو أكبر جيش إسلامى لم يجتمع قبل ذلك إلا فى غزوة الأحزاب .

أمراء الجيش ووصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم :

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا البعث زيد بن حارثة ، وقال : إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة [٢] . وعقد لهم لواء أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة [٣] .

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، وأن يدعو من هناك إلى الإسلام

(١) زاد المعاد ٢ / ١٥٥ ، فتح البارى ٧ / ٥١١

(٢) صحيح البخارى باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢ / ٦٦١

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٧

فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم ، وقاتلوهم ، وقال لهم : اغزوا بسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لاتغدروا ، ولاتغيروا ، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ، ولاكبيرا فانيا ، ولامنعزلا بصومعة ، ولاتقطعوا نخلا ولاشجرة ، ولاتهدموا بناء [1]

توديع الجيش الإسلامى وبكاء عبد الله بن رواحة :

ولما تهيأ الجيش الإسلامى للخروج حضر الناس ، ودعوا أمــراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلموا عليهم ، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش ، عبد الله ابن رواحة ، فقالوا : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ، ولاصبابة بكم ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » (١٩ : ٧١) فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود ؟ فقال المسلمون : صحبكم الله بالسلامة ، ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين غانمين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفــرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيــدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبــدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى ... يا أرشد الله من غاز ، وقد رشدا

ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف وودعهم [2] .

تحرك الجيش الإسلامى ، ومباغتته حالة رهيبة :

وتحرك الجيش الإسلامى فى اتجاه الشمال حتى نزل معان ، مــن أرض الشام ، مما يلى الحجاز الشمالى . وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلى مائة ألف .

---

(١) نفس المصدر ، ورحمة للعالمين ٢ / ٢٧١

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٦ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٧

المجلس الاستشارى بمعان :

لم يكن المسلمون أدخلوا فى حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم، الذى بوغتوا به فى هذه الأرض البعيدة – وهل يهجم جيش صغير ، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب ، على جيش كبير عرمرم ، مثل البحر الخضم ، قوامه مائتا ألف مقاتل ؟ حار المسلمون ، وأقاموا فى معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وينظرون ويتشاورون ثم قالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأى ، وشجع الناس ، قائلا : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة . وأخيرا استقر الرأى على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة .

الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو :

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامى ليلتين فى معان ، تحركوا إلى أرض العدو ، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها « مشارف » ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى مؤتة ، فعسكروا هناك ، وتعبأوا للقتال ، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذرى ، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصارى .

بداية القتال ، وتناوب القواد :

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان ، وبدأ القتال المرير ، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل . معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة ، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب .

أخذ الراية زيد بن حارثة – حب رسول الله صلى الله عليه وسلم – وجعل

يقاتل بضراوة بالغة ، وبسالة لايوجد لها نظير إلا فى أمثاله من أبطال الإسلام ، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط فى رماح القوم ، وخر صريعا .

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، وطفق يقاتل قتالا منقطع النظير ، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ، ولم يزل بها حتى قطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه ، فلم يزل رافعا إياها حتى قتل . يقال : إن روميا ضربه ضربة قطعته نصفين ، وأثابه الله بجناحيه جناحين فى الجنة، يطير بهما حيث يشاء ، ولذلك سمى بجعفر الطيار ، وبجعفر ذى الجناحين .

روى البخارى عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ، ليس منها شئ فى دبره ، يعنى ظهره[1]

وفى رواية أخرى قال ابن عمـــر : كنت فيهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى، ووجدنا ما فى جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية [2] . وفى رواية العمرى عن نافع زيادة وفوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده»[3]

ولما قتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وتقدم بها ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنـــه ... كارهة أو لتطاوعنـــه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... مالى أراك تكرهين الجنه

ثم نزل ، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال : شد بهذا صلبك ، فإنك قد

---

(١) صحيح البخارى ، باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢ / ٦١١

(٢) نفس المصدر ٢ / ٦١١

(٣) انظر فتح البارى ٧ / ٥١٢ ، وظاهر الحديثين التخالف فى العدد ، وجمع بأن الزيـــادة باعتبار ما وجد فيه من رمى السهام ، انظر المصدر المذكور .

لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة ، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه تقدم ، فقاتل حتى قتل .

الراية إلى سيف من سيوف الله :

وحينئذ تقدم رجل من بنى عجلان — اسمه ثابت بن أرقم — فأخذ الراية وقال :يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال :ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية قاتل قتالا مريرا ، فقد روى البخارى عن خالد بن الوليد قال : لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية [1] . و فى لفظ آخر : لقد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وصبرت فى يدى صفيحة لى يمانية [2] .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مؤتة — مخبرا بالوحى ، قبل أن يأتى إلى الناس الخبر من ساحة القتال — : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب — وعيناه تذرفان — حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم [3] .

نهاية المعركة :

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريرتين كان مستغربا جدا أن ينجح هذا الجيش الصغير فى الصمود أمام تيارات ذلك البحر الغطمطم من جيوش الروم . ففى ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه فى تخليص المسلمين ممـا ورطوا أنفسهم فيه .

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢ / ٦١١

(٢) نفس المصدر ٢ / ٦١١

(٣) نفس المصدر ٢ / ٦١١

واختلفت الروايات كثيرا فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيرا . ويظهر بعد النظر فى جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح فى الصمود أمام جيش الرومان طول النهار ، فى أول يوم من القتال . وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقى الرعب فى قلوب الرومان حتى ينجح فى الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة . فقد كان يعرف جيدا أن الإفلات من براثنهم صعب جدا لو انكشف المسلمون ، وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثانى غير أوضاع الجيش،وعبأه من جديد ، فجعل مقدمته ساقة ، وميمنته ميسرة ، وعلى العكس ، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم ، وقالوا : جاءهم مدد ، فرعبوا ، وصار خالد - بعد أن تراآى الجيشان ، وتناوشا ساعة - يتأخر بالمسلمين قليلا قليلا ، مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظنا منهم أن المسلمين يخدعونهم ، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم فى الصحراء .

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ، ولم يفكر فى القيام بمطاردة المسلمين ، ونجح المسلمون فى الانحياز سالمين ، حتى عادوا إلى المدينة (١) .

قتلى الفريقين :

واستشهد يومئذ من المسلمين اثناعشر رجلا ، أما الرومـــان ، فلم يُعرف عدد قتلاهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم .

أثر المعركة :

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر ، الذى عانوا مرارتها لأجله لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين ، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والحيرة ، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض ، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف ، فكان لقاء

(١) انظر فتح البارى ٧ / ٥١٣ ، ٥١٤ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٦ ، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصدرين والتى قبلهما .

هذا الجيش الصغير — ثلاثة آلاف مقاتل — مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير — — مائتا ألف مقاتل — ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر . كان كل ذلك من عجائب الدهر ، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته ، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله ، وأن صاحبهم رسول الله حقا . ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لاتزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام ، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرهـــا .

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان ، فكانت توطئة وتمهيدا لفتوح البلدان الرومانية ، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية .

• • •

سرية ذات السلاسل :

ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بموقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام في معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان ، وتكون سببا للائتلاف بينها وبين المسلمين حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى .

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ، لأن أم أبيه كانت امرأة من بلي . فبعثه إليهم في جمادى الآخرة سنة ٨هـ على إثر معركة مؤتة ليستألفهم ، ويقال : بل نقلت الاستخبارات أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا ، يريدون أن يدنوا مـــن أطراف المدينة ، فبعثه إليهم ، ويمكن أن يكون السببان اجتمعا معا .

وعقد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ، ومعهم ثلاثون فرسا ، وأمره أن يستعين بمن مر به من بلي وعذرة وبلقين . فسار الليل وكمن النهار ،

فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا ، فبعث رافع بن مكيث الجهنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين وعقد له لواء ، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار – فيهم أبو بكر وعمر – وأمره أن يلحق بعمرو ، وأن يكونا جميعا ولا يختلفا . فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت على مددا ، وأنا الأمير ، فأطاعه أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلى بالناس .

وسار حتى وطئ بلاد قضاعة ، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم ، ولقى فى آخر ذلك جمعا ، فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا .

وبعث عوف بن مالك الأشجعى بريـــدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بقفولهم وسلامتهم ، وما كان فى غزاتهم .

وذات السلاسل (بضم السين الأولى وفتحها : لغتان) بقعة وراء وادى القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام . وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جذام يقال له السلسل ، فسمى ذات السلاسل (١) .

سرية أبى قتادة إلى خضرة :

كانت هذه السرية فى شعبان سنة ٨هـ . وذلك لأن بنى غطفان كانوا يتحشدون فى خضرة – وهى أرض محارب بنجد – فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا قتادة فى خمسة عشر رجـــلا فقتل منهم ، وسبا وغنم ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة (٢) .

---

(١) انظر ابن هشام ٢ / ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، زاد المعاد ٢ / ١٥٧

(٢) رحمة للعالمين ٢ / ٢٣٣ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٣٣

غــزوة فتح مكــة

قال ابن القيم : هو الفتح الأعظم الذى أعــز الله به دينه ورسوله وجنـــده وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين ، من أيدى الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء ، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به فى دين الله أفواجا ، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا [1] أ هـ .

سبب الغــزوة :

قدمنا فى وقعة الحديبية أن بندا من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين تعتبر جزءا من ذلك الفريق ، فأى عدوان تتعرض له أى من تلك القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق

وحسب هذا البند دخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش ، وصارت كل من القبيلتين فى أمن من الأخرى وقد كانت بين القبيلتين عداوة و توترات فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، ووقعت هذه الهدنة ، وأمن كل فريق من الآخر اغتنمها بنو بكر ، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الديلى فى جماعة من بنى بكر فـــى شهر شعبان سنة ٨هـ ، فأغاروا على خزاعة ليلا ، وهم على ماء يقال له « الوتير » فأصابوا منهم رجالا ، وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة : لا إله اليوم يا بنى بكر ، أصيبوا ثأركم . فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٦٠

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى داز بديل بن ورقاء الخزاعي ، وإلى دار مولى لهم يقال له رافع .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي . فخرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . فوقف عليه ، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمدا حلفنا وحلف أبيه الأتلدا [1]
قد كنتم ولدا وكنا والدا [2] ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر . هداك الله ، نصرا أيدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل البدر ، يسمو صعدا
إن سيم خسفا وجهه تربدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل ، وأقل عددا هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا [3]

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نصرت يا عمرو بن سالم ، ثم عرضت له سحابة من السماء ، فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب .

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأخبروه بمن أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة .

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح :

ولاشك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرا محضا ونقضا صريحا للميثاق

---

(١) الأتلد : القديم ، يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بني هاشم منذ عهد عبد المطلب .
(٢) يشير إلى أن أم عبد مناف – وهي حبى زوجة قصي – كانت من خزاعة .
(٣) يقول : قتلنا وقد أسلمنا .

لم يكن له أى مبرر ، ولذلك سـرعان ما أحست قريش بغدرهـا ، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة ، فعقدت مجلسا استشاريا ، وقررت أن تبعث قائدهـا أبا سفيان ممثلا لها ليقوم بتجديد الصلح .

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما ستفعله قـريش إزاء غـدرتهم . قال : كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ، ويزيد فى المدة .

وخرج أبو سفيان ـ حسب ما قررته قريش ـ فلقى بديل بن ورقاء بعسفان ـ وهو راجع من المدينة إلى مكة ـ فقال : من أين أقبلت يا بديل ؟ ـ وظن أنـه أتى النبى صلى الله عليه وسلم ـ فقال : سرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى . قال : أو ما جئت محمدا ؟ قال : لا .

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا .

وقدم أبو سفيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال : يا بنية ، أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس . فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ماأنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم جاء فدخل على على بن أبى طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن ، غلام يدب بين يديهما ، فقال : يا على ، إنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائبا اشفع لى إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، لقد عزم رسول الله صلى الله عليه

وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة ، فقال : هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله مايبلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عينى أبى سفيان ، فقال لعلى بن أبى طالب فى هلع وانزعاج ويأس وقنوط : يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى قال : والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك . ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : أو تـــرى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى لم أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان فى المسجد ، فقال : أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، وانطلق .

ولما قدم على قريش ، قالوا :ما وراءك ؟ قال : جئت محمدا فكلمته ، فوالله ما رد على شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، قد أشار على بشئ صنعته ، فوالله ما أدرى هل يغنى عنى شيئا أم لا ؟ قالوا : وبم أمـــرك ؟ قال : أمرنى أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ، إن زاد الرجل على أن لعب بك . قال : لاوالله ما وجدت غير ذلك .

التهيؤ للغـــزوة ومحاولة الإخفاء :

يؤخذ من رواية الطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عائشة – قبل أن يأتى إليه خبر نقض الميثـــاق بثلاثة أيام – أن تجهزه ، ولايعلم أحد ، فدخل عليها أبو بكر ، فقال :يا بنية ماهذا الجهاز ؟ قالت : والله ما أدرى. فقال : والله ما هذا زمان غزو بنى الأصفر ، فأين يريد رسول الله ؟ قالت : والله لاعلم لى ، وفى صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبا ، وارتجز : يا رب إنى ناشد محمدا . . الأبيات . فعلم الناس بنقض الميثاق ، وبعد عمرو جاء بديل ثم أبو

سفيان وتأكد عند الناس الخبر ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاز ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة . وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها .

وزيادة فى الإخفاء والتعمية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبى قتادة بن ربعى إلى بطن أضم فيما بين ذى خشب وذى المروة على ثلاثة برد من المدينة ، فى أول شهر رمضان سنة ٨هـ ، ليظن الظان أنه صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى تلك الناحية ، ولتذهب بذلك الأخبار ، وواصلت هذه السرية سيرها ، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة ، فسارت إليه حتى لحقته (١) .

وكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا ، فجعلته فى قرون رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليا والمقداد (٢ فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادى بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلاها ، وقالا : معك كتاب ؟ فقالت ما معى كتاب ، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئا. فقال لها على : أحلف بالله ، ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهما ، فأتيا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه : (من حاطب بن

---

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضبط ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فقتله محلم بن جثامة لشئ كان بينهما ، وأخذ بعيره ومتبعه ، فأنزل الله « ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا » الآية ، وجاءوا بمحلم ليستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قام بين يديه قال : اللهم لاتغفر لمحلم ، وقالها ثلاثا ، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه ، قال ابن إسحاق : وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك . انظر زاد المعاد ٢ / ١٥٠ ، وابن هشام ٢ / ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨

أبى بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا، فقال: ما هذا يا حاطب ؟ فقال: لاتعجل على يا رسول الله ، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولابدلت ، ولكنى كنت امــرأ ملصقا فى قريش ، لست من أنفسهم ، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لى فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى . فقال عمر بن الخطاب : دعنى يارسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه قد شهد بدرا . وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فذرفت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم [1]

وهكذا أخذ الله العيون ، فلم يبلغ إلى قــريش أى خبر من أخبار تجهــز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال .

الجيش الإسلامى يتحرك نحو مكة :

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك سنة ٨هـ غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينــة متجها إلى مكة ، فى عشرة آلاف من الصحابة رضى الله عنهم واستخلف على المدينة أبا رهم الغفارى .

ولما كان بالجحفة أو فوق ذلك لقيه عمــه العباس بن عبد المطلب ، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلما مهاجرا ، ثم لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبــد الله بن أبى أمية ، فأعرض عنهما ، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو . ، فقالت له أم سلمة : لايكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك . وقال على لأبى سفيان بن الحارث : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين » (١٢ : ٩١) فإنه لا

(١) انظر صحيح البخارى ١ / ٤٢٢ ، ٢ / ٦١٢

برضى أن يكون أحد أحسن منه قولا . ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » (١٢ : ٩٢) فأنشده أبو سفيان أبياتا منها :

لعمرك إنى حين أحمل رايـــة لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى

هدانى هادٍ غير نفسى ودلنى على الله من طردته كل مطرد

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : أنت طردتنى كل مطرد [1]

الجيش الإسلامي ينزل بمر الظهران :

وواصل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيره وهو صائم ، والناس صيام ، حتى بلغ الكديد — وهو ماء بين عسفان وقديد — فأفطر وأفطر الناس معه [2] . ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران — وادى فاطمة — نزله عشاء ، فأمر الجيش ، فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

أبو سفيان بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وركب العباس — بعد نزول المسلمين بمر الظهران — بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحطابة أو أحدا يخبر قريشا ليخرجوا يستأمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخلها .

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وترقب ، وكـــان

---

(١) حسن إسلام أبى سفيان هذا بعد ذلك ، ويقال : إنه مارفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ، وشهد له بالجنة ، وقال : أرجو أن يكون خلفا من حمزة . ولما حضرته الوفاة قال : لا تبكوا على ، فوالله مانطقت بخطيئة منذ أسلمت . زاد المعاد ٢ / ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦١٣

أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار ، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام ،وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار .

قال العباس : والله إنى لأسير عليها - أى على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : مارأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا . قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة ، خمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة ؟ فعرف صوتى ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك ؟ فداك أبى وأمى . قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ، واصباح قريش والله .

قال : فما الحيلة ؟ فداك أبى وأمى ، قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب فى عجز هذه البغلة ، حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك ، فركب خلفى ، ورجع صاحباه .

قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها قالوا : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلى . فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان ، عدو الله ؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولاعهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان فدعنى أضرب عنقه ، قال : قلت : يارسول الله ، إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه ، فقلت : والله لايناجيه الليلة أحد دونى ، فلما أكثر عمر فى شأنه قلت : مهلا ياعمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عدى

ابن كعب ،اقلت مثل هذا ، قال : مهلا ياعباس ، فوالله لإسلامك كان أحب إلى من إسلام الخطاب ، لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به ، فذهبت ، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قال : ويحك ياأبـــا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لاإله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ، ماأحلمك وأكرمك وأوصلك ؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد .

قال : ويحك يا أبـــا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ، قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك :؟ أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شئ . فقال له العباس : ويحك اسلم ، واشهد أن لا إله إلاالله ، وأن محمـــدا رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق .

قال العباس : يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا . قال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

الجيش الإسلامى يغادر مر الظهران إلى مكة :

وفى هذا الصباح — صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨هـ — غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران إلى مكة ، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خطم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : ياعباس من هذه ؟ فيقول — مثلا — : سليم ، فيقول : مالى ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة فيقول : ياعباس من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ، ماتمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها ، فإذا أخبره قال : مالى ولبنى فلان ؟ حتى مر به

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لايرى منهم إلا الحدق من الحديد ، قال : سبحان الله ياعباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار. قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولاطاقة . ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما . قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبى سفيان قال له اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا . فلما حاذى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان قال : يارسول الله ألم تسمع ماقال سعد ؟ قال : وما قال ؟ فقال : كذا وكذا . فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا ، ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد . وقيل : بل دفعه إلى الزبير .

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامى :

ولما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان قال له العباس : النجاء إلى قومك . فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم فيما لاقبل لكم به . فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمش الساقين ، قبح من طليعة قوم .

قال أبو سفيان : ويلكم ، لاتغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بمالا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وماتغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وبشوا أوباشا لهم ، وقالوا : نقدم هؤلاء

فإن كان لقريش شئ كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا . فتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ،وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين . وكان فيهم رجل من بنى بكر – حماس بن قيس – كان يعد قبل ذلك سلاحا ، فقالت له امرأته : لماذا تعد ماأرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه قالت : والله مايقوم لمحمد وأصحابه شئ . قال : إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ؛ ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى علـه هذا سلاح كامل وآله

وذو غرارين سريع السله

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا فى الخندمة .

الجيش الإسلامى بذى طوى :

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضى حتى انتهى إلى ذى طوى – وكان يضع رأسه تواضعا لله حين رأى ماأكرمه الله به من الفتح ، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل – وهناك وزع جيشه وكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى - وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب – فأمره أن يدخل مكة من أسفلها ، وقال : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدا ، حتى توافونى على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على المجنبة اليسرى ، وكان معه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها – من كداء – وأن يغرز رايته بالحجون ، ولايبرح حتى يأتيه .

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحسر – وهم الذين لاسلاح معهم – فأمره أن يأخذ بطن الوادى حتى ينصب لمكة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الجيش الإسلامي يدخل مكة :

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها

فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه . وقتل من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة . كانا قد شذا عن الجيش . فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا جميعا ، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالـد وأصحابه بالخندمة فناوشوهم شيئا من قتال ، فأصابوا من المشركين اثنى عشر رجلا فانهزم المشركون ، وانهزم حماس بن قيس – الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين– حتى دخل بيته ، فقال لامرأتـه : أغلقـي على بابي . فقالت : وأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمه

واستقبلتنا بالسيوف المسلمه يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضربا فلا يسمع إلا غمغمه لهم نهيت خلفنا وهمهمه

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمـه

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا .

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجون عند مسجد الفتح ، وضرب له هناك قبة ، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الرسول صلى الله عليه وسلم يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام :

ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمهاجرون والأنصار بين يـديه وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاثمائـة وستون صنما ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا »

(١٧ : ٨١)« جاء الحق ومايبدئ الباطل ومايعيد» (٣٤ : ٤٩) والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ؛ ولم يكن محرما يومئذ . فاقتصر على الطواف . فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة . فأمر بها ففتحت فدخلها . فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – يستقسمان بالأزلام ، فقال : قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط . ورأى في الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحيت.

الرسول صلى الله عليه وسلم يصلى فى الكعبة ثم يخطب أمام قريش :

ثم أغلق عليه الباب ، وعلى أسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف ، وجعل عمودين عن يساره . وعمودا عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه – وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة – ثم صلى هناك . ثم دار فى البيت ، وكبر في نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينتظرون ماذا يصنع ؟ فأخذ بعضادتى الباب ، وهم تحته ، فقال :

لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا ، كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا ، وقتل الخطأ شبه العمد – السوط والعصا – ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ،الناس من آدم ، وآدم من تراب . ثم تلا هذه الآية : « ياأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (٤٩ : ١٣) .

لا تثريب عليكم اليوم :

ثم قال : يامعشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ، قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لاتثريب عليكم اليوم » اذهبوا فأنتم الطلقاء .

مفتاح البيت إلى أهله :

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فقام إليه على رضى الله عنه ، ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يارسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ، وفى رواية : أن الذى قال ذلك هو العباس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال له : هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء ، وفى رواية ابن سعد فى الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه : خذوها خالدة تالدة ، لاينزعها منكم إلا ظالم ، ياعثمان ، إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

بلال يؤذن على الكعبة :

وحانت الصلاة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيدا أن لايكون سمع هذا ، فيسمع منه مايغيظه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال لهم : قد علمت الذى قلتم ، ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك .

صلاة الفتح أو صلاة الشكر :

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ دار أم هانئ بنت أبى طالب ،

فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها ، وكان ضحى ، فظنها من ظنها صلاة الضحى وإنما هذه صلاة الفتح ، وأجارت أم هانئ حموين لها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرت ياأم هانئ . وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلهما ، فأغلقت عليهما باب بيتها ، وسألت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها ذلك .

إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين :

وأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، وهم عبد العزى بن خطل ، وعبد الله ابن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس ابن صبابة ، وهبار بن الأسود ، وقينتان كانتا لابن خطل ، كانتا تغنيان بهجو النبي صلى الله عليه وسلم ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وهي التي وجد معها كتاب حاطب .

فأما ابن أبي سرح ، فجاء به عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وشفع فيه فحقن دمه وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر ، ثم ارتد ورجع إلى مكة .

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن ، فاستأمنت له امرأته ، فأمنه النبي صلى الله عليه وسلم فتبعته ، فرجع معها وأسلم ، وحسن إسلامه .

وأما ابن خطل فكان متعلقا بأستار الكعبة ، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فقال : اقتله ، فقتله .

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله ، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ، ثم ارتد ولحق بالمشركين .

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقتله علي .

وأما هبار بن الأسود فهو الذى كان قد عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها ، ففر هبار يوم مكة ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

وأما القينتان فقتلت إحداهما ، واستؤمن للأخرى ، فأسلمت ، كما استؤمن لسارة وأسلمت .

قال ابن حجر : وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلاطل الخزاعى قتله على ، وذكر الحاكم أيضا ممن أهدر دمه كعب بن زهير ، وقصته مشهورة وقد جاء بعد ذلك ، وأسلم ومدح ، ووحشى بن حرب ، وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان ، وقد أسلمت ، وأرنب مولاة ابن خطل أيضا قتلت ، وأم سعد : قتلت ، فيما ذكر ابن إسحاق فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة ، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان ، اختلف فى اسمهما ، أو باعتبار الكنية واللقب[1]

إسلام صفوان بن أمية ، وفضالة بن عمير :

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه ، لكنه بصفته زعيما كبيرا من زعماء قريش خاف على نفسه وفر ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنه ، وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فرده ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلنى بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر . ثم أسلم صفوان ، وقد كانت امرأته أسلمت قبله ، فأقرهما على النكاح الأول .

وكان فضالة رجلا جريئا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى الطواف ، ليقتله فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بما فى نفسه فأسلم .

خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى اليوم الثانى من الفتح :

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس

---

(١) فتح البارى ٨ / ١١ ، ١٢

خطيبا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ومجده بما هو أهله ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما حلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب .

وفى رواية : لايعضد شوكه ، ولاينفر صيده ، ولاتلتقط ساقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاه ، فقال العباس : يارسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم وبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر .

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من بنى ليث بقتيل لهم فى الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الصدد : يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل إن نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدينه فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين ، إن شاءوا فدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله .

وفى رواية : فقام رجل من أهل اليمن يقال له « أبو شاه » فقال : اكتب لى يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتبوا لأبى شاه[1] .

تخوف الأنصار من بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة :

ولما تم فتح مكة على الرسول صلى الله عليه وسلم — وهى بلده ووطنه ومولده — قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها — وهو يدعو على الصفا رافعا يديه — فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لاشئ يارسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله المحيا محياكم ، والممات مماتكم .

(١) انظر لهذه الروايات صحيح البخارى ١ / ٢٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٢— ٢ / ٦١٥ ، ٦١٧ ، وصحيح مسلم ١ / ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩، وابن هشام ٢ / ٤١٥ ، ٤١٦ ، أبو داود ١ / ٢٧٦

أخــذ البيعــة :

وحين فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين تبين لأهل مكة الحق ، وعلموا أن لاسبيل إلى النجاح إلا الإسلام ، فأذعنوا له ، واجتمعوا للبيعة ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا يبايع الناس ، وعمر بن الخطاب أسفل منه ، يأخذ على الناس ، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

وفى المدارك : روى أن[1] النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعمر قاعد أسفل منه ، يبايعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها ، لما صنعت بحمزة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبايعكن على أن لاتشركن بالله شيئا ، فبايع عمر النساء على أن لايشركن بالله شيئا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولاتسرقن . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ، فإن أنا أصبت من ماله هنات ؟ فقال أبو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها ، فقال : وإنك لهند ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك .

فقال : ولايزنين . فقالت : أو تزنى الحرة ؟ فقال : ولايقتلن أولادهن . فقالت : ربيناهم صغارا ، وقتلتموهم كبارا ، فأنتم وهم أعلم — وكان ابنها حنظلة ابن أبي سفيان قد قتل يوم بدر — فضحك عمر حتى استلقى ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : ولايأتين ببهتان . فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وماتأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ولايعصينك في معروف . فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك .

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول : كنا منك في غرور .

---

(١) انظر مدارك التنزيل للنسفى تفسير آية البيعة .

إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة ، وعمله فيها :

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة تسعة عشر يوما يجدد معالم الإسلام ويرشد الناس إلى الهدى والتقى . وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعى، فجدد أنصاب الحرم ، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ، ولكسر الأوثان التى كانت حول مكة ، فكسرت كلها ، ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره .

السرايا والبعوث :

١ — ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨هـ) ليهدمها ، وكانت بنخلة ، وكانت لقريش وجميع بنى كنانة ، وهى أعظم أصنامهم . وكان سدنتها بنى شيبان، فخرج إليها خالد فى ثلاثين فارسا حتى انتهى إليها، فهدمها . ولما رجع سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت شيئا ؟ قال: لا قال: فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها ، فرجع خالد متغيظا قد جرد سيفه ، فخرجت إليه امـرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فجزلها باثنتين ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : نعم ، تلك العزى ، وقد أيست أن تعبد فى بلادكم أبدا .

٢ — ثم بعث عمرو بن العاص فى نفس الشهر إلى سواع ليهدمه ، وهو صنم لهذيل برهاط ، على ثلاثة أميال من مكة ، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن : ما تريد ؟ قال: أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه ، قال : لاتقدر على ذلك ، قال : لم ؟ قال : تمنع . قال : حتى الآن أنت على الباطل ؟ ويحك ، فهل يسمع أو يبصر ؟ ثم دنا فكسره ، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئا ، ثم قال للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله .

٣ — وفى نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارسا إلى مناة

وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها : ماتريد ؟ قال : هدم مناة ، قال : أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد ، وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها ، فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصاتك . فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا فى خزانته شيئا .

٤ – ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان من نفس السنة (٨هـ) إلى بنى جذيمة داعيا إلى الإسلام لامقاتلا . فخرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم ، فانتهى إليهم فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : « صبأنا صبأنا » فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم ، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيرا ، فأمر يوما أن يقتل كل رجل أسيره ، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له ، فرفع صلى الله عليه وسلم يديه وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد – مرتين –[1] .

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فودى لهم قتلاهم وماذهب منهم ، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عـــوف كلام وشر فى ذلك ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال : مهلا ياخالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان أحد ذهبا ، ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولاروحته[2] .

تلك هى غزوة فتح مكة ، وهى المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذى قضى على

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٤٥٠ ، ٢ / ٦٢٢

(٢) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢ / ٣٨٩ إلى ٤٣٧ ،وصحيح البخارى ١ / كتاب الجهاد وكتاب المناسك و٢ / ٦١٢ إلى ٦١٥ ، ٦٢٢ ، فتح البارى ٨ / ٣ إلى ٢٧ ،وصحيح مسلم ١ / ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٢ / ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ، وزاد المعاد ٢ / ١٦٠ إلى ١٦٨ ،ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٣٢٢ إلى ٣٥١

كيان الوثنية قضاء باتا لم يترك لبقائها مجالا ولا مبررا فى ربوع الجزيرة العربية ، فقد كانت عامة القبائل تنتظر ماذا يتمخض عنه العراك والاصطدام الذى كان دائرا بين المسلمين والوثنيين ، وكانت تلك القبائل تعرف جيدا أن الحرم لايسيطر عليه إلا من كان على الحق ، وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم أى تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت ، فأهلكوا وجعلوا كعصف مأكول .

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم ، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضا ، وناظره فى الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير فى الإسلام ، حتى إن عدد الجيش الإسلامى الذى لم يزد فى الغزوات السالفة على ثلاثة آلاف إذا هو يزخر فى هذه الغزوة فى عشرة آلاف .

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس ، وأزالت عنها آخر الستور التى كانت تحول بينها وبين الإسلام . وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسى والدينى كليهما معا فى طول جزيرة العرب وعرضها ، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدنيوية .

فالطور الذى كان قد بدأ بعد هدنة الحديبية لصالح المسلمين قد تم وكمل بهذا الفتح المبين . وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تماما ، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تماما . ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيعتنقوا الإسلام ، ويحملوا دعوته إلى العالم . وقد تم استعدادهم لذلك فى سنتين آتيتين .

• • •

المرحلة الثالثة

وهى آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . تمثل النتائج التى أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية واجهتها طيلة بضعة وعشرين عاما .

وكان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون فى هذه الأعوام ، تغير لأجله مجرى الأيام ، وتحول به جو العرب ، فقد كان الفتح حدا فاصلا بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده ، فإن قريشا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره ، والعرب فى ذلك تبع لهم ، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب .

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين :

(١) صفحة المجاهدة والقتال .

(٢) صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام .

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا فى هذه المرحلة ، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى ، إلا أنا اخترنا فى الترتيب الوضعى ، أن نأتى على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى ، ونظرا إلى أن صفحة القتال ألصق بما مضى ، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها فى الترتيب .

• • •

غـــزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شده لها العـــرب ، وبوغتت القبائل المجاورة بالأمر الواقع ، الذى لم يكن يمكن لها أن تدفعه ، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة ، وفى مقدمتها بطون هوازن وثقيف ، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال — وكلها من قيس عيلان — رأت هذه البطون من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع ، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصرى ، وقررت المسير إلى حرب المسلمين .

مسير العدو ونزوله بأوطاس :

ولما أجمع القائد العام — مالك بن عوف — المسير إلى حرب المسلمين ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فسار حتى نزل بأوطاس — وهو واد فى دار هوازن بالقرب من حنين ، لكن وادى أوطاس غير وادى حنين ، وحنين واد إلى جنب ذى المجاز ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات [1]

مجرب الحروب يغلط رأى القائد :

ولمـــا نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة — وهو شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب وكان شجاعا مجربا — قال دريد : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لاحزن ضرس ، ولاسهل دهس . مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصبى وثغاء الشاء ؟ قالـــوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم ، فدعا مالكا وسأله عما حمله على ذلك . فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال راعى ضأن والله ، وهل يـــرد المنهزم شئ ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك . ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء ، ثم قال : يامالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحـــور

(١) انظر فتح البارى ٨ / ٢٧ ، ٤٢

الخيل شيئا ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم ، ثم ألق الصباة على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

ولكن مالكا ـ القائد العام ـ رفض هذا الطلب قائلا : والله لاأفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعنى هوازن أو لأتكأن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأى ، فقالوا : أطعناك فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى .

يا ليتنى فيهــا جــذع	أخب فيهــا وأضع
أقــود وطفاء اللمــع	كأنها شاة صــدع

سلاح اكتشاف العدو :

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين ، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم . قال : ويلكم ، ماشأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالا بيضا على خيل بلق ، والله ماتماسكنا أن أصابنا ماترى .

سلاح استكشاف رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ونقلت الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسير العدو ، فبعث أبا حدرد الأسلمى ، وأمره أن يدخل فى الناس . فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم . ففعل .

الرسول صلى الله عليه وسلم يغادر مكة إلى حنين :

وفى يوم السبت ـ السادس من شهر شوال سنة ٨هـ ـ غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ـ وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله فى مكة ـ خرج فى اثنى عشر ألفا من المسلمين ، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة . وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام . واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد .

ولما كان عشية جاء فارس ، فقال : إنى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنـــا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله ، وتطوع للحراسة تلك الليلة آنس بن أبى مرثد الغنوى [1] .

وفى طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط ، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ويعكفون ، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر ، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ، لتركبن سنن من كان قبلكـــم [2] .

وقد كان بعضهم قال نظرا إلى كثرة الجيش : لن نغلب اليوم ، وكان قـــد شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الجيش الإسلامى يباغت الرماة و المهاجمين :

انتهى الجيش الإسلامى إلى حنين ليلة الاربعاء لعشر خلون من شوال ، وكان مالك بن عوف قد سبقهم ، فأدخل جيشه بالليل فى ذلك الوادى ، وفرق كمناءه فى الطرق والمداخل ، والشعاب والأخباء والمضايق ، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ماطلعوا . ثم يشدوا شدة رجل واحد .

وبالسحر عبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه ، وعقد الألوية والرايات و فرقها على الناس . وفى عماية الصبح استقبل المسلمون وادى حنين ، وشرعـــوا ينحدرون فيه ، وهم لايدرون بوجود كمناء العدو فى مضايق هذا الوادى . فبيناهم ينحطون اذاهم تمطر عليهم النبال ، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل

---

(١) انظر سنن أبى داود

(٢) روى ذلك الترمذى

واحد ، فانشمر المسلمون راجعين ، لايلوى أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة حتى قال أبو سفيان بن حرب ، وهو حديث عهد بالإسلام : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ـ الأحمر ـ وصرخ جبلة أو كلدة بن الجنيد : ألا بطل السحر اليوم .

وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم جهة اليمين وهو يقول : هلموا إلى أيها الناس ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته .

وحينئذ ظهرت شجاعة النبى صلى الله عليه وسلم التى لانظير لها . فقد طفق يركز بغلته قبل الكفار وهو يقول :

أنـــا النبي لاكـــذب   أنا ابـــن عبد المطلب

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذا بلجام بغلته ، والعباس بركابه ، يكفانها ، أن لاتسرع . ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستنصر ربه قائلا : اللهم أنزل نصرك .

رجوع المسلمين واحتدام المعركة :

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن ينادى الصحابة قال العباس : فقلت بأعلى صوتـــى : أين أصحاب السمرة ؟ قال : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها ، فقالوا : يا لبيك ، يا لبيك [1] . ويذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه ،فيأخذ درعه ، فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا .

وصرفت الدعوة إلى الأنصار ، يا معشر الأنصار ، يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة فى بنى الحارث بن الخزرج ، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة

---

(١) صحيح مسلم ٢ / ١٠٠

تلو الأخرى كما كانوا تركـوا الموقعـة . وتجالـد الفريقان مجـالدة شديدة ، ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ساحة القتال ، وقد استحر واحتدم ، فقال: « الآن حمى الوطيس » . ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب الأرض ، فرمى بها فى وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه ، فما خلق الله إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة . فلم يزل حدهم كليلا وأمرهم مدبرا .

انكسار حدة العدو ، وهزيمته الساحقة :

وماهى إلا ساعات قلائل - بعد رمى القبضة - حتى انهزم العدو هزيمة منكرة وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين . وحاز المسلمون ماكان مع العدو من مـال وسلاح وظعن .

وهذا هو التطور الذى أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بمـا رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » (٩ : ٢٥ ، ٢٦) .

حركة المطاردة :

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف ، وطائفة إلى نخلة ، وطائفة إلى أوطاس ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعرى ، فناوش الفريقان القتال قليلا ، ثم انهزم جيش المشركين وفى هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعرى .

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة فأدركت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع .

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف فتوجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه بعد أن جمع الغنائم .

الغنـــائم :

وكانت الغنائم : السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعـــة وعشرون ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة . وأربعة آلاف أوقية فضة ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمعها ، ثم حبسها بالجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف .

وكانت في السبي الشيماء بنت الحارث السعدية ؛ أخت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، فلما جيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت له نفسها فعرفها بعلامة فأكرمها ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، ثم من عليها ، وردها إلى قومهـــا .

غـــزوة الطائف :

وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام — مالك بن عوف النصري — وتحصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة في نفس الشهر — شوال سنة ٨هـ .

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل ، ثم سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، فمر في طريقه على النخلة اليمانية ، ثم على قرن المنازل ثم على لية ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه ، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريبا من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن .

ودام الحصار مدة غير قليلة ، ففي رواية أنس عند مسلم أن مـــدة حصارهم كانت أربعين يوما ، وعند أهل السير خلاف في ذلك ، فقيل : عشرين يوما ، وقيل بضعة عشر ، وقيل . ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر [1] .

---

(١) فتح الباري ٨ / ٤٥

ووقعت فى هذه المدة مراماة ومقاذفات ، فالمسلمون أول مافرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رميـا شديدا كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلا ، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك .

ونصب النبي صلى الله عليه وسلم المنجنيق على أهل الطائف ، وقذف بـه القذائف ، حتى وقعت شدخة فى جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة [1] . ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه ، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار . فخرجوا من تحتها ، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالا .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم – كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام – أمر بقطع الأعناب وتحريقها . فقطعها المسلمون قطعا ذريعـا ، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم ، فتركها لله والرحم .

ونادى مناديه صلى الله عليه وسلم : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينـا فهو حر ، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون [2] رجلا فيهم أبـو بكرة – تسور حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقى عليها ، فكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبا بكرة » – فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة .

ولما طال الحصار واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة – وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه مايكفيهم لحصار سنة – استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم نوفل بن معاوية الديلى فقال : هم ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك ، وحينئذ عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فأذن فى

(١) لم تكن الدبابة كدبابتنا اليوم ، وإنما كانت تصنع من الخشب ، كان الناس يدخلون فى جوفها ثم يدفعونها فى أصل الحصن لينقبوه وهم فى جوفها ، أو ليدخلوا من النقبات .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٦٢٠

الناس : إنا قافلون غدا إن شاء الله ، فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اغدوا على القتال ، فغدوا فأصابهم جراح ، فقال : إنا قافلون غدا إن شاء الله، فسرّوا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون،ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك .

ولما ارتحلوا واستقلوا قال : قولوا : آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .

وقيل : يارسول الله ادع على ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفا وآت بهم .

قسمة الغنائم بالجعرانة :

ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رفع الحصار عن الطائف مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لايقسم الغنائم ، ويتأنى بها ، يبتغى أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين فيحرزوا مافقدوا . ولكنه لم يجئه أحد ، فبدأ بقسمة المال ، ليسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة . فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظى بالأنصبة الجزلة .

وأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، فقال : ابنى يزيد ؟ فأعطاه مثلها ، فقال : ابنى معاوية ؟ فأعطاه مثلها ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى ، فأعطاه إياها . وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة — كذا فى الشفاء [1] وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل ، وكذلك أعطى رجالا من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل ، وأعطى آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين حتى شاع فى الناس أن محمدا يعطى عطاء مايخاف الفقر . فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة ، فانتزعت رداءه فقال : أيها الناس ردوا على ردائى ، فوالذى نفسى بيده لو كان عندى عدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم. ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا .

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ١ / ٨٦

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبرة، فجعلها بين إصبعه، ثم رفعها، فقال: أيها الناس ، والله مـــالى من فيئكم ، ولاهذه الوبـــرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكـــم .

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس ، ثم فرضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعا من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارسا أخذ اثنى عشر بعيرا وعشرين ومائة شاة .

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة ، فإن فى الدنيا أقواما كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم ، لا من عقولهم ، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة ، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له (١) .

الأنصار تجد على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وهذه السياسة لم تُفهم أول الأمر ، فأطلقت ألسنة شتى بالاعتراض ، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة ، لقد حرموا جميعا أعطية حنين ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تبدل الفرار انتصارا ، وهاهم أولاء يرون أيدى الفارين ملأى ، وأما هم فلـــم يمنحوا شيئا قط (٢) .

روى ابن إسحاق عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب ، ولم يكن فـــى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهـــم القالة ، حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك

(١ – ٢) كلمة لمحمد الغزالى فى فقه السيرة ص ٢٩٨ ، ٢٩٩

فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء . قال : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ماأنا إلا من قومى . قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة . فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا . وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : لقد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله ، وأثنى عليه ،ثم قال :

يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : آتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . .

أوجدتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظا ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفرقوا [1] .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، وروى مثل ذلك البخارى ٢ / ٦٢٠ ، ٦٢١

قدوم وفد هوازن :

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلما ، وهم أربعة عشر رجلا ، ورأسهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، فسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال ، وأدلوا إليه بكلام ترق له القلوب . فقال : إن معي من ترون ، وإن أحب الحديث إلى أصدقه . فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا . فقال : إذا صليت الغداة ـ أى صلاة الظهر ـ فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد إلينا سبينا ، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأسأل لكم الناس ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال الأقرع ابن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا . فقالت بنو سليم : ماكان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال العباس بن مرداس : وهنتمونى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت سبيهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا . فمن كان عنده منهن شئ فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول مايفيء الله علينا ، فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : إنا لانعرف من رضى منكم ممن لم يرض . فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرد عجوزا صارت فى يديه منهم ، ثم ردها بعد ذلك . وكسا رسول الله صلى الله عليه وسلم السبي قبطية قبطية :

العمـــرة والانصراف إلى المدينـــة :

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قسمة الغنائم فى الجعرانة أهـــل معتمرا منها ، فأدى العمرة ، وانصرف بعد ذلك راجعا إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد، وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذى القعدة سنة ٨ هـ.

قال محمد الغزالى : لله ماأفسح المدى الذى بين هذه الآونة الظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين ، وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام ؟

لقد جاءه مطاردا يبغى الأمان ، غريبا مستوحشا ينشد الإيلاف والإيناس ، فأكرم أهله مثواه ، وآووه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جميعا من أجله ، وها هو ذا بعـــد ثمانية أعوام يدخل المدينة التى استقبلته مهاجرا خائفا؛ لتستقبله مرة أخرى وقد دانت له مكة ، وألقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها فأنهضها؛ ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيئاتها الأولى « إنـــه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيـــع أجر المحسنين » (١٢ : ٩٠) [1] .

---

(١) فقه السيرة ص ٣٠٣ . وانظر لتفصيل هذه الغزوات – فتح مكة وحنين والطائف، وماوقع خلالها – زاد المعاد ج٢ من ص ١٦٠ إلى ٢٠١ ، وابن هشام ج٢ من ص ٣٨٩ إلى ٥٠١ ، وصحيح البخارى أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ج٢ من ص ٦١٢ إلى ٦٢٢ ، وفتح البارى ج٨ من ص ٣ إلى ٥٨ .

البعوث والسرايا بعد الرجوع من غـزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله صلى الله عليـه وسلم بالمدينة يستقبل الوفود ، ويبعث العمال ، ويبث الدعاة ، ويكبت من بقى فيه الاستكبار عن الدخول فى ديـن الله ، والاستسلام للأمـر الواقـع الذى شاهدته العرب . وهاك صورة مصغرة من ذلك :

المصدقـون :

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان فى أواخر أيام السنة الثامنة فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة ٩هـ ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المصدقين إلى القبائل . وهذه هى قائمتهم :

(١) عيينة بن حصن	إلى بنى تميم .
(٢) يزيد بن الحصين	إلى أسلم وغفار .
(٣) عباد بن بشير الأشهلى	إلى سليم ومزينة .
(٤) رافع بن مكيث	إلى جهينة .
(٥) عمرو بن العاص	إلى بنى فزارة .
(٦) الضحاك بن سفيان	إلى بنى كلاب .
(٧) بشير بن سفيان	إلى بنى كعب .
(٨) ابن اللتبية الأزدى	إلى بنى ذبيان .
(٩) المهاجر بن أبى أمية	إلى صنعاء . (وخرج عليه الأسود العنسى وهو بها)
(١٠) زياد بن لبيد	إلى حضر موت .
(١١) عدى بن حاتم	إلى طئ وبنى أسد .
(١٢) مالك بن نويرة	إلى بنى حنظلة .
(١٣) الزبرقان بن بدر	إلى بنى سعد . (إلى قسم منهم)

(١٤) قيس بن عاصم - إلى بنى سعد (إلى قسم آخر منهم)
(١٥) العلاء بن الحضرمى - إلى البحرين .
(١٦) على بن أبى طالب إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كليهما)

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا فى المحرم سنة ٩هـ : بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التى بعثوا إليها . نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ فى المحرم سنة ٩هـ . وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية ، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا .

السرايا :

وكما بعث المصدقون إلى القبائل ، مست الحاجة إلى بعث عدة من السرايا مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة . وهاك لوحة تلك السرايا :

١ - سرية عيينة بن حصن الفزارى - فى المحرم سنة ٩هـ - إلى بنى تميم ، فى خمسين فارسا ، لم يكن فيهم مهاجرى ولا أنصارى . وسببها أن بنى تميم كانوا قد أغروا القبائل ، ومنعوهم عن أداء الجزية .

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل ويكمن النهار حتى هجم عليهم فى الصحراء فولى القوم مدبرين ، وأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا ، وساقهم إلى المدينة ، فأنزلوا فى دار رملة بنت الحارث .

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم ، فجاءوا إلى باب النبى صلى الله عليه وسلم فنادوا : يامحمد اخرج إلينا ، فخرج فتعلقوا به ، وجعلوا يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى حتى صلى الظهر ، ثم جلس فى صحن المسجد ، فأظهروا رغبتهم فى المفاخرة والمباهاة . وقدموا خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس - خطيب الإسلام - فأجابهم ، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد مفاخرا ، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة .

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس : خطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحسن جوائزهم ، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم [1] .

٢ — سرية قطبة بن عامر إلى حي من خثعم بناحية تبالة ، بالقرب من تربة ، في صفر سنة ٩هـ . خرج قطبة في عشرين رجلا على عشرة أبعرة يعتقبونها ، فشن الغارة ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعا ، وقتل قطبة مع من قتل ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة .

٣ — سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة ٩هـ بعثت هذه السرية إلى بني كلاب؛ لدعوتهم إلى الإسلام ، فأبوا وقاتلوا فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم رجلا .

٤ — سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى سواحل جدة في شهر ربيع الآخر سنة ٩هـ في ثلاثمائة . بعثهم إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة ، فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة ، فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا [2] .

٥ — سرية علي بن أبي طالب إلى صنم لطيء يقال له القلس — ليهدمه — في شهر ربيع الأول سنة ٩هـ . بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خمسين ومائة على مائة بعير وخمسين فرسا ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة على محلة حاتم مع الفجر ، فهدموه وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء ، وفي السبي أخت

---

(١) هكذا ذكره أهل المغازي أن هذه السرية كانت في المحرم سنة ٩ هـ . وفيه نظر ظاهر ، فإن السياق يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن أسلم قبلها ، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذي قال حين استرد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني هوازن : أما أنا وبنو تميم فلا . وهذا يقتضي إسلامه قبل هذه السرية .

(٢) فتح الباري ٨ / ٥٩

عدى بن حاتم ، وهرب عدى إلى الشام ، ووجد المسلمون فى خزانة القلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، وفى الطريق قسموا الغنائم ، وعزلوا الصفى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يقسموا آل حاتم .

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدى بن حاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة : يارسول الله ، غاب الوافد وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ، مابى من خدمة ، فمن على ، من الله عليك . قال : من وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم . قال : الذى فر من الله ورسوله ؟ ثم مضى ، فلما كان الغد قالت مثل ذلك ، وقال لها مثل ماقال أمس . فلما كان بعد الغد قالت مثل ذلك ، فمن عليها . وكان إلى جنبه رجل — ترى أنه على — فقال لها : سليه الحملان فسألته فأمر لها به .

ورجعت أخت عدى بن حاتم إلى أخيه عدى بالشام ، فلما لقيته قالت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد فعل فعلة ماكان أبوك يفعلها ، ائته راغبا أو راهبا ، فجاءه عدى بغير أمان ولاكتاب . فأتى به إلى داره ، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : مايفرك ؟ أيفرك أن تقول : لاإله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله سوى الله ؟ قال : لا . ثم تكلم ساعة ثم قال : إنما تفر أن يقال : الله أكبر فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ قال : لا . قال : فإن اليهود مغضوب عليهم ، وإن النصارى ضالون . قال : فإنى حنيف مسلم ، فانبسط وجهه فرحا ، وأمر به فنزل عند رجل من الأنصار ، وجعل يأتى النبى صلى الله عليه وسلم طرفى النهار[1] .

وفى رواية ابن إسحاق عن عدى : أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أجلسه بين يديه فى داره قال له : إيه ياعدى بن حاتم ، ألم تكن ركوسيا ؟ قال : قلت : بلى . قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قال : قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يحل لك فى دينك . قال : قلت أجل والله . قال : وعرفت أنه نبى مرسل ، يعرف مايجهل[2] .

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٢٠٥ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٥٨١

وفي رواية لأحمد : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ياعدى أسلم تسلم . فقلت : إنى من أهل دين . قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : نعم ، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ فقلت : بلى قال : فإن هذا لايحل لك في دينك . قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها [1]

وروى البخارى عن عدى قال : بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة . ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : ياعدى ، هل رأيت الحيرة ؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لاتخاف أحدا إلا الله ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ويطلب من يقبله ، فلا يجد أحدا يقبله منه — الحديث — وفي آخره : قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف إلا الله . وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال النبي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم « يخرج ملء كفه » [2] .

---

(١) مسند الإمام أحمد

(٢) صحيح البخارى . . . . انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢٤

غــزوة تبــوك

فى رجب سنة ٩هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل ، لم يبق بعدهـا مجال للريبة والظن فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عند العرب ، ولذلك انقلب المجرى تماما ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا – كما سيظهر ذلك مما نقدمه فى فصل الوفود ، ومن العدد الذى حضر فى حجة الوداع – وانتهت المتاعب الداخلية واستراح المسلمون ؛ لتعليم شرائع الله ، وبث دعوة الإسلام .

سبب الغزوة :

إلا أنها كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر ، وهى قوة الرومان – أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض فى ذلك الزمان – وقد عرفنا فيما تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله صلى الله عليـه وسلم – الحارث بن عمير الأزدي – على يدى شرحبيل بن عمرو الغسانى ، حينمـا كان السفير يحمل رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى عظيم بصرى ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التى اصطدمت بالرومان اصطداما عنيفا فى موتة ، ولم تنجح فى أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين ، إلا أنها تركت أروع أثر فى نفوس العرب ، قريبهم وبعيدهم .

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة موتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين ، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر ، ومواطأتهم للمسلمين ، إن هذا كان خطرا يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة ، ويهدد الثغور الشامية التى تجاور العرب ، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد فى صورة خطر عظيم لايمكن القضاء عليها . وقبل أن تثير القلاقل والثورات فى المناطق العربية المجاورة للرومان .

ونظرا إلى هذه المصالح لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة حتّى أخذ يهيّئ الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم ، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة .

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان :

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ، حتّى كان الخوف يتسورهم كل حين . لايسمعون صوتا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان . ويظهر ذلك جليا مما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه شهرا فى هذه السنة (٩هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهن فى مشربة له،ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر فى بدايته فظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق . يقول عمر ابن الخطاب — وهو يروى هذه القصة — : وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر ، وإذا غاب كنت آتيه أنا بالخبر — وكانا يسكنان فى عوالى المدينة ، يتناوبان إلى النبي صلى الله عليه وسلم — ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فإذا صاحبي الأنصارى يدق الباب ، فقال : افتح ، افتح ، فقلت : جاء الغسانى ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه . الحديث [١] .

وفى لفظ آخر (أنه قال) : وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبي يوم نوبته ، فرجع عشاء ، فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أنائم هو ؟ ففزعت ، فخرجت إليه ، وقال : حدث أمر عظيم . فقلت : ماهو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول ، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه . الحديث [٢] .

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٧٣٠
(٢) نفس المصدر ١ / ٣٣٤

وهذا يدل على خطورة الموقف ، الذى كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان ويزيد ذلك تأكدا مافعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان ، فبرغم مارآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل الميادين وأنه لايوجل من سلطان على ظهر الأرض، بل يذيب كل مايعترض فى طريقه من عوائق — برغم هذا كله — طفق هؤلاء المنافقون يأملون فى تحقق ماكانوا يخفونه فى صدورهم ، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله . ونظرا إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر ، فى صورة مسجد ، وهو مسجد الضرار ، أسسوه كفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله ، وعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى فيه ، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين فلا يفطنوا مايؤتى به فى هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم ، ولايلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه ، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم فى الخارج ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخر الصلاة فيه — إلى قفوله من الغزوة — لشغله بالجهاز ، ففشلوا فى مرامهم وفضحهم الله — حتى قام الرسول صلى الله عليه وسلم بهدم المسجد بعد القفول من الغزو ، بدل أن يصلى فيه .

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان :

كانت هذه هى الأحوال والأخبار التى يواجهها ويتلقاها المسلمون ، إذ بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيأ جيشا عرمرما قوامه أربعون ألف مقاتل ، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم ، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من متنصرة العرب . وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء . وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير .

زيادة خطورة الموقف :

والذى كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد ، وكان الناس فى عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر ، وكانت الثمار قد طابت ،

فكانوا يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال ، من الزمان الذى هم فيه ، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة ، والطريق وعرة صعبة .

الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر القيام بإقدام حاسم :

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله ، إنه كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان فى هذه الظروف الحاسمة ، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التى كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه ، وتزحف إلى المدينة كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية وعلى سمعة المسلمين العسكرية ، فالجاهلية التى تلفظ نفسها الأخير بعد مالقيت من الضربة القاصمة فى حنين ستحيا مرة أخرى ، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبى عامر الفاسق سيبعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف ، فى حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام ، وهكذا يخفق كثير من الجهود التى بذلها هو وأصحابه فى نشر الإسلام وتذهب المكاسب التى حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة . . . تذهب هذه المكاسب بغير جدوى .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف كل ذلك جيدا ، ولذلك قرر القيام — مع ماكان فيه من العسرة والشدة — بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان فى حدودهم . ولايمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام .

الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان :

ولما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف أعلن فى الصحابة أن يتجهزوا للقتال . وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم . وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها . ولكنه نظرا إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان . وجلى للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة . وحضهم

على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجلاد ، وتحثهم على القتال . ورغبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال فى سبيل الله .

المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو :

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى قتال الـــروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله ، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر- حتى كان يجئ أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ليخرجوا إلى قتال الروم ، فإذا قال لهم : « لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون ». (٩ : ٩٢)

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات ، كان عثمان بـــن عفان قد جهز عيرا للشام ؛ مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، فتصدق بها ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم جاء بألف دينار فنثرها فى حجره صلى الله عليه وسلم . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها ويقول : ما ضر عثمان ماعمل بعد اليوم [١] ، ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بـــعير ومائة فرس سوى النقود .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة ، وجاء أبو بكـــر بماله كله ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله - وكانت أربعة آلاف درهم ، وهو أول من جاء بصدقته . وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بمال كثير . وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة ، كلهم جاءوا بمال . وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقا

---

(١) جامع الترمذى . مناقب عثمان بن عفان ٢ / ٢١١

من التمر . وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها ، حتى كان منهم من أنفق مدا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها . وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم .

ولم يمسك أحد يده ، ولم يبخل بماله إلا المنافقون « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم » (٩ : ٧٩) .

الجيش الإسلامى إلى تبوك :

وهكذا تجهز الجيش ، فاستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، وقيل سباع بن عرفطة ، وخلف على أهله على بن أبى طالب ، وأمره بالإقامة فيهم ، وغمص عليه المنافقون ، فخرج فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرده إلى المدينة وقال : ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي .

ثم تحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك ، ولكن الجيش كان كبيرا — ثلاثون ألف مقاتل ، لم يخرج المسلمون فى مثل هذا الجمع الكبير قبله قط — فلم يستطع المسلمون مع مابذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزا كاملا . بل كانت فى الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب ، فكان ثمانية عشر رجلا يعتقبون بعيرا واحدا . وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم ، واضطروا إلى ذبح البعير — مع قلتها — ليشربوا مافى كرشه من الماء ، ولذلك سمى هذا الجيش جيش العسرة .

ومر الجيش الإسلامى فى طريقه إلى تبوك بالحجر — ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، أى وادى القرى — فاستقى الناس من بئرها . فلما راحوا قال رسول الله صلى عليه وسلم : لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة . وما كان

من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئا ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح عليه السلام .

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : لما مر النبى صلى الله عليه وسلم بالحجر قال : لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ماأصابهم إلا أن تكونوا باكين ، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى (١) .

واشتدت فى الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجاتهم من الماء .

ولما قرب من تبوك قال : إنكم ستأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى قال معاذ : فجئنا وقد سبق إليها رجلان ، والعين تبض بشئ من مائها ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل مسستما من مائها شيئا ؟ قالا : نعم . وقال لهما ماشاء الله أن يقول . ثم غرف من العين قليلا قليلا حتى اجتمع الوشل ، ثم غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وجهه ويده ، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ماههنا قد ملئ جنانا (٢) .

وفى الطريق أو لما بلغ تبوك — على اختلاف الروايات — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله ، فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلى طئ (٣) .

---

(١) صحيح البخارى باب نزول النبى صلى الله عليه وسلم الحجر ٢ / ٦٣٧
(٢) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢ / ٢٤٦
(٣) نفس المصدر

وكان دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير، كليهما .

الجيش الإسلامى بتبوك :

نزل الجيش الإسلامى بتبوك ، فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم خطيبا، فخطب خطبة بليغة ، أتى بجوامع الكلم وحض على خير الدنيا والآخـــرة . وحذر وأنـــذر ، وبشر وأبشر ، حتى رفع معنوياتهم ، وجبر بها ماكان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة . وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء ، بل تفرقوا فى البـــلاد فى داخل حدودهم ، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، فى داخل الجزيرة وأرجائها النائية . وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين .

جاء يحنة بن روبة صاحب أيلة ، فصالح الرسول صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فهو عندهم ، وكتب لصاحب أيلة « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا، فإنه لايحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونـــه من بر أو بحـــر» .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل فى أربعمائة وعشرين فارسا ، وقال له : إنك ستجده يصيد البقر ، فأتاه خالـــد ، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر ، فخرج

اكيدر لصيدها — وكانت ليلة مقمرة — فتلقاه خالد فى خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحقن دمه ، وصالحه على ألفى بعير ، وثمانمائة رأس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، وأقر بإعطاء الجزية ، فقاضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتيماء .

وأيقنت القبائل التى كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه ، فانقلبت لصالح المسلمين ، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية ، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة ، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير .

الرجوع إلى المدينة :

ورجع الجيش الإسلامى من تبوك مظفرين منصورين ، لم ينالوا كيدا ، وكفى الله المؤمنين القتال . وفى الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلا من المنافقين الفتك بالنبي صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته ، وحذيفة بن اليمان يسوقها ، وأخذ الناس ببطن الوادى ، فانتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة . فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم ، قد غشوه وهم ملتثمون ، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه ، فأرعبهم الله ، فأسرعوا فى الفرار حتى لحقوا بالقوم . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسمائهم ، وبما هموا به ، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى ذلك يقول الله تعالى : « وهموا بما لم ينالوا » .

ولما لاحت للنبي صلى الله عليه وسلم معالم المدينة من بعيد قال : هذه طابة ، وهذا أحد ، جبل يحبنا ونحبه ، وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن [1] :

---

(١) هذا رأى ابن القيم وقد مضى في ص ١٩٣

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في رجب وعوده في رمضان ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوما . أقام منها عشرين يوما في تبوك . والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهوبا . وكانت هذه الغزوة آخر غزواته صلى الله عليه وسلم

المخلفون :

وكانت هذه الغزوة — لظروفها الخاصة بها — اختبارا شديدا من الله تعالى ، امتاز به المؤمنون من غيرهم . كما هو دأبه تعالى في مثل هذه المواطن ، حيث يقول: « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » (٣ : ١٧٩) فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنا صادقا ، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل ، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : دعوه ، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه ، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر ،أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين ،الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبا ، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسا . نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر . وهم الذين أبلاهم الله ، ثم تاب عليهم .

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فأما المنافقون — وهم بضعة وثمانون رجلا [١] فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار . وطفقوا يحلفون له ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

---

(١) ذكر الواقدي أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار ، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضا اثنين وثمانين رجلا من بني غفار وغيرهم،وأن عبد الله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء ، وكانوا عددا كثيرا . (انظر فتح الباري ٨ / ١١٩)

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين ــ وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ،وهلال بن أمية ــ فاختاروا الصدق ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة أن لايكلموا هؤلاء الثلاثة ، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة ، وتغير لهم الناس ، حتى تنكرت لهــم الأرض ، وضاقت عليهم بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمــروا أن يعتزلوا نساءهم ، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة ، ثم أنزل الله توبتهم « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بمــا رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » (٩ : ١١٨) .

وفرح المسلمون ، وفرح الثلاثة فرحا لايقاس مداه وغايته، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا ، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم .

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولاعلى الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله » ، الآيتين (٩ : ٩١ ، ٩٢) وقال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دنا من المدينة : « إن بالمدينة رجالا ماسرتم مسيرا ، ولاقطعتم واديا إلا كانوا معكم،حبسهم العذر » ، قالوا : يارسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة .

أثــر الغــزوة :

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر فى بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيــرة العرب ، فقد تبين للناس أنه ليس لأى قوة من القوات أن تعيش فى العرب سوى قوة الإسلام ، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك فى قلوب بقايا الجاهليين المنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين ، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان فقد استكانوا بعد هذه الغزوة ، واستسلموا للأمر الواقع، الذى لم يجدوا عنه محيدا ولامناصــا .

ولذلك لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين . وقد أمـــر الله بالتشديد عليهم ، حتى نهى عن قبول صدقاتهم ، وعن الصلاة عليهم، والاستغفار لهم والقيام على قبرهم ، وأمر بهدم وكرة دسهم وتآمرهم التى بنوها باسم المسجد ، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضاحا تاما ، لم يبق فى معرفتهم بعدها أى خفاء ، كأن الآيات قد نصت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة .

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت فـــى التوافد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة فتح مكة ، بل وماقبلها ، إلا أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة [1] .

نزول القرآن حول موضوع الغزوة :

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة ، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج — وهو فى السفر — وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينـــة . وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة ، وفضح المنافقين ، وفضل المجاهدين المخلصين ، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين ، الخارجين منهم فـــى الغزوة والمتخلفين ، إلى غير ذلك من الأمور .

• • •

بعض الوقائع المهمة فى هذه السنة :

وفى هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية فى التاريخ :

(١) بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك وقع اللعان بين عويمر العجلانى وامرأته .

---

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢ / ٥١٥ إلى ٥٣٧ ، وزاد المعاد ٣ / ٢ إلى ١٣ وصحيح البخارى ٢ / ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ و١ / ٢٥٢ ، ٤١٤ وغيرها . وصحيح مسلم مع شرحه للنووى ٢ / ٢٤٦ . وفتح البارى ٨ / ١١٠ إلى ١٢٦ . ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى من ص ٣٩١ إلى ٤٠٧ .

(٢) رجمت المرأة الغامدية التى جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة ، رجمت بعد ما فطمت ابنهـــا .

(٣) توفى النجاشى أصحمة ، ملك الحبشة ، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب .

(٤) توفيت أم كلثوم بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، فحزن عليها حزنا شديدا . وقال لعثمان : لو كانت عندى ثالثة لزوجتكها .

(٥) مات رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول بعـــد مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك، فاستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلى عليه بعد أن حاول عمـــر منعه عن الصلاة عليه ، وقد نزل القـــرآن بعد ذلك بموافقة عمـــر .

• • •

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة (٩هـ) بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرا على الحج؛ ليقيم بالمسلمين المناسك.

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض المواثيق ونبذها على سواء ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك ، وذلك تمشيا منه على عادة العرب في عهود الدماء والأموال. فالتقى علي بأبي بكر بالعرج أو بضجنان ، فقال أبو بكر : أمير أو مأمور ؟ قال علي : لا ، بل مأمور . ثم مضيا ، وأقام أبو بكر للناس حجهم ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام علي بن أبي طالب عند الجمرة ، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده ، وأجل لهم أربعة شهور ، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد ، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا ، ولم يظاهروا عليهم أحدا فأبقى عهدهم إلى مدتهم .

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالا ينادون في الناس: ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولايطوف بالبيت عريان .

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب ، وأنها لاتبدئ ولاتعيد بعد هذا العام [١] .

---

(١) صحيح البخاري ١ / ٢٢٠ ، ٤٥١ ، ٢ / ٦٢٦ ، ٦٧١ ، زاد المعاد ٣ / ٢٥ ، ٢٦ ، ابن هشام ٢ / ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وبعوثه وسراياه لايمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر فى أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها . . . لايمكن لنا إلا أن نقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان أكبر قائد عسكرى فى الدنيا ، وأسدهم وأعمقهم فراسة وتيقظا ، إنه صاحب عبقرية فذة فى هـذا الوصف ، كما كان سيد الرسل وأعظمهم فى صفة النبوة والرسالة ، فلم يخض معركة من المعارك إلا فى الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير . ولذلك لم يفشل فى أى معركة من المعارك التى خاضها لغلطة فى الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية ، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة ، واختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال . بل أثبت فى كل ذلك أن له نوعا آخر من القيادة غير ماعرفتها ،وتعرف الدنيا فى القواد . ولم يقع ماوقع فى أحد وحنين إلا من بعض الضعف فى أفـراد الجيش — فى حنين — أو من جهة معصيتهم أوامره ، وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطـة اللتين كان أوجبهما عليهم مـن حيث الوجهة العسكرية .

وقد تجلت عبقريته صلى الله عليه وسلم فى هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين فقد ثبت مجابها للعدو ، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم فى أهدافهم — كما فعل فى أحد — أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصارا — كما فى حنين — مع أن مثل هذا التطور الخطير ، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد ، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر ، لايبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم .

هذه من ناحية القيادة العسكرية الخالصة . أما من نواح أخرى،فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام . وإطفاء نار الفتنة ، وكسر شوكة الأعداء فى صراع الإسلام والوثنية ، وإلجائهم إلى المصالحة ، وتخلية السبيل لنشر الدعوة . كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه ممن هو يبطن النفاق ، ويضمر نوازع الغدر والخيانة .

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد، الذين لاقوا بعده الفرس والروم في ميادين العراق والشام، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين .

كما استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضل هذه الغزوات، أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاغل للمسلمين، حتى تفصى من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار، وهيأ السلاح والكراع والعدة والنفقات. حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغي والعدوان على عباد الله .

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوتر، وكبت الضعيف وتخريب العمران وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض — في الجاهلية — إذ صارت هذه الحرب — في الإسلام — جهادا في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان. فقد صارت الحرب جهادا في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالة والنصف، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفا حتى يؤخذ منه، وصارت جهادا في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا، واجعل لنا من لدنك نصيرا، وصارت جهادا في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة .

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها، ولم

يسمح لهم الخروج عنها بحال . روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله عز وجل ، ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : اغزوا بسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، فلا تغلوا ولاتغدروا ، ولاتمثلوا ، ولاتقتلوا وليدا.. الحديث . وكان يأمر بالتيسير ويقول : يسروا ولاتعسروا ، وسكنوا ولاتنفروا [1] . وكان إذا جاء قوما بليل لم يغر عليهم حتى يصبح ، ونهى أشد النهى عن التحريق فى النار ، نهى عن قتل الصبية ، وقتل النساء وضربهن ، ونهى عن النهب حتى قال : إن النهبى ليست بأحل من الميتة ، ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة ، ولايبقى سواه سبيل . وقال عند فتح مكة : لاتجهزن على جريح ولاتتبعن مدبرا ولا تقتلن أسيرا ، وأمضى السنة بأن السفير لايقتل ، وشدد فى النهى عن قتل المعاهدين حتى قال : من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاما .. إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التى طهرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهادا مقدسا [2] .

---

(١) صحيح مسلم ٢ / ٨٢ ، ٨٣

(٢) انظر ذلك مفصلا فى زاد المعاد ٢ / ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، والجهاد فى الإسلام للأستاذ أبى الأعلى المودودى ص ٢١٦ إلى ٢٦٢

الناس يدخلون في دين الله أفواجا

كانت غزوة فتح مكة – كما قلنا – معركة فاصلة ، قضت على الوثنية قضاء باتا ، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل ، وزالت عنهم الشبهات ، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام . قال عمرو بن سلمة : كنا بماء ممر الناس ، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم : ماللناس ؟ ماهذا الرجل ؟ – أي النبي صلى الله عليه وسلم – فيقولون : يزعم أن الله أرسله . أوحى إليه ، ، أوحى الله كذا ، فكنت أحفظ ذاك الكلام ، فكانما يقرأ في صدرى ، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قومى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند النبي – صلى الله عليه وسلم – حقا . فقال : صلوا صلاة كذا فى حين كذا ، وصلاة كذا فى حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكثركم قرآنا . الحديث [1] .

وهذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة فى تطوير الظروف ، وتعزيز الإسلام ، وتعيين الموقف للعرب ، واستسلامهم للإسلام ، وتأكد ذلك أى تأكد بعد غزوة تبوك ، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى فى هذين العامين – التاسع والعاشر – ونرى الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، حتى إن الجيش الإسلامى الذى كان قوامه عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الفتح ، إذا هو يزخر فى ثلاثين ألف مقاتل فى غزوة تبوك قبل أن يمضى على فتح مكة عام كامل ، ثم نرى فى حجة الوداع بحرا من رجال الإسلام – مائة ألف من الناس أو مائة وأربع و أربعون ألف منهم – يموج حول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد تدوى له الآفاق ، وترتج له الأرجاء .

الوفود :

والوفود التى سردها أهل المغازى يزيد عددها على سبعين وفدا ، ولايمكن لنا

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦١٥ ، ٦١٦

استقصاءها، وليس كبير فائدة فى بسط تفاصيلها ، وإنما نذكر منها إجمـالا ماله روعة أو أهمية فى التاريخ . وليكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح ، ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضا :

(١) وفد عبد القيس — كانت لهذه القبيلة وفادتان : الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك . كان رجل منهم يقال له منقذ بن حيان، يرد المدينة بالتجارة فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلم بالإسلام أسلم وذهب بكتاب من النبى صلى الله عليه وسلم إلى قومه فأسلموا ، فتوافدوا إليه فى شهر حرام فى ثلاثة أو أربعة عشر رجلا ، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان كبيرهم الأشج العصرى الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة .

والوفادة الثانية كانت فى سنة الوفود ، وكان عددهم فيها أربعين رجلا ، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدى ، وكان نصرانيا فأسلم وحسن إسلامه [١] .

(٢) وفد دوس — كانت وفادة هذه القبيلة فى أوائل سنة سبع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، وقد قدمنا حديث إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى ، وأنه أسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ثم رجع إلى قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام، ويبطئون عليه حتى يئس منهم ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلب منه أن يدعو على دوس ، فقال : اللهم اهد دوسا . ثم أسلم هؤلاء فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتا من قومه إلى المدينة فى أوائل سنة سبع ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر فلحق به .

(٣) رسول فروة بن عمرو الجذامى — كان فروة قائدا عربيا من قواد الرومان ، عاملا لهم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وماحوله من أرض الشام ، أسلم بعد مارأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء فى

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ١ / ٣٣ ، فتح البارى ٨ / ٨٥ ، ٨٦

معركة مؤتة سنة ٨هـ . ولما أسلم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا بإسلامه ، وأهدى له بغلة بيضاء ، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت ، فاختار الموت على الردة ، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء ، وضربوا عنقه (١) .

(٤) وفد صداء — جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة سنة ٨هـ . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هيأ بعثا من أربعمائة من المسلمين ، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صداء . وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن الحارث الصدائي ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: جئتك وافـدا على من ورائي ، فاردد الجيش وأنا لك بقومي . فرد الجيش من صدر قناة ، وجاء الصدائي إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عليه خمسة عشر رجلا منهم ، وبايعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعوهم ففشا فيهم الإسلام ، فوافى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة رجل في حجة الوداع .

(٥) قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى — كان من بيت الشعراء، ومن أشعر العرب ، وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة الطائف سنة ٨ هـ ، كتب إلى كعب بن زهير أخـوه بجير بن زهير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، ومن بقي من شعراء قريش هربوا في كل وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لايقتل أحدا جاء تائبا ، وإلا فانج إلى نجاتك . ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب ، وأشفق على نفسه ، فجاء المدينة ، ونزل على رجل من جهينة ، وصلى معه الصبح . فلما انصرف أشار عليه الجهني ، فقام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٤٥ ، تفهيم القرآن ٢ / ١٦٩

حتى جلس إليه ، فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايعرفه فقال : يارسول الله : إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال : نعم . قال : أنا كعب بن زهير . فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه ، فقال : دعه عنك ، فإنه قد جاء تائبا نازعا عما كان عليه .

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التى أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها ، لم يفد ، مكبول

قال فيها — وهو يعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويمدحه — :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة ا ... لقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لاتأخذن بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ، ولو كثرت فى الأقاويل

لقد أقوم مقاما لو يقوم به ... أرى وأسمع مالو يسمع الفيل

لظل يرعد ، إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل

حتى وضعت يمينى ماأنازعه ... فى كف ذى نقمات قيلة القيل

فلهو أخوف عندى إذ أكلمه ... وقيل : إنك منسوب ومسئول

من ضيغم بضراء الأرض مخدره ... فى بطن عثر غيل دونه غيل

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش ، لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل فى كعب حين جاء إلا بخير ، وعرض فى أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم فى ضرب عنقه ، قال :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار فى قصيدة له ، وتدارك ماكان قد فرط منه فى شأنهم ، قال فى تلك القصيدة :

من سره كرم الحياة فلا يزل　　في مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر　　إن الخيار هم بنو الأخيار

(٦) وفد عذرة — قدم هذا الوفد فى صفر سنة ٩هـ . وهم اثنا عشر رجلا فيهم حمزة بن النعمان . قال متكلمهم حين سئلوا من القوم : نحن بنو عذرة إخوة قصى لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر لنا قرابات وأرحام ؛ فرحب بهم النبي صلى الله عليه وسلم . وبشرهم بفتح الشام ، ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التى كانوا يذبحونها . أسلموا وأقاموا أياما ثم رجعوا .

(٧) وفد بلى — قدم فى ربيع الأول سنة ٩هـ ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثا وقد سأل رئيسهم أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة ، وسأل عن وقت الضيافة ، فقال : ثلاثة أيام ، وسأل عن ضالة الغنم فقال : هى لك أو لأخيك أو للذئب ، وسأل عن ضالة البعير . فقال : مالك وله ؟ دعه حتى يجده صاحبه .

(٨) وفد ثقيف — كانت وفادتهم فى رمضان سنة ٩هـ ، بعد مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك . وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مرجعه من غزوة الطائف فى ذى القعدة سنة ٨هـ قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم عروة ، ورجع إلى قومه ، ودعاهم إلى الإسلام — وهو يظن أنهم يطيعونه ؛ لأنه كان سيدا مطاعا فى قومه وكان أحب إليهم من أبكارهم — فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه ، ثم أقاموا بعد قتله أشهرا ، ثم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لاطاقة لهم بحرب من حولهم من العرب — الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا — فأجمعوا أن يرسلوا رجلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو ، وعرضوا عليه ذلك فأبى ، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ماصنعوا بعروة .

وقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالا ، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك ، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وكان أحدثهم سنا .

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عليهم قبة فى ناحية المسجد ، لكى يسمعوا القرآن ، ويروا الناس إذا صلوا ، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يدعوهم إلى الإسلام ، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قضية صلح بينه وبين ثقيف، يأذن لهم فيها بالزنا وشرب الخمور وأكل الربا ، ويترك لهم طاغيتهم اللات ، وأن يعفيهم من الصلاة وأن لايكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل شيئا من ذلك، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا محيصا عن الاستسلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستسلموا وأسلموا ، واشترطوا أن يتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدم اللات . وأن ثقيفا لايهدمونها بأيديهم أبدا . فقبل ذلك ، وكتب لهم كتابا ، وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص الثقفى ، لأنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم الدين والقرآن . وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخلفون عثمان بن أبى العاص فى رحالهم ، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبى العاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقرأه القرآن، وسأله عن الدين ، وإذا وجده نائما عمد إلى أبى بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم الناس بركة لقومه فى زمن الردة ، فإن ثقيفا لما عزمت على الردة قال لهم : يامعشر ثقيف كنتم آخر الناس إسلاما، فلا تكونوا أول الناس ردة ، فامتنعوا على الردة ، وثبتوا على الإسلام) .

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة ، وخوفهم بالحرب والقتال ، وأظهر الحزن والكآبة، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم . فأخذت ثقيفا نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد : ارجعوا إليه فاعطوه

ما سأل. وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر . وأظهروا ماصالحوا عليه ، فأسلمت ثقيف

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا لهدم اللات،أمر عليهم خالد بن الوليد ،فقام المغيرة بن شعبة،فأخذ الكرزين وقال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف ، فضرب بالكرزين ، ثم سقط يركض ، فارتج أهل الطائف ، وقالوا : أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، فوثب المغيرة فقال : قبحكم الله ، إنما هى لكاع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها . وأخرجوا حليها ولباسها ، فبهتت ثقيف،ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليها وكسوتها ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه ، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينـــــه [1] .

(٩) رسالة ملوك اليمن – وبعد مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك قدم كتاب ملوك حمير ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان بن قيل ذى رعين ، وهمدان ومعافر ، ورسولهم إليه صلى الله عليه وسلم مالك بن مرة الرهاوى ، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله ، وكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم ، وأعطى فيه المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ماعليهم من الجزية ، وبعث إليهم رجالا من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل .

(١٠) وفد همدان – قدموا سنة ٩هـ بعد مرجعه صلى الله عليه وسلم من تبوك ، فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا أقطعهم فيه ماسألوه ، وأمر عليهم مالك بن النمط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وبعث إلى سائرهـــم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام ، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه ، ثم بعث على بن أبى طالب،وأمره أن يقفل خالدا ، فجاء على إلى همدان،وقرأ عليهم

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ابن هشام ٢ / ٥٣٧ إلى ٥٤٢

كتابا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعا ، وكتب علي ببشارة إسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ الكتاب خر ساجدا ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان .

(١١) وفد بني فزارة — قدم هذا الوفد سنة ٩هـ بعد مرجعه صلى الله عليه وسلم من تبوك ، قدم في بضعة عشر رجلا جاءوا مقرين بالإسلام ، وشكوا جدب بلادهم ، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر ، فرفع يديه واستسقى ، وقال : اللهم اسق بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحي بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريحا مريعا ، طبقا واسعا ، عاجلا ، غير آجل ، نافعا غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولاهدم ولاغرق ولامحق ، اللهم اسقنا الغيث ، وانصرنا على الأعداء [1] .

(١٢) وفد نجران — (نجران ، بفتح النون وسكون الجيم : بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن ، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية ؛ مسيرة يوم للراكب السريع [2] ، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا على دين المسيحية) .

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ ، وقوام الوفد ستون رجلا منهم أربعة وعشرون من الأشراف ، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران . أحدهم العاقب ، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح . والثاني السيد ، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل . والثالث الأسقف وكانت إليه الزعامة الدينية ، والقيادة الروحانية ، واسمه أبو حارثة بن علقمة .

ولما نزل الوفد بالمدينة ، ولقي النبي صلى الله عليه وسلم سألهم وسألوه ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا ، وسألوه عما يقول في عيسى

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٤٨

(٢) فتح الباري ٨ / ٩٤

عليه السلام ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يومه ذلك حتى نزل عليه « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » (٣ : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١)

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرهم بقوله فى عيسى ابن مريم فى ضوء هذه الآية الكريمة ، وتركهم ذلك اليوم؛ليفكروا فى أمرهم ، فأبوا أن يقروا بما قال فى عيسى . فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ماعرض عليهم من قوله فى عيسى ،وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة ؛ وأقبل مشتملا على الحسن والحسين فى خميل له ، وفاطمة تمشى عند ظهره ، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا ، فقال كل من العاقب والسيد للآخر : لاتفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لانفلح نحن ولاعقبنا من بعدنا ، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولاظفر إلا هلك ، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرهم ، فجاءوا وقالوا : إنا نعطيك ماسألتنا . فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الجزية،وصالحهم على ألفى حلة . ألف فى رجب ، وألف فى صفر ، ومع كل حلة أوقية ، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله . وترك لهم الحرية الكاملة فى دينهم ، وكتب لهم بذلك كتابا ، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلا أمينا فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح ؛ ليقبض مال الصلح .

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم ، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهم عليا؛ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم ، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين [1] .

---

(١) فتح البارى ٨ / ٩٤ ، ٩٥ ، زاد المعاد ٣ / ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، وقد اضطربت الروايات فى بيان كيفية وفد نجران ، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين . وقد ذكرنا-ملخصا - ما ترجح عندنا فى هذا الوفد .

(١٣) وفد بنى حنيفة – كانت وفادتهم سنة ٩هـ ،وكانوا سبعة عشر رجلا فيهم مسيلمة الكذاب (١) – وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة – نزل هذا الوفد فى بيت رجل من الأنصار ، ثم جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، واختلفت الروايات فى مسيلمة الكذاب ، ويظهر بعد التأمل فى جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة . وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولا . فلما رأى أن ذلك لايجدى فيه نفعا تفرس فيه الشر .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أرى قبل ذلك فى المنام أنه أتى بخزائن الأرض، فوقع فى يديه سواران من ذهب ، فكبرا عليه وأهماه ، فأوحى إليه أن انفخهما فنفخهما فذهبا ، فأولهما كذابين يخرجان من بعده ، فلما صدر من مسيلمة ماصدر من الاستنكاف – وقد كان يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته – جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده قطعة من جريد ، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه ، فكلمه فقال له مسيلمة : إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعدك ، فقال : لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، والله إنى لأراك الذى أريت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت يجيبك عنى . ثم انصرف (٢) .

وأخيرا وقع ماتفرس فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقى يفكر فى أمره حتى ادعى أنه أشرك فى الأمر مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فادعى النبوة ، وجعل يسجع السجعات ، وأحل لقومه الخمر والزنا ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نبى ، وافتتن به قومه فتبعوه ، وأصفقوا معه ، حتى تفاقم أمره ، فكان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم .

---

(١) فتح البارى ٨ / ٨٧

(٢) انظر صحيح البخارى باب وفد بنى حنيفة ،وباب قصة الأسود العنسى ٢ / ٦٢٧ ، ٦٢٨ وفتح البارى ٨ / ٨٧ إلى ٩٣

وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا قال فيه : إنى أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر ، ولقريش نصف الأمر ، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب قال فيه : «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » (١) .

وعن ابن مسعود قال : جاء ابن النواحة ، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما : أتشهدان أنى رسول الله ؟ فقالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : آمنت بالله ورسوله . لوكنت قاتلا رسولا لقتلتكما (٢) .

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر ، وقتل فى حرب اليمامة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى ربيع الأول سنة ١٢ ، قتله وحشى قاتل حمزة . وأما المتنبئ الثانى ، وهو الأسود العنسى الذى كان باليمن ، فقتله فيروز ، واحتز رأسه قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيوم وليلة ، فأتاه الوحى فأخبر به أصحابه ، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبى بكر رضى الله عنه (٣) .

(١٤) وفد بنى عامر بن صعصعة — كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأربد بن قيس — أخو لبيد لأمه — وخالد بن جعفر ، وجبار بن أسلم ، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم ، وكان عامر هو الذى غدر بأصحاب بئر معونة ، فلما أراد هـذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد ، واتفقا على الفتك بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، ودار أربد خلفـه ، واخترط سيفه شبرا ، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله ، وعصم الله نبيه ، ودعا عليهما النبي صلى الله عليه وسلم فلما رجعا أرسل الله على أربد وجمله

---

(١) زاد المعاد ٣ / ٣١ ، ٣٢
(٢) رواه الإمام أحمد ، مشكاة المصابيح ٢ / ٣٤٧
(٣) فتح البارى ٨ / ٩٣

صاعقة فأحرقته ، وأما عامر فنزل على امرأة سلولية ، فأصيب بغدة في عنقه فمات وهو يقول : أغدة كغدة البعير ، وموتا في بيت السلولية .

وفى صحيح البخارى : أن عامرا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولى أهل المدر ، أو أكـون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، فطعن فى بيت امرأة ، فقال : أغدة كغدة البعير ، فى بيت امرأة من بنى فلان إيتونى بفرسى فركب ، فمات على فرسه .

(١٥) وفد تجيب ـ قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم وكان الوفد ثلاثة عشر رجلا ، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء فكتب لهم بها ، ولم يطيلوا اللبث ، ولما أجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثوا إليه غلاما كانوا خلفوه فى رحالهم ، فجاء الغلام ، وقال : والله ما أعملنى من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى ،وأن يجعل غناى فى قلبى ، فدعا له بذلك . فكان أقنع الناس ، وثبت فى الردة على الإسلام وذكر قومه ووعظهم فثبتوا عليه ، والتقى أهل الوفد بالنبى صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فى حجة الوداع سنة ١٠هـ .

(١٦) وفد طيئ ـ قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل ، فلما كلموا النبى صلى الله عليه وسلم ،وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيد : ماذكر لى رجل من العرب بفضل ،ثم جاءنى إلا رأيته دون مايقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل مافيه ، وسماه زيد الخير .

* * *

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة فى سنتى تسع وعشر ، وقد ذكر أهل المغازى والسير منها وفود أهل اليمن ، والأزد وبنى سعد هذيم من قضاعة ، وبنى عامر بن قيس ، وبنى أسد ، وبهراء ، وخولان ومحارب ، وبنى الحارث بن كعب ، وغامد

وبنى المنتفق ، وسلامان ، وبنى عبس ، ومزينة ، ومراد ، وزبيد ، وكندة ، وذى مرة ، وغسان ، وبنى عيش ، ونخع – وهو آخر الوفود ، توافد فى منتصف محرم سنة ١١ هـ فى مائتى رجل – وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩ و ١٠هـ وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١هـ .

وتتابع هذه الوفود يدل على مدى مانالت الدعوة الإسلامية من القبول التام وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها ، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال، حتى لم تكن ترى محيصا عن الاستسلام أمامها ، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب ، لايمكن صرف النظر عنها. إلا أننا لايمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم ، لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعا لسادتهم ، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ماتأصل فيها من الميل إلى الغارات ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب ، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله فى سورة التوبة « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ماأنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء . والله سميع عليم » (٩ : ٩٧ ، ٩٨) وأثنى على آخرين منهم فقال :« ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ، إن الله غفور رحيم » (٩ : ٩٩)

أما الحاضرون منهم فى مكة والمدينة وثقيف ، وكثير من اليمن والبحريـــن فقد كان الإسلام فيهم قويا ، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين [١] .

---

(١) كلمة الخضرى فى محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١ / ١٤٤
وانظر فى تفاصيل الوفود الى ذكرناها أو أشرنا إليها ، صحيح البخارى ١ / ١٣ ، ٢ / ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ وابن هشام ٢ / ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٦٠ إلى ٦٠١ ، وزاد المعاد ٣ / ٢٦ إلى ٦٠ ، وفتح البارى ٨ / ٨٣ إلى ١٠٣ ورحمة للعالمين ١ / ١٨٤ إلى ٢١٧

نجاح الدعـــوة وأثرها

وقبل أن نتقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ينبغي لنا أن نلقى نظرة إجمالية على العمل الجلل الذى هو فذلكة حياته ، والذى امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين حتى تـــوج الله هامته بسيادة الأولين والآخريـــن . . .

إنه صلى الله عليه وسلم قيل له : « يأيها المزمل. قم الليل إلا قليلاً » الآيات . و « ياأيها المدثر. قم فأنذر » الآيات ، فقام ، وظل قائما أكثر من عشرين عاما يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى فى هـــذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد فى ميدان الضمير البشرى الغارق فى أوهـــام الجاهليـــة وتصوراتها، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها ، المكبل بأوهان الشهوات وأغلالها . حتى إذا خلص هذا الضمير فى بعض صحابته مما يثقله من ركـــام الجاهلية والحياة الأرضية، بدأ معركة أخرى فى ميدان آخر ، بل معارك متلاحقة . . مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها، وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية فى منبتها ، قبل أن تنمو وتمد جذورها فى التربة ، وفروعها فى الفضاء ، وتظل مساحات أخرى . . ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة ، وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفى أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى — معركة الضمير — قد انتهت . فهى معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لايني لحظة عن مزاولة نشاطه فـــى أعماق الضمير الإنساني . ومحمد صلى الله عليه وسلم قائم على دعوة الله هناك ، وعلى المعركة الدائبة فى ميادينها المتفرقة ، فى شظف من العيش ، والدنيا مقبلة عليه . وفى جهد وكد ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة ، وفى نصب

دائم لاينقطع ، وفى صبر جميل على هذا كله . وفى قيام الليل ، وفى عبادة لربه وترتيل لقرآنه ، وتبتل إليه كما أمره أن يفعل [١] .

وهكذا عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاما . لايلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد . حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تتحير له العقول . فقد دانت لها الجزيرة العربية . وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها . وصحت العقول العليلة حتى تركت الأصنام بل كسرت . وأخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد . وسمع الأذان للصلوات يشق اجواء الفضاء خلال الصحراء التى أحياها الإيمان الجديد . وانطلق القراء شمالا وجنوبا . يتلون آيات الكتاب ، ويقيمون أحكام الله .

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة . وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله ، فليس هناك قاهر ومقهور ، وسادات وعبيد . وحكام ومحكومون ، وظالم ومظلوم . وإنما الناس كلهم عباد الله . إخوان متحابون . متمثلون لأحكامه ، أذهب الله عنهم عبية الجاهلية ونخوتها وتعاظمها بالآباء . ولم يبق هناك فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم من تراب .

وهكذا تحققت — بفضل هذه الدعوة — الوحدة العربية ، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، والسعادة البشرية فى قضاياها ومشاكلها الدنيوية . وفى مسائلها الأخروية ، فتقلب مجرى الأيام ، وتغير وجه الأرض ، وانعدل خط التاريخ ، وتبدلت العقلية .

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية — قبل هذه الدعوة — ويتعفن ضميره ، وتأسن روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاه غاشية الكفر والضلال

---

(١) كلمة سيد قطب فى ظلال القرآن ٢٩ / ١٦٨ ، ١٦٩

والظلام . على الرغم من الديانات السماوية . التي كانت قد أدركها التحريف ، ومرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس . واستحالت طقوسا جامدة لاحياة فيها ولا روح .

فلما قامت هـــذه الدعوة بدورها في حياة البشرية.خلصت روح البشر من الوهم والخرافة ، ومن العبوديـــة والرق . ومن الفساد والتعفن . ومن القـــذارة والانحـــلال . وخلصت المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان . ومـــن التفكك والانهيار ، ومن فوارق الطبقات . واستبداد الحكام . واستذلال الكهان . وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة ، والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد.ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة . ومن العمل الدائب ؛ لتنمية الحياة ، وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذى حق حقه فى الحياة [1] .

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران ، ولم يتألق تاريخها تألقه فى هذه الأيام الفريدة من عمرها .

• • •

(١) من كلمة سيد قطب فى مقدمة ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٤

حجـــة الوداع

تمت أعمال الدعوة ، وإبلاغ الرسالة ، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وعلى أساس رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . وكأن هاتفا خفيا انبعث في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يشعره أن مقامه فى الدنيا قد أوشك على النهاية ، حتى إنه حين بعث معاذا على اليمن سنة ١٠ هـ قال له فيما قال : يامعاذ إنك عسى أن لاتلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى ، فبكى معاذ خشعا لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وشاء الله أن يرى رسوله صلى الله عليـــه وسلم ثمار دعوته، التى عانى فى سبيلها ألوانا من المتاعب بضعا وعشرين عاما ، فيجتمع فى أطراف مكة بأفـــراد قبائل العرب وممثليها ، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه ، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة .

أعلن النبى صلى الله عليه وسلم بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم [١] . وفى يوم السبت لأربع بقين من ذى القعدة تهيأ النبي صلى الله عليه وسلم للرحيل [٢] ، فترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه وقلد بدنه ، وانطلق بعد الظهر ، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلى العصر ، فصلاها ركعتين ، وبات هناك حتى أصبح . فلمـــا أصبح قال لأصحابه : أتانى الليلة آت من ربى فقال : صل فى هذا الوادى المبارك وقل : عمرة في حجة [٣] .

وقبل أن يصلى الظهر اغتسل لإحرامه ، ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة وطيب فيه مسك ، فى بدنه ورأسه ، حتى كان وبيص الطيب يرى فى مفارقه ولحيته ،

---

(١) روى ذلك مسلم عن جابر ، باب حجة النبى صلى الله عليه وسلم ١ / ٣٩٤

(٢) حقق ذلك ابن حجر تحقيقا أنيقا ، مع تصحيح ماورد من أنه خرج لخمس بقين من ذى القعدة انظر فتح الباري ٨ / ١٠٤

(٣) رواه البخارى عن عمر ١ / ٢٠٧

ثم استدامه ولم يغسله ، ثم لبس إزاره ورداءه ، ثم صلى الظهر ركعتين ، ثم أهل بالحج والعمرة فى مصلاه، وقرن بينهما . ثم خرج . فركب القصواء ، فأهل أيضا ثم أهل لما استقلت به على البيداء .

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة ، فبات بذى طوى . ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذى الحجة سنة ١٠ هـ – وقد قضى فى الطريق ثمان ليال . وهى المسافة الوسطى – فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة . ولم يحل . لأنه كان قارنا قد ساق معه الهدى ، فنزل بأعلى مكة عند الحجون . وأقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج .

وأمر من لم يكن معه هدى من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة . فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة . ثم يحلوا حلالا تاما ، فترددوا ، فقال : لو استقبلت من أمرى مااستدبرت ماأهديت ، ولولا أن معى الهدى لأحللت . فحل من لم يكن معه هدى ، وسمعوا وأطاعوا .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة – وهو يوم التروية – توجه إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر – خمس صلوات – ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، فأجاز حتى أتى عرفة . فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له . فأتى بطن الوادى . وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربع وعشرون أو أربع وأربعون ألفا من الناس ، فقام فيهم خطيبا ، وألقى هذه الخطبة الجامعة :

أيها الناس : اسمعوا قولى ، فإنى لاأدرى لعلى لاألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبـدا [1] .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٦٠٣

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث — وكان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل — وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله :

فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله،ولكم عليهن أن لايوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله [1] .

أيها الناس ، إنه لانبى بعدى ، ولا أمة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، طيبة بها أنفسكم ، وتحجون بيت ربكم ، وأطيعوا ولاة امركم ، تدخلوا جنة ربكم [2] .

وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء،وينكتها إلى الناس « اللهم اشهد » ثلاث مرات [3] .

وكان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو بعرفة — ربيعة بن أمية بن خلف [4] .

وبعد أن فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى

---

(١) صحيح مسلم باب حجة النبى صلى الله عليه وسلم ١ / ٣٩٧
(٢) معدن الأعمال ، ورواه ابن ماجة وابن عساكر ، رحمة للعالمين ١ / ٢٦٣
(٣) مسلم ١ / ٣٩٧
(٤) ابن هشام ٢ / ٦٠٥

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا» (٥ : ٣) وعند ما سمعها عمر بكى . فقيل له : مايبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان [١] .

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام . فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر . ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا . ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص

وأردف أسامة . ودفع حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعاه ، وكبره . وهلله ، ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا .

فدفع — من المزدلفة إلى منى — قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة — وهى الجمـــرة الكبرى نفسها ، كانت عندها شجرة فى ذلك الزمان ، وتسمى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى — فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادى ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ماغبر — وهى سبع وثلاثون بدنة ، تمام المائة — وأشركه فى هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت فى قدر ، فطبخت ، فأكلا من لحمهـــا ، وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر فأتى على بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ،

---

(١) رواه البخارى عن ابن عمر . . . . انظر رحمة للعالمين ١ / ٢٦٥

فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلواً فشرب منه[1].

وخطب النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر – عاشر ذى الحجة – أيضا حين ارتفع الضحى ، وهو على بغلة شهباء ، وعلى يعبر عنه ، والناس بين قائم وقاعد[2] وأعاد فى خطبته هذه بعض ماكان ألقاه أمس ، فقد روى الشيخان عن أبى بكرة قال : خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر ، قال :

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » .

وقال : « أى شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . قال : أى بلد هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليست البلدة ؟ قلنا : بلى . فأى يوم هـذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنـه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . قال : فإن دماءكـم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هـذا » .

« وستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم » ألا فلاترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

« ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد . فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع »[3] .

وفى رواية أنه قال فى تلك الخطبة : « ألا لايجنى جان إلا على نفسه ، ألا

---

(١) رواه مسلم عن جابر ، باب حجة النبى صلى الله عليه وسلم ١ / ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،
(٢) روى ذلك أبو داود ، باب أى وقت يخطب يوم النحر ١ / ٢٧٠
(٣) صحيح البخارى ، باب الخطبة أيام منى ١ / ٢٣٤

لايجني جان على ولده ، ولا مولود على والده ، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم ، فسيرضى به » [1] .

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدى المناسك ويعلم الشرائع ، ويذكر الله ، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم ، ويمحو آثار الشرك ومعالمها ، وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضا ، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الرءوس ، فقال : أليس هذا أوسط أيام التشريق [2] . وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر ، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر .

وفي يوم النفر الثاني - الثالث عشر من ذي الحجة - نفر النبي صلى الله عليه عليه وسلم من منى ، فنزل بخيف بني كنانة من الأبطح ، وأقام هناك بقية يومه ذلك ، وليلته ، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم رقد رقدة ، ثم ركب إلى البيت ، فطاف به طواف الوداع وكان قد امر به الصحابة ايضا

. ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة ، لاليأخذ حظا من الراحة ، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله [3].

• • •

آخر البعوث :

كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن

---

(١) رواه الترمذي ٢ / ٣٨ ، ١٣٥ وابن ماجة في الحج ، مشكاة المصابيح ١ / ٢٣٤

(٢) أبو داود . باب أي يوم يخطب بمنى ١ / ٢٦٩

(٣) انظر لتفصيل حجة النبي صلى الله عليه وسلم صحيح البخاري كتاب المناسك ج١ و٢ / ٦٣١ وصحيح مسلم باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفتح الباري ج٣ من شرح كتاب المناسك و ج٨ / ١٠٣ إلى ١١٠ وابن هشام ٢ / ٦٠١ إلى ٦٠٥ ، زاد المعاد ١ / ١٩٦ ، ٢١٨ إلى ٢٤٠ .

تقتل من أتباعها من يدخل فيه ، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامى الذى كان واليا على معان من قبل الروم .

ونظرا إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهز جيشا كبيرا فى صفر سنة ١١هـ . وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يبغى بذلك إرهاب الـــروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود ، حتى لايحسبن أحد أن بطش الكنيسة لامعقب له ، وأن الدخول فى الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب .

وتكلم الناس فى قائد الجيش لحداثة سنه ، واستبطأوا فى بعثه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن تطعنوا فى إمارته، فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل ، وايم الله إن كان لخليقا للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إلى ، وإن هذا من أحب الناس إلى بعده [1]

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة ، وينتظمون فى جيشه ، حتى خرجـــوا ونزلوا الجرف ، على فرسخ من المدينة ، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرهتهم على التريث،حتى يعرفوا مايقضى الله به ، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ فى خلافة أبى بكر الصديق [2] .

---

(١) صحيح البخارى . باب بعث النبى صلى الله عليه وسلم أسامة ٢ / ٦١٢

(٢) المصدر السابق وابن هشام ٢ / ٦٠٦ ، ٦٥٠

طلائع التوديع :

ولما تكاملت الدعوة وسيطر الإسلام على الموقف، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره صلى الله عليه وسلم ، وتتضح بعباراته وأفعاله .

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوما ، بينما كان لايعتكف إلا عشرة أيام فحسب . وتدارسه جبريل القرآن مرتين ، وقال في حجة الوداع : إني لاأدري لعلي لاألقاكم بعـد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ، وقال : وهو عند جمرة العقبة : خذوا عني مناسككم فلعلي لاأحج بعد عامي هذا ، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، وأنه نعيت إليه نفسه .

وفي أوائل صفر سنة ١١هـ خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد ، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إني فرطكم وإني شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني أعطيت مفاتيـح خزائن الأرض ، أو مفاتيح الأرض ، وإني والله ماأخاف أن تشركوا بعـدي ، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها [(١)] .

وخرج ليلة — في منتصفها — إلى البقيع فاستغفر لهم وقال : السلام عليكم ياأهل المقابر . ليهن لكم ماأصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخـرة شر من الأولى — وبشرهم قائلا : إنا بكم للاحقون .

بداية المرض :

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ — وكان يوم الاثنين — شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة في البقيع . فلما رجع ، وهو في الطريق

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ٢ / ٥٨٥

أخذه صداع في رأسه ، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق العصابة التي تعصب بها رأسه .

وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم بالناس وهو مريض ١١ يوما ، وجميع أيام المرض كانت ١٣ ، أو ١٤ يوما .

الأسبوع الأخير :

وثقل برسول الله صلى الله عليه وسلم المرض ، فجعل يسأل أزواجه : أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ ففهمن مراده، فأذن له يكون حيث شاء ، فانتقل إلى عائشة يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب ، عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتها ، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته .

وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت تنفث على نفسه ، وتمسحه بيده رجاء البركة .

قبل الوفاة بخمسة أيام :

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة ، اتقدت حرارة العلة في بدنه ، فاشتد به الوجع وغمي ، فقال : هريقوا على سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم ، فأقعدوه في مخضب ، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول : « حسبكم ، حسبكم » .

وعند ذلك أحس بخفة ، فدخل المسجد — وهو معصوب الرأس — حتى جلس على المنبر ، وخطب الناس — والناس مجتمعون حوله — فقال :

« لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » — وفي رواية « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد [1] — وقال : لا تتخذوا قبري وثنا يعبد » [2] ؛

---

(١) صحيح البخاري ١ / ٦٢ ، موطأ الإمام مالك ص ٣٦٠

(٢) موطأ الإمام مالك ص ٦٥

وعرض نفسه للقصاص قائلا : « من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه » .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر ، وعاد لمقالته الأولى فى الشحناء وغيرها . فقال رجل : إن لى عندك ثلاثة دراهم ، فقال : أعطه يافضل ، ثم أوصى بالأنصار قائلا :

« أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشى وعيبتى ، وقد قضوا الذى عليهم ، وبقى الذى لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم . وفى رواية أنه قال : إن الناس يكثرون ، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح فى الطعام ، فمن ولى منكم أمرا يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم » (١)

ثم قال : « إن عبدا خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ماشاء، وبين ماعنده . فاختار ماعنده » قال أبو سعيد الخدرى : فبكى أبو بكر . قال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا فعجبنا له ، فقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ ، يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا. وبين ماعنده، وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا (٢) .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر ، ولوكنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لايبقين فى المسجد باب إلا سد ، إلا باب أبى بكر (٣) .

قبل أربعة أيام :

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال — وقد اشتد به الوجع — : هلموا أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده — وفى البيت رجال فيهم عمر — فقال عمر :

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٣٦ (٢) متفق عليه ، مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٦

(٣) متفق عليه . مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٨ ، صحيح البخارى ١ / ٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٤٩ ، ٢ / ٦٣٨

قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبكم كتاب الله . فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من يقول ماقال عمر ، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوموا عني [1] ..

وأوصى ذلك اليوم بثلاث : أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب ، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ماكان يجيزهم ، أما الثالث فنسيه الراوى . ولعله الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة ، أو تنفيذ جيش أسامة ، أو هى « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

والنبي صلى الله عليه وسلم مع ماكان به من شدة المرض كان يصلى بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم — يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام — وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب ، فقرأ فيها بالمرسلات عرفا [2] .

وعند العشاء زاد ثقل المرض،بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد ، قالت عائشة : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أصلى الناس ؟ قلنا : لا يارسول الله ، وهم ينتظرونك . قال : ضعوا لى ماء فى المخضب ففعلنا ، فاغتسل ، فذهب لينوء فأغمى عليه . ثم أفاق ، فقال · أصلى الناس ؟ — ووقع ثانيا وثالثا ماوقع فى المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء — فأرسل إلى أبى بكر أن يصلى بالناس ، فصلى أبو بكر تلك الأيام [3] ١٧ صلاة فى حياته صلى الله عليه وسلم .

وراجعت عائشة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث أو أربع مرات ؛ليصرف الإمامة عن أبى بكر حتى لايتشاءم به الناس ، فأبى ، وقال : إنكن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس [4] .

---

(١) رواه البخارى عن أم الفضل باب مرض النبى صلى الله عليه وسلم ٢ / ٦٣٧

(٢) متفق عليه مشكاة المصابيح ١ / ١٠٢

(٣) صحيح البخارى ١ / ٩٩

قبل يوم أو يومين :

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه خفة ، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلي بالناس ، فلما رآه أبو بكـــر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه بأن لايتأخر ، قال : أجلساني إلى جنبه ، فأجلساه إلى يسار أبي بكر ، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسمع الناس التكبير [1] .

قبل يوم :

وقبل يوم من الوفاة — يوم الأحد — أعتق النبي صلى الله عليه وسلم غلمانه ، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده ، ووهب للمسلمين أسلحته ، وفي الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح من جارتها ، وكانت درعه صلى الله عليه وسلم مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من الشعير .

آخر يوم من الحياة :

روى أنس بن مالك : أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين — وأبو بكر يصلي بهم — لم يفجأهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم ، وهم في صفوف الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبيه ؛ ليصل الصف ، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريـــد أن يخرج إلى الصلاة . فقال أنس : وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم ، فرحا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليهم بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر [2] .

ثم لم يأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت صلاة أخرى .

---

(١) صحيح البخاري ١ / ٩٨ ، ٩٩

(٢) نفس المصدر ، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ٢ / ٦٤٠

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة فسارها بشئ فبكت. ثم دعاها، فسارها بشئ فضحكت، قالت عائشة: فسألنا عن ذلك — أى فيما بعد — فقالت: سارنى النبي صلى الله عليه وسلم أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه، فبكيت، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول أهله يتبعه فضحكت (١).

وبشر النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين (٢).

ورأت فاطمة ما برسول الله صلى الله عليه وسلم من الكرب الشديد الذى يتغشاه. فقالت: واكرب أباه. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم (٣).

ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيرا. ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن.

وطفق الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذى أكله بخيبر حتى كان يقول: يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم (٤).

وأوصى الناس، فقال: « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » كرر ذلك مرارا (٥).

الاحتضار:

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى. وأن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن — بن أبى بكر —

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦٣٨
(٢) ويدل بعض الروايات أن هذا الحوار والبشارة لم يكن فى آخر يوم من حياته بل فى آخر أسبوع. رحمة للعالمين ١ / ٢٨٢
(٣) صحيح البخارى ٢ / ٦٤١
(٤) نفس المصدر ٢ / ٦٣٧
(٥) نفس المصدر.

وبيده السواك ، وأنا مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم . فتناولته فاشتد عليه ، وقلت : ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم . فلينته ، فأمره - وفى رواية أنه استن بها كأحسن ماكان مستنا - وبين يديه ركوة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بها وجهه . يقـــول : لا إله إلا الله . إن للموت سكرات - الحديث - [1] .

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه ، وشخص بصره نحو السقف ، وتحركت شفتاه فأصغت إليه عائشة وهو يقول : مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم اغفـــر لى وارحمنى . وألحقنى بالرفيق الأعلى ، اللهم ، الرفيق الأعلى [2] .

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثا ، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى . إنا لله وإنا إليه راجعـــون .

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ . وقد تم له صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام .

تفاقم الأحزان على الصحابة :

وتسرب النبأ الفادح ، وأظلمت على أهل المدينـــة أرجاؤها وآفاقها . قال أنس : مارأيت يوما قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومارأيت يوما كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] .

---

(١) صحيح البخارى . باب مرض النبى صلى الله عليه وسلم ٢ / ٦٤٠

(٢) نفس المصدر والباب ، وباب آخر ماتكلم النبى صلى الله عليه وسلم ٢ / ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١

(٣) رواه الدارمى . مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٧

ولما مات قالت فاطمة : يا أبتاه أجاب ربا دعاه ، يا أبتاه ، من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه [1] .

موقف عمـــر :

ووقف عمر بن الخطاب – وقد أخرجه الخبر عن وعيه – يقول : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفـــى ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات . لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات .

ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات [2] .

موقف أبى بكر :

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس ، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهـــو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه، فقبله وبكى ، ثم قال : بأبى أنت وأمى ، لايجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التى كتبت عليك فقدمتها .

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس ياعمر ، فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه ، وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن محمدا قد مات . ومن كان منكم يعبد الله ، فإن الله حى لايموت . قال الله : « وما محمد إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » (٣ : ١٤٤) قال ابن عباس : والله لكأن

---

(١) صحيح البخارى . باب مرض النبى صلى الله عليه وسلم ٢ / ٦٤١

(٢) ابن هشام ٢ / ٦٥٥

الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها .

قال ابن المسيب : قال عمر : والله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعفرت حتى ما تقلني رجلاى ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات [1] .

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض :

ووقع الخلاف فى أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه صلى الله عليه وسلم . فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، وأخيرا اتفقوا على خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، ومضى فى ذلك بقية يوم الاثنين حتى دخل الليل ، وشغل الناس عن جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان آخر الليل – ليلة الثلاثاء – مع الصبح ، وبقى جسده المبارك على فراشه مغشى بثوب حبرة ، قد أغلق دونه الباب أهله .

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن يجردوه من ثيابه ، وكان القائمون بالغسل العباس وعليا ، والفضل وقثم ابنى العباس ، وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسامة بن زيد ، وأوس بن خولى . فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه ، وأسامة وشقران يصبان الماء ، وعلى يغسله ، وأوس أسنده إلى صدره .

ثم كفنوه فى ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف ، ليس فيها قميص ولا عمامة [2] . أدرجوه فيها إدراجا .

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ماقبض نبي إلا دفن حيث يقبض ، فرفع أبو طلحة فراشه الذى

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦٤٠ ، ٦٤١

(٢) متفق عليه ،صحيح البخارى ١ / ١٦٩ ، صحيح مسلم ١ / ٣٠٦

توفى عليه ، فحفر تحته ، وجعل القبر لحدا .

ودخل الناس الحجرة أرسالا عشرة فعشرة،يصلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمهم أحد ، وصلى عليه أولا أهل عشيرته ، ثم المهاجرين ، ثم الأنصار ، وصلت عليه النساء بعد الرجال ، ثم صلى عليه الصبيان .

ومضى فى ذلك يوم الثلاثاء كاملا، حتى دخلت ليلة الأربعاء ، قالت عائشة : ماعلمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل من ليلة الأربعاء [1] .

• • •

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٤٧١ ،وانظر لتفصيل لحوقه بالرفيق الأعلى: صحيح البخارى،باب مرض النبى صلى الله عليه وسلم وعدة أبواب بعده مع فتح البارى وصحيح مسلم ومشكاة المصابيح باب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وابن هشام ٢ / ٦٤٩ إلى ٦٦٥ وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٣٨ ، ٣٩ ورحمة للعالمين ١ / ٢٧٧ إلى ٢٨٦ وتعيين عامة الأوقات من المصدر الأخير .

(١) كان البيت النبوى فى مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام، ومن زوجته خديجة بنت خويلد، تزوجها وهو فى خمس وعشرين من سنه، وهى فى الأربعين، وهى أول من تزوجها من النساء، ولم يتزوج عليها غيرها. وكان له منها أبناء وبنات، أما الأبناء، فلم يعش منهم أحد. وأما البنات فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضى الله عنه الواحدة بعد الأخرى. وأما فاطمة فتزوجها على بن أبى طالب بين بدر وأحد، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم.

ومعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ممتازا عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة، منهن تسع مات عنهن، واثنتان توفيتا فى حياته، إحداهما خديجة، والأخرى أم المساكين زينب بنت خزيمة، واثنتان لم يدخل بهما. وهاهى أسماؤهن وشئ عنهن.

(٢) سودة بنت زمعة، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بأيام، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو فمات عنها.

(٣) عائشة بنت أبى بكر الصديق، تزوجها فى شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر، تزوجها وهى بنت ست سنين، وبنى بها فى شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر فى المدينة، وهى بنت تسع سنين، وكانت بكرا، ولم يتزوج بكرا غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، وأفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق.

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب، تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة

السهمى بين بدر وأحد ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ٣هـ .

(٥) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمى أم المساكين . لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، كانت تحت عبد الله بن جحش ، فاستشهد فى أحد . فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ٤هـ . ماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة أشهر .

(٦) أم سلمة هند بنت أبى أمية ، كانت تحت أبى سلمة ، فمات عنها فى جمادى الأخرى سنة ٤هـ فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال من نفس السنة .

(٧) زينب بنت جحش بن رياب من بنى أسد بن خزيمة ، وهى بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تحت زيد بن حارثة — الذى كان يعتبر إبنا للنبى صلى الله عليه وسلم — فطلقها زيد . فأنزل الله تعالى يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبنى — وسنأتى على ذكرها — تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة .

(٨) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة ، كانت فى سبى بنى المصطلق فى سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها . فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها ، وتزوجها فى شعبان سنة ٦هـ .

(٩) أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، كانت تحت عبيد الله بن جحش ، وهاجرت معه إلى الحبشة ، فارتد عبيد الله وتنصر وتوفى هناك ، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى بكتابه إلى النجاشى فى المحرم سنة ٧هـ . خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة .

(١٠) صفية بنت حيي بن أخطب من بنى إسرائيل ، كانت من سبى

خيبر ، فاصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧هـ .

(١١) ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث ، تزوجها فى ذى القعدة سنة ٧هـ ، فى عمرة القضاء بعد أن حل منها على الصحيح .

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوج بهن الرسول صلى الله عليه وسلم،وبنى بهن وتوفيت منهن اثنتان — خديجة وزينب أم المساكين — فى حياته ، وتوفى هو عن التسع البواقى .

وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما فواحدة من بنى كلاب ، وأخرى من كندة ؛ وهى المعروفة بالجونية . وهناك خلافات لاحاجة إلى بسطها .

وأما السرارى فالمعروف أنه تسرى باثنتين إحداهما مارية القبطية ، أهداها له المقوقس فأولدها ابنه إبراهيم،الذى توفى صغيرا بالمدينة فى حياته صلى الله عليه وسلم ، فى ٢٨/ أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢م . والسرية الثانية هى ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية ، كانت من سبايا قريظة . فاصطفاها لنفسه ، وقيل بل هى من أزواجه صلى الله عليه وسلم ، أعتقها فتزوجها . والقول الأول رجحه ابن القيم ، وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين ، جميلة أصابها فى بعض السبى ، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش [١] .

ومن نظر إلى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم عرف جيدا أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء فى أواخر عمره بعد أن قضى مايقارب ثلاثين عاما من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصرا على زوجة واحدة شبه عجوز — خديجة ثم سودة — . عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بغتة فى نفسه قوة عارمة من الشبق لايصبر معها إلا بمثل هذا العدد الكثير من النساء ، بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذى يحققه عامة الزواج .

---

(١) انظر زاد المعاد ١ / ٢٩

فاتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مصاهرة أبي بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة – وكذلك تزويجه ابنته فاطمة بعلي بن أبي طالب ، وتزويجه ابنته رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان – يشير إلى أنه يبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام في الأزمات التي مرت به وشاء الله أن يجتازها بسلام .

وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة ، فقد كان الصهر عندهم بابا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة ، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سبة وعارا على أنفسهم ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداء القبائل للإسلام ، ويطفئ حدة بغضائها ، كانت أم سلمة من بني مخزوم – حي أبي جهل وخالد بن الوليد – فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد ، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعا راغبا ، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة ، وكذلك لانرى من قبيلتي بني المصطلق وبني النضير أي استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية . بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها ، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولايخفى مالهذا المن من الأثر البالغ في النفوس .

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مأمورا بتزكية وتثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئا من آداب الثقافة والحضارة والتقيد بلوازم المدنية ، والمساهمة في بناء المجتمع وتعزيزه .

والمبادئ التي كانت أسسا لبناء المجتمع الإسلامي ،لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء ، فلم يكن يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ ، مع أن مسيس الحاجة إلى تثقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال ، بل كان أشد وأقوى .

وإذن فلم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب مايكفى لهذا الغـــرض ، فيزكيهن ويربيهن ، ويعلمهن الشرائع والأحكام ، ويثقفهن بثقافة الإسلام حتى يعدهن؛لتربية البدويات والحضريات ، العجائز منهن والشابات ، فيكفين مؤنة التبليغ فى النساء .

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير فى نقل أحواله – صلى الله عليه وسلم– المنزلية للناس ، خصوصا من طالت حيـــاته منهن كعائشة ، فإنها روت كثيرا من أفعاله وأقواله .

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلى متأصل ، وهى قاعدة التبنى . وكان للمتبنى عند العرب فى الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التى كانت للابن الحقيقى سواء بسواء . وكانت قد تأصلت تلك القاعدة فى القلوب،بحيث لم يكن محوها سهلا ، لكن كانت تلك القاعـــدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادئ التى قررها الإسلام فى النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات . وكانت تلك القاعدة تجلب كثيرا من المفاسد والفواحش التى جاء الإسلام؛ليمحوها عن المجتمع .

ولهدم تلك القاعدة أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينكح ابنة عمته زينب بنت جحش ، وكانت تحت زيد ، ولم يكن بينهما توافق،حتى هم زيد بطلاقهـــا ، وذلك فى ساعة تألب الأحـــزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاف دعاية المنافقين والمشركين واليهود ، وما يثيرونه من الوساوس والخرافات ضده ، وما يكون له من الأثر السيئ فى نفوس ضعفاء المسلمين . فأحب أن لايطلق زيد حتى لايقع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الامتحان .

ولاشك أن هذا التردد والانحياز كان لايطابق مطابقة تامة للعزيمة التى بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاتبه الله على ذلك وقال : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ماالله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »(٣٣ : ٣٧) .

وأخيرا طلقها زيد،وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أيام فرض الحصار على بنى قريظة بعد أن انقضت عدتها . وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح ولم يترك له خيارا ولا مجالا ، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه يقول : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حـــرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » (٣٣ : ٣٧) وذلك ليهدم قاعدة التبنى فعلا كما هدمها قولا : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » . (٣٣ : ٥) . « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٣٣ : ٤٠) .

وكم من التقاليد المتأصلة الجازمة لايمكن هدمها أوتعديلها لمجـــرد القول . بل لابد له من مقارنة فعل صاحب الدعوة ، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين فى عمرة الحديبيـــة ، كان هناك أولئك المسلمون الذين رآهم عـــروة بن مسعود الثقفى ، لايقع من النبى صلى الله عليه وسلم نخامة إلا فى يد أحـــدهم ، ورآهم يتبادرون إلى وضوئه حتى كادوا يقتتلون عليه . نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة ، والذين كان فيهم مثل أبوبكر وعمر ، لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أولئك الصحابة المتفانين فى ذاته — بعد عقد الصلح — أن يقوموا فينحروا هديهم لم يقم لامتثال أمره أحد ، حتى أخـــذه القلق والاضطراب ، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر،ولا يكلم أحدا ففعل،تبادر الصحابة إلى اتباعه فى فعله ، فتسابقوا إلى نحر جزورهم . وبهذا الحادث يتضح جليا ماهو الفرق بين أثرى القول والفعل لهدم قاعدة راسخة .

وقد أثار المنافقون وساوس كثيرة ، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح ، أثر بعضها فى ضعفاء المسلمين . لاسيما أن زينب كانت خامسة أزواجه صلى الله عليه وسلم . ولم يكن يعرف المسلمون حـــل الزواج بأكثر من أربع نسوة وأن زيدا كان يعتبر ابنا للنبى صلى الله عليه وسلم ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلظ الفواحش ، وقد أنزل الله فى سورة الأحزاب حول الموضوعين ماشفى وكفى

وعلم الصحابة أن التبني ليس له أثر عند الإسلام ، وأن الله تعالى وسع لرسوله صلى الله عليه وسلم في الزواج مالم يوسع لغيره ، لأغراضه النبيلة الممتازة .

هذا ،وكانت عشرته صلى الله عليه وسلم مع أمهات المؤمنين فى غاية الشرف والنبل والسمو والحسن ، كما كن فى أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج ، مع أنه كان فى شظف من العيش لا يطيقه أحد . قال أنس : ما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم رأى رغيفا مرققا حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط [1] . وقالت عائشة : إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار . فقال لها عروة : ماكان يعشيكم ؟ قالت : الأسودان ؟ التمر والماء [2] . والأخبار بهذا الصدد كثيرة .

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهن مايوجب العتاب إلا مرة واحدة — حسب مقتضى البشرية ، وليكون سببا لتشريع الأحكام — فأنزل الله آية التخيير « يأأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » (٣٣ : ٢٨ ، ٢٩) وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله ، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا .

وكذلك لم يقع منهن مايقع بين الضرائر مع كثرتهن إلا شئ يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية ، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى ،وهو الذى ذكره الله فى سورة التحريم بقوله « يأأيها النبي لم تحرم ماأحل الله لك » إلى تمام الآية الخامسة .

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٩٥٦

(٢) نفس المصدر والصفحة

وأخيرا أرى أنه لا حاجة إلى البحث في موضوع مبدأ تعدد الزوجات، فمن نظر في حياة سكان أوربا الذين يصدر منهم النكير الشديد على هذا المبدأ ، ونظر إلى مايقاسون من الشقاوة والمرارة ، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة ، وما يواجهون من البلايا والقلاقل لانحرافهم عن هذا المبدأ كفى له ذلك عن البحث والاستدلال ، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ ، وإن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

• • •

الصفات والأخلاق

كان النبي صلى الله عليه وسلم يمتاز من جمال خلقه وكمال خلقه بما لا يحيط بوصفه البيان ، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله ، والرجال تفانوا في حياطته وإكباره ، بما لاتعرف الدنيا لرجل غيره ، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر ، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبته من الكمال الذى يعشق عادة لم يرزق بمثلها بشر — وفيما يلى نورد ملخص الروايات فى بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة .

جمال الخلق :

قالت أم معبد الخزاعية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهى تصفه لزوجها ، حين مر بخيمتها مهاجرا — : ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق لم تعبه ثجلة ، ولم تزر به صعلة ، وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشعاره وطف ، وفى صوته صحل ، وفى عنقه سطع ، أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن ، شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار ، وإن تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لانزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن ، ربعة ، لاتقحمه عين من قصر ولا تشنؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنظر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود ، محشود ، لاعابس ولا مفند [1] .

وقال على بن أبى طالب — وهو ينعت رسول الله صلى الله عليه وسلم — : لم يكن بالطويل الممغط ، ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ، ولا بالسبط ، وكان جعدا رجلا ، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم ، وكان فى الوجه تدوير ، وكان أبيض مشربا ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليل

(١) زاد المعاد ٢ / ٥٤

المشاش والكتد ، دقيق المسربة ، أجرد ، شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب ، وإذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهـــو خاتم النبيين ، أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، صلى الله عليه وسلم[1]

وفى رواية عنه : أنه كان ضخم الرأس ، ضخم الكراديس ، طويل المسربة إذا مشا تكفأ تكفيا كأنما ينحط من صبب [2] .

وقال جابر بن سمرة : كان ضليع الفم ، أشكل العين ، منهوس العقبين [3]

وقال أبو الطفيل : كان أبيض ، مليح الوجه ، مقصدا [4] .

وقال أنس بن مالك : كان بسط الكفين . وقال : كان أزهر اللون ، ليس بأبيض أمهق ، ولا آدم ، قبض وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء [5] .

وقال : إنما كان شئ — أى من الشيب — فى صدغيه . وفى رواية : وفى الرأس نبذ [6] .

وقال أبو جحيفة : رأيت بياضا تحت شفته السفلى ، العنفقة [7] .

وقال عبد الله بن بسر : كان فى عنفقته شعرات بيض [8] .

وقال البراء : كان مربوعا بعيد مابين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، رأيته فى حلة حمراء ، لم أر شيئا قط أحسن منه [9] .

---

(١) ابن هشام ١ / ٤٠١ ، ٤٠٢ ، وجامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤ / ٣٠٣
(٢) نفس المصدر الأخير .
(٣) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٨
(٤) نفس المصدر
(٥) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢
(٦) نفس المصدر ، وصحيح مسلم ٢ / ٢٥٩
(٧) صحيح البخارى ١ / ٥٠١ ، ٥٠٢
(٨) نفس المصدر ١ / ٥٠٢
(٩) نفس المصدر

وكان يسدل شعره أولا لحبه موافقة أهل الكتاب ، ثم فرق رأسه بعد [1] .

قال البراء : كان أحسن الناس وجها ، وأحسنهم خلقا [2] .

وسئل : أكان وجه النبي صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟ قال : لا بل مثل القمر . وفي رواية : كان وجهه مستديرا [3] .

وقالت الربيع بنت معوذ : لو رأيته رأيت الشمس طالعة [4] .

وقال جابر بن سمرة : رأيته في ليلة إضحيان فجعلت أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى القمر — وعليه حلة حمراء — فإذا هو أحسن عندى من القمر [5] .

وقال أبو هريرة : مارأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجرى في وجهه ، وما رأيت أحدا أسرع في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنما الأرض تطوى له ، وإنا لنجهد أنفسنا ، وإنه لغير مكترث [6] .

وقال كعب بن مالك : كان إذا سر استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر [7]

وعرق مرة وهو عندعائشة فجعلت تبرق أسارير وجهه ، فتمثلت له بقول أبي كبير الهذلي :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل [8]

---

(1) صحيح البخارى 1 / 503
(2) نفس المصدر 1 / 502 ، وصحيح مسلم 2 / 258
(3) صحيح البخارى 1 / 502 ، وصحيح مسلم 2 / 259
(4) رواه الدارمى . . . . مشكاة المصابيح 2 / 517
(5) رواه الترمذى في الشمائل ص 2 ، والدارمى . . . مشكاة المصابيح 2 / 518
(6) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى 4 / 306 ، مشكاة المصابيح 2 / 518
(7) صحيح البخارى 1 / 502
(8) رحمة للعالمين 2 / 172

وكان أبو بكر إذا رآه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو   كضوء البدر زايله الظلام [1] .

وكان عمر ينشد قول زهير في هرم بن سنان :

لو كنت من شئ سوى البشر   كنت المضيء لليلة البدر

ثم يقول كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] .

وكان إذا غضب احمر وجهه ، حتى كأنما فقئ في وجنتيه حب الرمان [3] .

وقال جابر بن سمرة : كان في ساقيه حموشة ، وكان لايضحك إلا تبسما . وكنت إذا نظرت إليه قلت : أكحل العينين ، وليس بأكحل [4] .

قال ابن عباس : كان أفلج الثنيتين ،إذا تكلم رؤى كالنور يخرج من بين ثناياه[5]

وأما عنقه فكأنه جيد دمية في صفاء الفضة ، وكان في أشفاره غطف ، وفي لحيته كثافة ، وكان واسع الجبين ، أزج الحواجب في غير قرن بينهما ، أقنى العرنين ، سهل الخدين ، من لبته إلى سرته شعر يجرى كالقضيب : ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر الذراعين والمنكبين ، سواء البطن والصدر ، مسيح الصدر عريضه ، طويل الزند ، رحب الراحة ، سبط القصب ، خمصان الإخمصين سائل الأطراف ، إذا زال زال قلعا ، يخطو تكفيا ويمشى هونا [6] .

وقال أنس : ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبي صلى الله عليه وسلم . ولاشممت ريحا قط أو عرفا قط . وفي رواية : ماشممت عنبرا قط ولا مسكا ولاشيئا أطيب من ريح أو عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم [7] .

(١ و ٢) خلاصة السير ص ٢٠

(٣) مشكاة المصابيح ١ / ٢٢ ، ورواه الترمذى في أبواب القدر : باب ماجاء في التشديد في الخوض في القدر ٢ / ٣٥

(٤) جامع الترمذى مع شرحه تحفة الأحوذى ٤ / ٣٠٦

(٥) رواه الدارمى . . . مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٨

(٦) خلاصة السير ص ١٩ ، ٢٠

(٧) صحيح البخارى ١ / ٥٠٣ ، صحيح مسلم ٢ / ٢٥٧

وقال أبو جحيفة : أخذت بيده ، فوضعتها على وجهى ، فإذا هى أبرد من الثلج ، وأطيب رائحة من المسك [١] .

وقال جابر بن سمرة — وكان صبيا — : مسح خدى فوجدت ليده بـــردا أو ريحا كأنما أخرجها من جونة عطار [٢] .

وقال أنس : كأن عرقه اللؤلؤ . وقالت أم سليم : هو من أطيب الطيب [٣] .

وقال جابر : لم يسلك طريقـــا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرفه . أو قال : من ريح عرقه [٤] .

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة ، يشبه جسده ، وكان عنـــد ناغض كتفه اليسرى ، جمعا عليه خيلان كأمثال الثآليل [٥] .

كمال النفس ومكارم الأخلاق :

كان النبى صلى الله عليه وسلم يمتاز بفصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، وكان من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لايجهل ، سلاسة طبـــع، ونصاعة لفظ وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل قبيلة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها ، ونصاعـــة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحى .

وكان الحلم والاحتمال ، والعفو عند المقدرة ، والصبر على المكاره ، صفات أدبه الله بها ، وكل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هفوة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبرا ، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما ، قالت

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٠٢

(٢) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٦

(٣) نفس المصدر

(٤) رواه الدارمى . . . . مشكاة المصابيح ٢ / ٥١٧

(٥) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٩ ، ٢٦٠

عائشة : ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها [1] . وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا .

وكان من صفة الجود والكرم على مالا يقادر قدره : كان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وأجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل . وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة [2] . وقال جابر : ماسئل شيئا قط فقال : لا [3] .

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذى لايجهل ، كان أشجع الناس ، حضر المواقف الصعبة ، وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة ، وهو ثابت لايبرح ، ومقبل لايدبر ، ولايتزحزح ، وماشجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه ، قال على : كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه [4] . قال أنس : فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا ، وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبى طلحة عرى ، فى عنقه السيف ، وهو يقول : لم تراعوا ، لم تراعوا [5] .

وكان أشد الناس حياء وإغضاء ، قال أبو سعيد الخدرى : كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وإذا كره شيئا عرف فى وجهه [6] . وكان لايثبت نظره فى وجه أحد ، خافض الطرف . نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل

---

(١) صحيح البخارى ١ / ٥٠٣ (٢) نفس المصدر ١ / ٥٠٢
(٣) نفس المصدر ١ / ٥٠٢
(٤) انظر الشفاء للقاضى عياض ١ / ٨٩ ، ومثل ذلك روى أصحاب الصحاح والسنن .
(٥) صحيح مسلم ٢ / ٢٥٢ ، وصحيح البخارى ١ / ٤٠٧
(٦) صحيح البخارى ١ / ٥٠٤

نظره الملاحظة ، لايشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس ، وكان لايسمى رجلا بلغ عنه شئ يكرهه ، بل يقول · مابال أقوام يصنعون كذا . وكان أحق الناس بقول الفرزدق :

يغضى حياء ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

وكان أعدل الناس ، وأعفهم ، وأصدقهم لهجة ، وأعظمهم أمانة ، اعترف له بذلك محاوره وأعداؤه ، وكان يسمى قبل نبوته الأمين ، ويتحاكم إليه فى الجاهلية قبل الإسلام ، روى الترمذى عن على أن أبا جهل قال له : إنا لانكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى فيهم « فإنهم لايكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » [1] . (٦ : ٣٣) وسأل هرقل أبا سفيان ، هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قال : لا .

وكان أشد الناس تواضعا ، وأبعدهم عن الكبر ، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك ، وكان يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس فى أصحابه كأحدهم ، قالت عائشة : كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم فى بيته ، وكان بشرا من البشر يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ويخدم نفسه [2] .

وكان أوفى الناس بالعهود ، وأوصلهم للرحم ، وأعظم شفقة ورأفة ورحمة بالناس ، أحسن الناس عشرة وأدبا ، وأبسط الناس خلقا ، أبعد الناس من سوء الأخلاق ، لم يكن فاحشا ، ولا متفحشا ، ولا لعانا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولايجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، وكان لايدع أحدا يمشى خلفه ، وكان لايترفع على عبيده وإمائه فى مأكل ولا ملبس ، ويخدم من خدمه ، ولم يقل لخادمه أف قط ، ولم يعاتبه على فعل شئ أو تركه ، وكان يحب المساكين ويجالسهم

---

(١) مشكاة المصابيح ٢ / ٥٢١

(٢) نفس المصدر ٢ / ٥٢٠

ويشهد جنائزهم، ولا يحقر فقيرا لفقره . كان فى بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة فقال رجل : على ذبحها وقال آخر : على سلخها . وقال آخر : على طبخها ، فقال صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب ، فقالوا : نحن نكفيك . فقال : قد علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه ، وقام وجمع الحطب [1] .

ولنترك هند بن أبى هالة يصف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال هند فيما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه — لا بأطراف فمه — ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلا لافضول فيه ولاتقصير دمثا ليس بالجافى ولا بالمهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لايذم شيئا ، ولم يكن يذم ذواقا — مايطعم — ولايمدحه ، ولايقام لغضبه إذا تعرض للحق بشىء حتى ينتصر له لايغضب لنفسه ، ولاينتصر لها — سماحة — وإذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه . يؤلف أصحابه ولايفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .

يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويصوبه ، ويقبح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر ، غير مختلف ، لايغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا لكل حال عنده عتاد ، لايقصر عن الحق ، ولا يجاوزه إلى غيره . . الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

---

(١) خلاصة السير ص ٢٢

كان لايجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولايوطن الأماكن – لايميز لنفسه مكانا – إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لايحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق متقاربين . يتفاضلون عنده بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لاترفع فيه الأصوات ، ولاتؤبن فيه الحرم – لاتخشى فلتاته – يتعاطفون بالتقوى ، يوقرون الكبير ، ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ، ويؤنسون الغريب

كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ، ولاغليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولاعتاب ، ولامداح ، يتغافل عما لايشتهى . ولايقنط منه قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لايعنيه ، وترك الناس من ثلاث : لايذم أحدا ، ولايعيره ، ولايطلب عورته ، ولايتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رءوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق ، ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه ، ولايطلب الثناء إلا من مكافئ [١] .

وقال خارجة بن زيد : كان النبي صلى الله عليه وسلم أوقر الناس فى مجلسه لايكاد يخرج شيئا من أطرافه ، وكان كثير السكوت ، لايتكلم فى غير حاجة ، يعرض عمن تكلم بغير جميل ، كان ضحكه تبسما . وكلامه فصلا ، لافضول ولاتقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم ، توقيرا له واقتداء به [٢] .

---

(١) انظر الشفا للقاضى عياض ١ / ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، وانظر أيضا شمائل الترمذى .

(٢) نفس المصدر ١ / ١٠٧

وعلى الجملة فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محلى بصفات الكمال المنقطعة النظير ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، حتى خاطبه مثنيا عليه فقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » (٦٨ : ٤) وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس ، وحببه إلى القلوب وصيره قائدا تهوى إليه الأفئدة ، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء ، حتى دخلوا فى دين الله أفواجا .

وهذه الخلال التى أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته ، أما حقيقة ماكان عليه من الأمجاد والشمائل فأمر لا يدرك كنهه ، ولا يسبر غوره ، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر فى الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال ، استضاء بنور ربه ، حتى صار تخلقه القرآن ؟

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد .

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية ١٣ / ١١ / ١٣٩٦هـ

بنارس الهند ٦ / ١١ / ١٩٧٦م

ثبت المراجع

١ – إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام
شهاب الدين أحمد بن محمد الأسدى المكى (م ١٠٦٦هـ) المطبعة السلفية بنارس الهند ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٢ – الأدب المفرد
محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦هـ) طبع استامبول ١٣٠٤ هـ .

٣ – الأعلام
خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٤م .

٤ – البداية والنهاية
إسماعيل بن كثير الدمشقى مطبعة السعادة مصر ١٩٣٢م .

٥ – بلوغ المرام من أدلة الأحكام
أحمد بن حجر العسقلانى (٧٧٣ – ٨٥٣هـ) المطبع القيومى كانفور الهند ١٣٢٣هـ .

٦ – تاريخ أرض القرآن
السيد سليمان الندوى (١٣٧٣هـ) معارف بريس أعظم كده – الهند ١٩٥٥م (الطبعة الرابعة) .

٧ – تاريخ إسلام
شاه أكبر خان نجيب آبادى مكتبة رحمت ديوبند يوبى الهند .

٨ – تاريخ الأمم والملوك
ابن جرير الطبرى المطبعة الحسينية المصرية .

٩ – تاريخ عمر بن الخطاب
أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى مطبعة التوفيق الأدبية بمصر .

١٠ ــ تحفة الأحوذى .

أبو العلى عبد الرحمن المباركفورى (م ١٣٥٣هـ ــ ١٩٣٥م) جيد برقى بريس دهلى الهند ١٣٤٦ ــ ١٣٥٣هـ .

١١ ــ تفسير ابن كثير

إسماعيل بن كثير الدمشقى دار الأندلس بيروت .

١٢ ــ تفهيم القرآن

الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى مركزى مكتبة جماعت إسلامى الهند .

١٣ ــ تلقيح فهوم أهل الأثر

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (م ٥٩٧هـ) جيد برقى بريس دبلى الهند .

١٤ ــ جامع الترمذى

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (٢٠٩هـ ــ ٢٧٩هـ) المكتبة (الرشيدية دهلى الهند) .

١٥ ــ الجهاد فى الإسلام (الأردو)

الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى ، إسلامك پبليكشنز لميد لاهور (باكستان) الطبعة الرابعة ١٩٦٧م .

١٦ ــ خلاصة السير

محب الدين أبو جعفر أحمد بن عبد الله الطبرى م ٦٧٤هـ دلى برنٹينك بريس دهلى الهند ١٣٤٣هـ .

١٧ ــ رحمة للعالمين

محمد سليمان سلمان المنصور فورى (م ١٩٣٠م) حنيف بكڈپودلى

١٨ ــ رسول أكرم كى سياسى زندگى

الدكتور حميد الله ، باريس سالم كمپنى ديوبنديو ــ بى الهند ١٩٦٣م .

١٩ — الروض الأنف

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (٥٠٨ — ٥٨١ هـ) المطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م .

٢٠ — زاد المعـــاد

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب المعروف بابن القيم (٦٩١ — ٧٥١) المطبعة المصرية الطبعة الأولى ١٣٤٧ — ١٩٢٨م .

٢١ — سفر التكوين

٢٢ — سنن ابن ماجة

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (٢٠٩ — ٢٧٣هـ) .

٢٣ — سنن أبي داود

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٠٢ — ٢٧٥هـ ج ١ المطبع المجيدي كانفور الهند ١٣٧٥هـ ٢ المكتبة الرحيمية ديوبنديو بى الهنـــد .

٢٤ — سنن النسائي

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٢١٥ — ٣٠٣هـ) المكتبة السلفية لاهور (باكستان)

٢٥ — السيرة الحلبية

ابن برهان الدين .

٢٦ — السيرة النبوية

أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (٢١٣ أو ٢١٨هـ) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ — ١٩٥٥م .

٢٧ — شرح شذور الذهب

أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف المعروف بابن هشام الأنصاري (٧٠٨ — ٧٦١) مطبعة السعادة بمصر .

٢٨ – شرح صحيح مسلم
أبو زكريا محى الدين يحي بن شرف النووى (٦٧٦هـ) المكتبة الرشيدية دهلى الهند ١٣٧٦هـ .

٢٩ – شرح المواهب اللدنية
الزرقانى نسخة عتيقة مخرومة الأوائل .

٣٠ – الشفا بتعريف حقوق المصطفى
القاضى عياض مطبعة عثمانية استانبول ١٣١٢ هـ .

٣١ – صحيح البخارى
محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦م) المكتبة الرحيمية (يوبند الهند) ١٣٨٤ – ١٣٨٧هـ .

٣٢ – صحيح مسلم
مسلم بن الحجاج القشيرى المكتبة الرشيدية دهلى الهند ١٣٧٦هـ .

٣٣ – صحيفة حبقوق

٣٤ – صلح الحديبية
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) دار الفكر ١٣٩١ هـ١٩٧١م

٣٥ – الطبقات الكبرى
محمد بن سعد مطبعة بريل ليدن ١٣٢٢هـ .

٣٦ – عون المعبود شرح أبى داود
أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادى (الطبعة الأولى الهندية) .

٣٧ – غزوة أحد
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) .

٣٨ – غزوة بدر الكبرى.
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثالثة) ١٣٧٦ هـ – ١٩٧٦م .

٣٩ — غزوة خيبر
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) دار الفكر ١٣٩١ — ١٩٧١

٤٠ — غزوة بنى قريظة
محمد أحمد باشميل (الطبعة الأولى) ١٣٧٦ هـ — ١٩٦٦م

٤١ — فتح البارى
أحمد بن على بن حجر العسقلانى (٧٧٣— ٨٥٢) المطبعة السلفية ومكتبتها ، الروضة .

٤٢ — فقه السيرة
محمد الغزالى . دار الكتاب العربى بمصر الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ١٩٥٥م

٤٣ — فى ظلال القرآن
سيد قطب ، دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان الطبعة الثالثة .

٤٤ — القرآن الكريم

٤٥ — قلب جزيرة العرب
فؤاد حمزة المطبعة السلفية ومكتبتها ، الروضة بمصر ١٣٥٢هـ ١٩٢٣م .

٤٦ — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى الطبعة الرابعة مكتبة دار العروبة القاهرة ١٣٨١هـ — ١٩٦١م .

٤٧ — محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية
الشيخ محمد الخضرى بك ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، الطبعة الثامنة ١٣٨٢ هـ .

٤٨ — مختصر سيرة الرسول
شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمى النجدى (م ١٢٠٦) مطبعة السنة المحمدية القاهرة الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦م .

٤٩ — مختصر سيرة الرسول

الشيخ عبد الله بن محمد النجدى آل الشيخ (م بمصر ١٢٤٢هـ) المطبعة السلفية ومكتبتها الروضة بمصر ١٣٧٩هـ .

٥٠ — مدارك التنزيل للنسفى

٥١ — مرعاة المفاتيح ج٢

الشيخ أبو الحسن عبيد الله الرحمانى المبـاركفورى نامى بريس لكنؤ الهند ١٣٧٨هـ — ١٩٥٨م .

٥٢ — مروج الذهب

أبو الحسن على المسعودى مطبعة الشرق الإسلامية القاهرة .

٥٣ — المستدرك

أبو عبد الله محمد الحاكم النيسابورى دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد . الهنـد .

٥٤ — مسند أحمد

الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى (٢٦٤هـ) .

٥٥ — مسند الدارمى

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ١٨١ — ٢٥٥هـ .

٥٦ — مشكاة المصابيح

ولى الدين محمد بن عبد الله التبريزى ، المكتبة الرحيمية ديوبند يو بى — الهند

٥٧ — معجم البلدان ياقوت الحمـوى .

٥٨ — المواهب اللدنية

للقسطلانى المطبعة الشرفية ١٣٣٦هـ ، ١٩٠٧م .

٥٩ — موطأ الإمام مالك

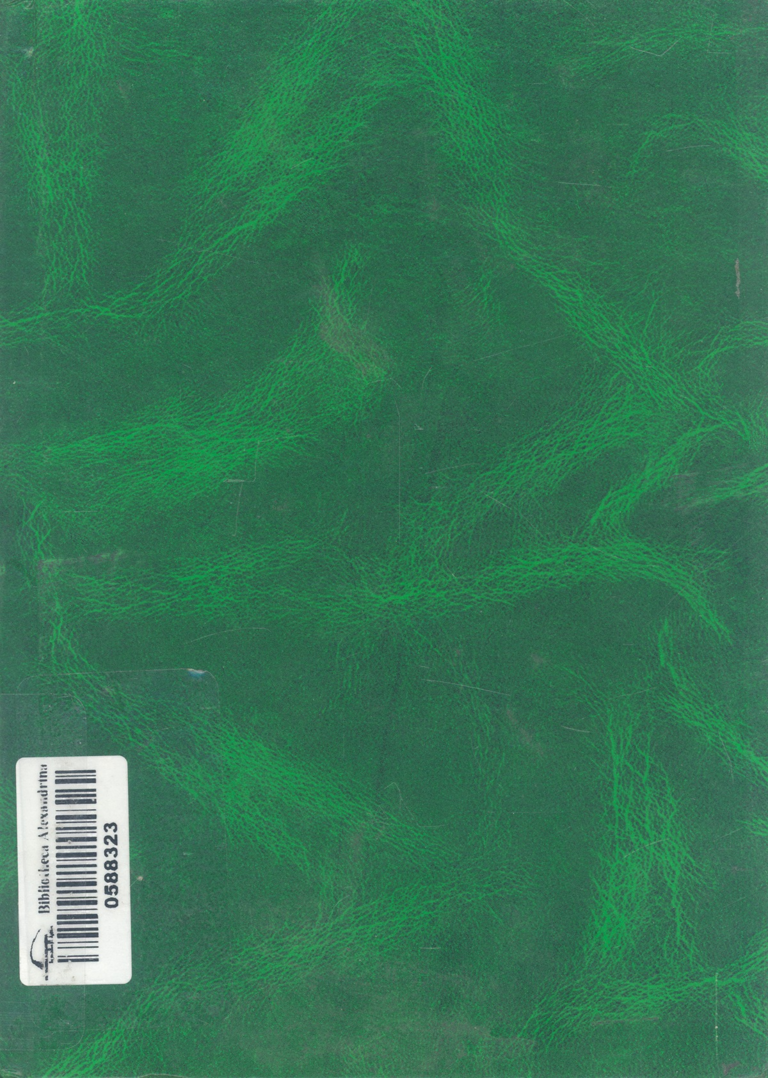
الإمام مالك بن أنس الأصبحى (م ١٦٩هـ) المكتبة الرحيمية ديوبند يو — بى . الهند .

٦٠ — وفاء الوفـا على بن أحمد السمهودى .

فهرس الموضوعات

غـزوة بدر الكبرى ٢٢٦ — ٢٥٨

غـزوة أحـد ٢٧٦-٣٢٤


Bibliotheca Alexandrina
0588323